وزارة الشئون الإسلامية
Ministry of Islamic Affairs
State of Kuwait | دولـــة الكويـــت

الفنية
إدارة الشؤون الفنية
قطاع المساجد

البيت المسلم

تأليف الشيخ

أحمد الحمد جلباية

رحمه الله تعالى

توفي سنة ١٤٣٣هـ = ٢٠١٢م

اعتنى به

ياسر إبراهيم نجار

إصدار إدارة الشؤون الفنية

١٤٤٧هـ - ٢٠٢٥م

حقوق الطبع محفوظة
لوزارة الشؤون الإسلامية الكويتية
قطاع المساجد – إدارة الشؤون الفنية

الطبعة الأولى
١٤٤٧هـ – ٢٠٢٥م

رقم الإيداع في إدارة التخطيط الاستراتيجي
في وزارة الشؤون الإسلامية
(٢٠١٨/٢٠)

- **الرؤية: الريادة عالميًّا في العمل الإسلامي.**
- **الرسالة: ترسيخ قيم الوسطية، والأخلاق الإسلامية، ونشر الوعي الديني الثقافي، والعناية بالقرآن الكريم، والسنة النبوية، ورعاية المساجد، وتعزيز الوحدة الوطنية من خلال تنمية الموارد البشرية والنظم المعلوماتية، وفقًا لأفضل الممارسات المالية.**
- **القيم: التميز، العمل المؤسسي، الشراكة، الوسطية، الشفافية والمسؤولية.**

قطاع المساجد – إدارة الشؤون الفنية
للتواصل: بدالة 1810111– داخلي 7370 – 7387
العنوان: الرقعي – شارع محمد بن القاسم – قطاع المساجد
www.awqaf.gov.kw

البَيْتُ المُسْلِمُ

تأليف الشيخ

أحمد الحمد جلباية

رحمه الله تعالى

توفي سنة ١٤٣٣ هـ = ٢٠١٢م

اعتنى به

ياسر إبراهيم نجّار

إصدار إدارة الشؤون الفنية

١٤٤٧ هـ - ٢٠٢٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير إدارة الشؤون الفنية

الحمدُ لله رب العالمين، والصّلاة والسلام على نبيِّنا ومولانا محمّدٍ، وعلى آلِه وصحبِه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أمّا بعدُ، فيسُرُّ إدارةَ الشّؤون الفنّيّة بقطاع المساجد في وزارة الشّؤون الإسلاميّة بدولة الكويت أن تقدّم كتاب **(البيت المسلم) للشيخ أحمد أحمد جلباية** رَحِمَهُ اللَّهُ.

وهو كتاب مفيد وممتع، تحدث فيه الشيخ عن تأسيس الأسرة، واختيار الزوج والزوجة، وحقوقهما، وحقوق الطفل الوليد وتربيته وتنشئته. وتناول بعض مشاكل الأسرة، ووسائل معالجتها.

وقد قام بتحقيق هذا الكتاب الشيخ ياسر إبراهيم نجار، الباحث الشرعي في إدارة الشؤون الفنية، والإمام والخطيب في وزارة الشؤون الإسلامية، فخرّج أحاديثه، وضبط نصوصه، وقام بكل ما يحتاجه الكتاب من تحقيق علمي، فجزاه الله خيرًا.

وإدارة الشؤون الفنية إذ تُخرج هذا الإصدار تهدف من ورائه إلى الارتقاء علميًّا ودَعَويًّا بالعاملين في وزارة الشؤون الإسلامية من الخطباء والأئمة والمؤذنين، وغيرهم من أولي العلم، وحثِّهم على قراءةِ الكتبِ النّافعة، ودوامِ مطالعتِها.

والإدارة إذ تُهدي إصدارها هذا إلى عمومِ القرّاء؛ ترجو الله تعالى أن ينفعَ به، وبمن يستفيد منه، والله الهادي إلى سواء السّبيل.

إدارة الشؤون الفنية

الكويت ١٤٤٧هـ - ٢٠٢٥م

مقدمة التحقيق

الحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وآله وصحبه ومن والاه.

أمّا بعدُ، فقد أُسنِدَ إليَّ تحقيقُ كتاب **(البيت المسلم)** للشيخ العالِم الفاضل أحمد أحمد جلباية رَحِمَهُ اللَّهُ، وأصلُ هذا الكتاب دروس قدّمها الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في حلَقات عبر الإذاعة الكويتية، ثم جمعها وأعدّها لتطبع في كتاب، ليعُمَّ الانتفاع به.

وقد تسلّمتُ مادةَ الكتاب في ملف (word)، ومن خلال قراءتي له وجدته كتابًا ممتعًا، تحدث فيه الشيخ عن بداية تأسيس الأسرة، وأن الزواج سنة الله في خلقه، بدءًا بالخِطبة وآدابها، واختيار الزوج واختيار الزوجة، وحقوق كل منهما، وحسن معاملة كل منهما للآخر.

ثم بالوَلِيد الذي يُولد على الفطرة، وحقوقه وتربيته ورَضاعه: من الطفولة إلى الصِّبا، إلى البلوغ، إلى مرحلة الشباب.

وتناول في أثناء ذلك ذكرَ بعض مشاكل الأُسرة، كأسباب أزمة الزواج، وقضية المراهقة، ومشكلة الإدمان، وغيرها مما يعترض الحياة الزوجية وحياة الشباب، مقدِّمًا حلولَ الشرع الحكيم لها.

وقد تناول الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ هذي القضايا ببيان مشرق، وأسلوبٍ جذّاب، وعبارةٍ أَخّاذة، وقلم سيّال، وحُرْقةٍ على ما آل إليه وضعُ بعض المسلمين.

وبفضل الله تعالى اعتنيت به على أسس التحقيق العلمي المعروف، ليخرج الكتاب بحُلّة قَشِيبة، وصورة جميلة، وكان عملي فيه كما يلي:

١- أوردتُ ترجمة مختصرة للمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ.

٢- قسمتُ النص في فِقْرات متناسقة، ووضعتُ علاماتِ الترقيم، وضبطتُ ما يُحتاج إليه، وصحّحتُ ما وجدته من أخطاء طباعية ولُغوية، ومنها بعض الأخطاء الشائعة، مثل:

طالما لا تستطيعون = ما دمتم لا تستطيعون.

صدفة = مصادفة.

يُعتبر كذا = يُعدّ كذا.

ريجيم = نظام حِمية.

٣- تثبتُّ من عزو الآيات إلى سورها، وذكرِ أرقام الآيات.

٤- خرّجتُ الأحاديث بذكر حكم المحدّثين عليها إن لم تكن في الصّحاح. وكانت ألفاظ بعض الأحاديث في الكتاب مغايرةً لما في المصادر التي أخرجتها، فأثبتُّ ما في المصادر.

٥- خرّجتُ الآثار والقِصصَ الواردةَ عن الصحابة والتابعين ومَن بعدَهم.

٦- خرّجتُ أبياتَ الشِّعر من مصادرها الأصلية، وعلى رأسها دواوين الشعراء.

٧- تتبّعتُ نصوصَ العلماء التي أوردها المؤلف، فقابلتُها بالمصادر، وعزوتُ إليها بذكر الجزء والصفحة عند الحاجة.

٨- شرحتُ الألفاظَ الغريبة التي تَحتاج لتوضيح.

٩- علّقتُ في بعض المواضع، لزيادة الفائدة.

وبذلك أرجو أن يكون الكتاب قد استوفى حقه من النظر والتدقيق، وأن يَسعَدَ به أهل العلم والفضل، سائلًا المولى عز وجل أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم.

وصلى الله وسلم على نبينا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ياسر إبراهيم نجّار (أبو سَلَمة)

الكويت / ٢٥ جمادى الأولى ١٤٤٠

٢٠١٩/١/٣١م

ترجمة المؤلف

الشيخ أحمد أحمد محمد جلباية رَحِمَهُ اللَّهُ

(١٣٤٠هـ - ١٤٣٣هـ)
(١٩٢٢م - ٢٠١٢م)

ولادته ودراسته:

ولد رَحِمَهُ اللَّهُ في قرية أَتْمِيده - مركز ميت غَمر - محافظة الدَّقَهْليّة، جمهورية مصر، في ٢٠ شعبان ١٣٤٠هـ = ١٧/ ٤/ ١٩٢٢م.

حفظ القرآن منذ نعومة أظفاره، ونال شهادةَ ثانوية الأزهر من معهد الزقازيق ١٣٦٢هـ - ١٩٤٣م، ثم الشهادة العالية (البكالوريوس) من كلية أصول الدين ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م، ثم شهادة العالِميّة (الماجستير) مع إجازة الدعوة من كلية أصول الدين ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م.

زواجه وأسرته:

تزوج الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ سنة (١٩٥٤م) من السيدة الفاضلة نجاة الإمام السيد لطفي، ورُزق منها بخمسة أبناء، وهم على الترتيب: صبحي (مهندس كَهرَباء)، محمد (كابتن طيار، ثم رجل أعمال)، سحر (طبيبة أسنان)، سلوى (طبيبة بشري)، طارق (طبيب بشري).[١]

---

(١) وكان للدكتورة سلوى (جزاها الله خيرًا وبارك فيها) جهد مبارك في كتاب البيت المسلم، إذ ساعدت والدها الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، فقامت بنسخ الكتاب وتنسيقه في ملف (word) بإشراف والدها الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ.

أعماله ووظائفه:

١- تولى الإمامة والخطابة من ٤/ ٩/ ١٩٤٩م، وكان خطيبًا مفوهًا.

٢- كان مشرفًا على تحرير مجلة الأزهر (نور الإسلام).

٣- انتدب من قبل الأزهر والمؤتمر الإسلامي، إلى لبنان داعيةً وإمامًا وخطيبًا، من ٢٥/ ١٢/ ١٩٥٥م، إلى ٧/ ١١/ ١٩٦١م.

٤- ثم انتدب إلى الكويت من قبل الأزهر، واعظًا وخطيبًا ومدرسًا، في أول بعثةِ وعظٍ إلى الكويت، من ٢٤/ ١٠/ ١٩٦٤م، إلى ٣١/ ٨/ ١٩٦٨م، فهو من أقدم العلماء الذين قدموا إلى الكويت.

٥- ثم انتدب إلى الكويت مرة أخرى إعارةً على سبيل التعاقد، من ٤/ ٩/ ١٩٧٠م، وبقي في الكويت حتى وفاته رَحِمَهُ اللَّهُ.

٦- يعد من المؤسسين للهيكل الإداري في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت، ومن المؤسسين لِدُور القرآن الكريم.

٧- قام في الكويت بالتدريس في معهد الإمامة والخطابة (١٩٦٥م-١٩٦٨م) ثم عام (١٩٧٠م-١٩٧١م)، ثم قام بتدريس مادة التفسير في دار القرآن الكريم من عام ١٩٧٢م، ثم في قسم الدراسات حتى الغزو العراقي الغاشم عام ١٩٩٠م.

٨- قام بإعداد وإلقاء أحاديث ودروس في الإذاعة والتلفاز في الكويت.

٩- كان عضوًا في لجنة اختبار الأئمة والمؤذنين في الكويت.

١٠- كان عضوًا في خدمة الفتوى الهاتفية في الكويت منذ إنشائها في ١٢/ ١٠/ ١٩٩١م حتى وفاته، إذ كان فقيهًا شافعيًّا ضابطًا للمذهب.

١١- عين رئيسًا لقسم التوجيه الفني والتفتيش بإدارة المساجد في وزارة الأوقاف الكويتية ٣٠/ ١٢/ ١٩٧٧م.

١٢- عين موجهًا فنيًّا عامًّا في مكتب الشؤون الفنية بقطاع المساجد بعد إحالته للتقاعد بتاريخ ٢٨/ ١١/ ١٩٧٧م.

ومن الأعمال التي كان يقوم بها: مراجعة الخطب الموزعة، ومراجعة ما فيها من نصوص، وإعداد بعض الخطب، ومتابعة خطباء الإذاعة، ومتابعة قراء الإذاعة والحفلات الرسمية واختيار المتميزين منهم، والمشاركة في إعداد إصدارات القطاع، وغير ذلك.

١٣- شارك في مؤتمرات وندَوات ودوْرات، وتَلمَذَ على يديه كثير من الشيوخ وطلبة العلم.

١٤- البعثات في الكويت: أوفدته الكويت إلى فرنسا مدة شهر ونصف، ثم إلى البحرين كذلك مدة شهر ونصف، ثم إلى البحرين عدة مرات للاشتراك في الاحتفالات والمواسم الدينية، ثم إلى المالديف خمس مرات بناء على طلبها إحياءَ شهر رمضان، في الأعوام ١٩٨٢م، ١٩٨٤م، ١٩٨٦م، ١٩٩٠م، ثم إلى القاهرة والسعودية في لجنة لاختيار أئمة ومؤذنين.

مؤلفاته:

١- الكسب الطيب، وهو أبحاث حول وظيفة المال في الإسلام، طبع الكتاب في مكتب الشؤون الفنية عام ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

٢- البيت المسلم، وهو الكتاب الذي بين أيدينا.

٣- نظرات في القرآن الكريم.

٤- أحاديث إذاعية.

٥- خطب منبرية متنوعة (٣ أجزاء).

٦- رسالة في الخطابة.

٧- رسالة في المواريث.

من أخلاقه وعبادته:

كان الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ حافظًا لكتاب الله تعالى، يقرأ كل يوم خمسة أجزاء، يبدأ بتلاوة حزبه من قيام الليل، ويتابع بعد الفجر، وإن ضاق عليه الوقت يُكمل ما فاته في دوامه، إذ كان يأتي إلى عمله قبل بداية الدوام بنصف ساعة فيبدأ بالمصحف الشريف، ولا ينصرف إلا عند نهاية الدوام.

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ صاحب أخلاق حميدة، كريمًا، متواضعًا، قليل الكلام، كثير التبسم، لم تُسمع منه غِيبةٌ أو غير ذلك، مُجِدًّا متقِنًا في قيامه بالأعمال المنوطة به.

قال الشيخ حسن مراد مناع، المستشار الشرعي لقطاع الإفتاء والبحوث الشرعية: (بالأمس القريب ودّعْنا رائدًا من رواد الدعوة الإسلامية، وعلَمًا من أعلامها البارزين، وهو العالم التقي النقي فضيلة الشيخ أحمد جلباية..

فقيدَنا الغالي رفيقَ الدرب وصديقَ العمر.. عزاؤنا أنك قدمت طول حياتك خير زاد، وأنبل عطاء، وظلّت رايتك طول عمرك بيضاء، وسيرتك تعطر الأجواء، ومن فضل الله عليك أن وهبك قوة الحفظ والاستيعاب،

كنت تحفظ القرآن الكريم حفظًا مميزًا مع فهمه وتجويده، وأَسنَدَتْ لك وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية وظيفة رئيس المكتب الفني سنينَ عديدة، فكنت صادقًا أمينًا، ما غضبتَ من أحد، وما غضب منك أحد، شهد لك بالفضل كل من تعامل معك..).

وقال الشيخ كمال محمد درويش، الإمام والخطيب في الكويت، وعضو المكتب الفني: (عرفت الشيخ.. في مطلع الثمانينات، ورأيت فيه رجلًا دمث الخلق، حسن المظهر، فيه شموخ العلماء، ورقة الحكماء، وتواضع العظماء، رأيت رجلًا له النظرات الثاقبة التي تنم عن الأصالة وغزارة العلم، مع تقوى الله تعالى..).

وقال الشيخ عبد الحميد عبد المطلب عبد المقصود، الإمام والخطيب في الكويت، وعضو إدارة الشؤون الفنية: (ومما علمتُه في الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: حرصه على صلاة الجماعة، فلا يَشغَلُه عنها شاغل.. وكان معطاءً صاحب كرم وجُود، وغالب ذلك في السر، وقد عهد إليّ بإنفاذ بعض الصدقات لأرحامه، وكان يتحف ويكرم العاملين البسطاء..).

وفاته:

توفي الشيخ مساء الخميس في الأول من ربيع الآخر ١٤٣٣هـ = ٢٣/ ٢/ ٢٠١٢م، عن ٩٣ عامًا تقريبًا، بعد حياة مليئة بالعلم والدعوة والنشاط، ودفن في الكويت، في مقبرة الصُّلَيْبِخات، رحمه الله تعالى رحمةً واسعة.

مصادر الترجمة:

١- (السيرة الذاتية) بقلم المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ، كتبها عام ٢٠٠٤م.

٢- مقال (رحيل الشيخ أحمد جلباية)، المنشور في موقع قطاع المساجد، مكتب الشؤون الفنية، بتاريخ ٧/ ٣/ ٢٠١٢م.

٣- مقال (بعد رحلة استمرت لـ ٩٠ عامًا.. الشيخ أحمد جلباية في رحاب الله) بقلم الصحفي الأستاذ عبد الله متولي أحمد، منشور في جريدة الراي الكويتية بتاريخ ٨/ ٣/ ٢٠١٢م.

٤- مقابلة شفهية مع الشيخ عبد الحميد عبد المطلب عبد المقصود، الإمام والخطيب في الكويت، وعضو إدارة الشؤون الفنية.

٥- اتصال هاتفي مع أسرته الكريمة.

❊ ❊ ❊

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمدُ لله رب العالمين، والصلاةُ والسلام على أشرف المرسلين، سيدِنا محمدٍ وآلِه وأصحابِه أجمعين.

وبعد، فقد قُدّر علينا أن ندرك هذا العصرَ الذي تقاربت فيه المسافات، واختلطت فيه الثقافات، وقرُب فيه البعيد، وأصبح الكونُ كلُّه كأنه قريةٌ واحدة، والفضاءُ يموج بآلافِ الصُّوَر وآلافِ الحقائق، والإنسانُ البسيط في أقصى الشرق يمكن أن يرى بعينيه في نفس اللحظة ما يحدث في أقصى الغرب، كأنما رُفع الحجاب بينهم، والتفوقُ المادي في جميع نواحي الحياة يجري بسرعة الضوء، والأنفاس تتلاحق وراءه، لا تكاد تضع يدها على أمر حتى تُفاجأ بأمرٍ أعظمَ، يفوق كل ما تقدم.

ولو كان هذا التفوق المادي يوازيه في الوقت نفسه تفوقٌ روحي أو تفوق أدبي، واستمساكٌ بالعروة الوثقى، لَمَا انفصَم نظام الحياة في أمتنا الإسلامية التي من أخص خصائصها أنها خير أمة أخرجت للناس، ولكن بكل أسف طَغَتِ المادة على نواحي حياتنا الاجتماعية والأخلاقية والدينية.

حتى الزواج أصبح زواجًا ماديًّا، يخضع للظروف الاقتصادية، ويقدر بقدرها.. والأطفالُ الذين نَـوَدُّ أن تزدهر حياتُهم، وتُـورِقَ أعوادُهم، وتُشرقَ نفوسُهم ووجوهُهم، أصبحوا ينظرون إلى الحياة نظرة مادية بحتة،

ويختصرون الطريق للوصول إلى المال، مهما كانت وسيلةُ الوصول إليه، ضاربين بالعلم والأدب عُرضَ الحائط.

وأصبح الكثير منهم تكسو وجوهَهم سحابةٌ من الهم والكآبة على صِغَرِ سِنِّهم، ويَضِيقون بالمعيشة التي يعيشها آباؤهم وأمهاتهم، ويدفعونهم دفعًا إلى المال الحرام، أو في أحسن الأحوال يريدونهم آلاتٍ تدور ليلًا ونهارًا، ولا تتوقف، حتى ينالوا من الحياة كلَّ ما فيها من جمال ومُتَع، فإن لم يستطيعوا أن يحققوا لهم ولو قسطًا مما يَشغَلُ بالَهم، ويَقُضُّ مضاجعَهم: عَلَتْ أصواتُهم، وغاض حياؤُهم! وتبدَّل بِرُّهم إلى عقوق، وهدوءُهم إلى شراسة، ولِينُهم إلى غلظة! وقال أكثرُهم أدبًا، وأحسنُهم عقلًا: لماذا جئتم بنا إلى الحياة، ما دُمتُم لا تستطيعون الإنفاقَ علينا وتحقيقَ رغباتنا؟!

وهذا التعبير السيئ، وهذا الفهم الخاطئ، وهذا الاحتجاج الصارخ على قضاء الله وقَدَرِه، ما كان لِيَخطُرَ على بال الأجيال السابقة، رغمَ ما كانت تقاسيه من مرارة وحرمان، لأن إيمانَهم بالله، ورضاهُم بقَدَرِه المكتوب، وقناعتَهم بالرزق المقسوم، كان يكسو الحياةَ نَضارةً ورِضًا، ويملأ النفسَ سعادةً وسرورًا، ويجعل المسلمَ يشعر بالغِنى الحقيقي من داخل نفسه، لأنه، كما قال النبي ﷺ: «**ليس الغِنى عن كثرةِ العَرَض، ولكنّ الغِنى غِنى النفس**» متفق عليه،[1] ولأن المسلم يحفظُ منذُ الصِّغَر وصيةَ النبي ﷺ: «**وارْضَ بما قَسَمَ الله لك، تكُنْ أغنَى الناس**». حديث

(١) صحيح البخاري (٦٤٤٦)، صحيح مسلم (١٠٥١) عن أبي هريرة رضي الله عنه، و«**العَرَض**» هو متاع الدنيا وحُطامُها من مال وغيره.

حسن رواه أحمد والترمذي.[1]

لَكَمْ أصبحت الحياة قاسية! والحصولُ على الكفاف أمرًا عسيرًا، وأملًا من الآمال! في ظروف الغلاء المستحكم، وضيق ذات اليد، وفي غياب الضمير الإسلامي، وفي نضوب المروءة والرحمة، وفي ضراوة النَّهَم والجشع الذي تنتفخ به صدور الأغنياء، الذين يحلو لهم الاتجارُ بالآمال والتلاعبُ بالمقدرات، ليزيدوا غِنًى على غِناهم، ويزيدَ غيرُهم فقرًا على فقرهم.

ويضاعف من ألم الكادحين أن همومهم تزيد باستمرار، وأن الغلاء يسرع كالوحش الكاسر لا يهدأ، وأصبحنا نسمع أرقامًا كنا لا نسمع بها في الخيال، ولا يقدر عليها إلا الإقطاعيون، فأين يذهب أبناء الفقراء، الذين تذوي أعوادهم - بنين وبنات - وتسقط آمالهم واحدًا بعد الآخر؟ ليس أمامهم إلا أن يدفنوا آمالهم في القبور، وأن يهيلوا عليها التراب!

وبعض أبناء الأغنياء - في بعض البلاد - شبِعت بطونهم حتى ترهلت، واتَّخَموا من الحلال حتى كرهوه، فاتجهوا بأموالهم التي ورثوها - دونَ أن يبذُلوا في سبيلها نقطةً من عَرَق - إلى الحرام بكل ما فيه من مهالك، وإشباعِ الغرائز بكل ما لديها من جموح، وإلى أبواب الساقطات وأوكار المخدرات، ليفقِدوا آخرَ ما عندهم من كرامة، ويجلِبوا أحدثَ ما لديهم من وباء، ويُحرقوا آخرَ نقطة من دمائهم، ويَفقِدوا آخرَ فَلسٍ من أموالهم.

---

(١) مسند أحمد (٨٠٩٥)، جامع الترمذي وقال: حديث غريب (٢٣٠٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال أحمد شاكر: في إسناده ضعف، ولكنه صحيح لغيره. اهـ.

ومع ذلك فالسُّعَارُ الذي في نفوسهم لا يهدأ، والنار التي أشعلوها في أجسامهم لا تنطفئ، فلم يبق أمامهم إلا السطوُ والسرقة والابتزاز، وأصبحنا نسمع عن الشاب الذي يقتل أباه وأمه وهما من عِلْية القوم ثقافةً ومقامًا! ونسمع عن الأم التي تضحي بكبدها وقرة عينها من أجل العاشق الولهان! ونسمع عن المستشفيات التي تعجّ بالضحايا من المثقفين! ونسمع عن السجون التي تزدحم بالقتلة والمجرمين من أولاد الذوات!

ونسمع عن أفلام للجنس، وأخرى للجريمة، وثالثة للإدمان، وتدّعي كلها أنها تعالج، وهي في الحقيقة تقتُل! وتدعي أنها تُصلح، وهي في الواقع تفسد! بدليل أن بعضَ أبطالها يُضبط متلبّسًا في أوكار الدعارة، وبعضَهم يُعثر عليه مختنِقًا بدخان المخدرات، وتَسأل عن الفرق بين الواقع والتمثيل؟ فإذا بك تَعلم أنهما وجهانِ لعملة واحدة، لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

ويأخذُك العَجَبُ وأنت ترى المجتمع وأجهزة الإعلام المختلفة تضعهم في هالات كبيرة، مزدانة بالفخر والاعتزاز، وتعطيهم مِساحاتٍ واسعةً في جميع البرامج المقروءة والمسموعة والمرئية، يُؤخَذ فيها رأيُهم في السياسة والأدب والاقتصاد والاجتماع، حتى في الحرب! كأنهم هم الخبراء وحدهم.

ويموت أحدُهم فيَظلُّ المجتمع والناس والإعلام في حِدادٍ مستمر لعدة أسابيع، وتنقلب البرامج رأسًا على عقب، تَذكُر تاريخَهم ومآثرَهم، وأفضالَهم على العالَم، ورأيَ المفكرين وأهلِ الرأي فيهم، وتُصوِّرُ بيوتَهم وبلادَهم وأقاربَهم.. وتتكرر المشاهد في ذكرى وفاتهم كلَّ عام، حتى بعد عشرات السنين، كأن البلاد ليس فيها غيرهم!

بينما يموت من يموت من العلماء والأدباء والشهداء والصالحين، ورجالِ القضاء، وأساتذة الجامعات، وشيوخ الأزهر، فلا يَسمع بموتهم أحد، كأنما كان عليهم أن يموتوا من قديم، أو كأنما لم يقدِّموا للدين ولا للوطن ولا للأجيال حسنةً واحدة يُذكرون بها..

أما الطبل والزمر، والرقص والميوعة، فعمل وطنيّ جبّار! يستحقون عليه جوائز لا حصر لها، بمناسبة وغير مناسبة، لأحسن ممثل، وأحسن ممثلة، وأحسن مخرج، وأحسن مصور.. ويكون نصيب الواحد منهم عشراتِ الآلاف، فوقَ ما يتقاضاه من أجر، وما يقبض من شباك التذاكر.. والجائزة الواحدة لو وزعت على عشرات الأسر المنتجة أو المحتاجة أو المستقيمة لكفتهم..

فهل وسطَ هذه الحشائش الضارة تَحيا نبتةٌ طيبة؟ وهل وسطَ هذا الجو الخانق يمكن أن تمر نَسْمةٌ رقيقة؟ وهل وسط هذه الحقول من الألغام يمكن أن يرتفع بنيانٌ سليم، وكلُّ هذه المَعاول تهدِم؟ وصدق القائل:

متى يبلُغُ البنيانُ يومًا تمامَهُ ... إذا كنتَ تَبنِيهِ وغيرُك يهدِمُ؟[1]

(١) البيت من البحر الطويل، لصالح بن عبد القدوس الأزدي البصري (قُتل نحو ١٦٠)، كما في البيان والتبيُّن لعمرو بن بحر الجاحظ ٤/ ٢٢، والحماسة للبحتري ص٢٨٧ (٧١٠)، والأمالي لأبي علي القالي ٢/ ٩٤، ولباب الآداب للثعالبي ص١٦٠، والتمثيل والمحاضرة له ص٧٨، والدر الفريد للمستعصمي ٩/ ٢٤٦، وغيرها.
ونسبه الجاحظ في البيان والتبيُّن ٤/ ٦٧ - نقلًا عن ابن الأعرابي - لعمرو بن شأس!
ونسبه الزمخشري في ربيع الأبرار ٢/ ٢٧ لعمرو بن زعبل التميمي!
ونسبه الشَّرِيشي في شرح مقامات الحريري ٢/ ٤٢٩ إلى بشار!

من هنا رأيتُ أن أُسهم بقدر من جهدي الضئيل في (**ترتيب البيت المسلم**)، وَفقَ ما أمر الله ورسوله ﷺ.. وذلك عَبرَ أثير الإذاعة الكويتية، في حلَقات متوالية من أحاديث الصباح الدينية.

مبتدئًا بالزواج الشرعي الصحيح، ثم بالوَلِيد الذي يُولد على الفطرة، ماشيًا معه خطوةً خطوة، بعيدًا عن الأشواك والألغام، متنقِّلًا معه من مرحلة إلى مرحلة: من الطفولة إلى الصِّبا، إلى البلوغ، إلى مرحلة الشباب، مؤمِّلًا فيه أن يَستظلَّ بظل عرش الرحمن يومَ لا ظِلَّ إلا ظلُّه، مهتدِيًا بقول الرسول ﷺ: «..**وشابٌّ نشأ في عبادة ربه**» متفق عليه.(١)

ثم خطر لي أن أجمع هذه الحلَقات في كتابٍ أضعه بين يدي القارئ، لمن فاته الاستماع إلى هذه الحلقات، أو استمع إليها ولكنه نسيها، لعل الله تعالى يَهدي بهذا الكتاب من يشاء، ويرزقه الخَلَفَ الصالح، والذريةَ الطيبة، والله سميع الدعاء.

﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان].

❊ ❊ ❊

(١) صحيح البخاري (٦٦٠)، صحيح مسلم (١٠٣١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

١ - الزواج سُنّة الله في خلقه

يقوم البيتُ المسلمُ على دِعامتين قويتين هما: الزوجُ والزوجة، بزواجٍ شرعي صحيح، والزواجُ هو الصيغةُ الشريفةُ التي اختارها الله لعباده، والوسيلةُ النظيفةُ التي بها يكونُ امتدادُ الحياة، وعمارةُ الكون، وبقاءُ الجنس البشري، وحمايةُ الإنسان من السقوط والضياع.

أمر الله به في كتابه العظيم، فقال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ [النور ٣٢]، وهذا أمرٌ من الله تعالى بالتزويج، حتى ذهبَ طائفةٌ من العلماء إلى وجوبه على من قَدَرَ عليه، محتجِّين بهذا الأمر الإلهي، وبظاهرِ قوله ﷺ: «**يا معشرَ الشباب! مَن استطاع منكم الباءةَ فلْيتزوَّجْ**» متفق عليه.(١)

ووعَد الله على الزواج بالغِنى، فقال جل شأنه: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور ٣٢]. قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: (أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح، يُنجِزْ لكم ما وعدَكم من الغِنى). أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره.(٢) وعن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: (التمسوا الغِنى في النكاح).(٣)

كما أخبرنا رسولُ الله ﷺ أنَّ من أراد الزواجَ فحقٌّ على الله عونُه، فقال:

---

(١) صحيح البخاري (١٩٠٥)، صحيح مسلم (١٤٠٠) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (١٤٤٤٩).

(٣) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره جامع البيان عن تأويل آيِ القرآن ١٧/ ٢٧٥.

«**ثلاثةٌ حقٌّ على الله عونُهم: المجاهد في سبيلِ الله، والمُكاتَبُ الذي يريدُ الأداء، والناكحُ الذي يريدُ العفاف**». رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه.(١)

والزواجُ سنةُ الله للمرسلين، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ [الرعد ٣٨]. وفي الحديث الذي رواه أحمد والترمذي عن أبي أيّوبَ الأنصاري رضي الله عنه: «**أربعٌ من سنن المرسلين: الخِتانُ والتعطّرُ والسِّواكُ والنكاح**»،(٢) كما أنه سنةُ الرسول ﷺ.

---

(١) مسند أحمد (٧٤١٦)، جامع الترمذي وحسّنه (١٦٥٥)، سنن النسائي (٣١٢٠) (٢٥١٨)، سنن ابن ماجه (٢٥١٨)، صحيح ابن حبان (٤٠٣٠)، مستدرك الحاكم وصححه (٢٦٧٨) (٢٨٥٩).

(٢) مسند أحمد (٢٣٥٨١)، جامع الترمذي (١٠٨٠) وقال: حديث حسن غريب.

وقال الإمام النووي في المجموع شرح المهذَّب ١/ ٢٧٤، وفي خلاصة الأحكام ١/ ٨٥ (٩١): (وفي إسنادِهِ الحَجّاجُ بنُ أَرْطَاةَ، وأبو الشِّمال، والحَجّاج ضعيفٌ عند الجمهور، وأبو الشمال مجهول، فلعله اعتَضَد بطريقٍ آخَرَ فصار حسنًا).

تنبيه: لفظ الحديث عند أحمد والترمذي وفي عدد من كتب السنة: «**الحَيَاء**» **بدل الختان**، وكذا ورد في غير حديث أبي أيوب. وورد في بعض كتب السنة: «**الحِنّاء**»، ونبّه الحفاظ إلى أنها تصحيف.

لكن ورد في مصنف عبد الرزاق (١٠٣٩٠) وبعض كتب السنة: «**الخِتان**». ونقل ابن القيم عن المِزّيّ أن الصواب الختان، والله أعلم.

انظر زاد المعاد في هدي خير العباد ٤/ ٢٣١، تحفة المودود في أحكام المولود ص٢٣٠، المنار المنيف في الصحيح والضعيف (٢٥٩)، ثلاثتها لابن القيم، قوت المغتذي على جامع الترمذي للسيوطي، فيض القدير شرح الجامع الصغير للمُناوي ١/ ٤٦٥، تحفة الأحوذي للمباركفوري.

وأكد النبي ﷺ ذلك للصحابة الذين أرادوا أن ينقطعوا للعبادة، وأن يُحرّموا على أنفسهم ما أحلّ الله، فقال ﷺ: «**ولكني أصومُ وأُفطِر، وأُصلّي وأَرقُد، وأتزوجُ النساء، فمَن رَغِبَ عن سُنتي فليس مني**» متفق عليه.(١)

وقد مدح الله أولياءه الذين يتقربون إليه بهذا الدعاء: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان ٧٤]. وقال عمر رضي الله عنه: (ما يَمنعُك من النكاح إلا عَجْزٌ أو فُجور). رواه سعيد بن منصور.(٢) وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: (لو لم أَعِشْ في الدنيا إلا عشْرًا لأحببتُ أن يكون عندي فيهنّ امرأة).(٣)

وكان رسولُ الله ﷺ يُرغب أصحابَه في الزواج، ويأمرُ بمساعدتهم:

فعن ربيعةَ بنِ كعبٍ الأَسلمي رضي الله عنه قال: كنتُ أخدُمُ رسولَ الله ﷺ، فقال لي: «**يا ربيعةُ ألا تتزوج**»؟ فقلت: وَاللهِ لا يا رسول الله، ما أريد أن أتزوج، ما عندي ما يقيم المرأة، وما أُحب أن يَشغَلَني عنك شيء! فأعرَضَ عني [أي فسكتَ]، فخدمتُه ما خدمتُه، ثم قال

---

(١) صحيح البخاري (٥٠٦٣)، صحيح مسلم (١٤٠١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) سنن سعيد بن منصور (٤٩١)، مصنف عبد الرزاق (١٠٣٨٤)، مصنف ابن أبي شيبة (١٦١٥٨).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (١٦١٦٠). وكان المؤلف رحمه الله أورد الأثر تبعًا للإمام الغزّالي في إحياء علوم الدين ٢/ ٢٣ بلفظ: لو لم يَبقَ من عُمري إلا عشَرةُ أيام لأحببتُ أن أتزوج، لكيلا ألقى اللهَ عَزَبًا.

وروى ابن سعد في الطبقات الكبرى (٦٤٣٨) عن شَدّادِ بن أوس رضي الله عنه قال: (زَوِّجوني، فإن رسول الله ﷺ أوصاني ألّا ألقى الله عَزَبًا).

لي الثانيةَ: «**يا ربيعةُ ألا تتزوج**»؟ فقلتُ: ما أريد أن أتزوج، ما عندي ما يقيم المرأة، وما أُحب أن يَشغَلَني عنك شيء! فأعرَضَ عني، ثم رجعتُ إلى نفسي فقلت: وَاللهِ! لَرسولُ الله ﷺ بما يُصلحني في الدنيا والآخرة أعلمُ مني، وَاللهِ لئن قال تزوجْ لأقولن: نعم يا رسول الله، مُرْني بما شئت.

فقال: «**يا ربيعةُ ألا تتزوج**»؟ فقلتُ: بلى! مُرْني بما شئتَ. قال: «**انطلق إلى آل فلان - حيّ من الأنصار - فقل لهم: إن رسول الله أرسلَني إليكم، يأمرُكم أن تُزوجوني فلانةَ**» - لامرأةٍ منهم، فذهبتُ فقلتُ لهم: إن رسول الله ﷺ أرسلني إليكم، يأمركم أن تزوجوني فلانةَ، فقالوا: مرحبًا برسول الله، وبرسولِ رسولِ الله، وَاللهِ لا يَرجع رسولُ رسولِ الله إلا بحاجته، فزوَّجوني وأَلْطفوني وما سألوني البينة.

فرجعتُ إلى رسول الله ﷺ حزينًا! فقال لي: «**ما لَك يا ربيعة**»؟ فقلت: يا رسول الله، أتيتُ قومًا كرامًا، فزوَّجوني وأكرموني وألطفوني، وما سألوني بينة، وليس عندي صَدَاق! فقال رسول الله ﷺ: «**يا بُريدةُ الأسلمي، اجمعوا له وزنَ نَواةٍ من ذهب**»، فجمعوا لي وزنَ نواة من ذهب، فأخذتُ ما جمعوا لي، فأتيتُ به النبيَّ ﷺ، فقال: «**اذهب بهذا إليهم، فقل: هذا صَداقُها**»، فأتيتُهم فقلت: هذا صداقها، فرَضُوهُ وقَبِلُوه، وقالوا: كثيرٌ طيّب!

قال: ثم رجعتُ إلى النبي ﷺ حزينًا! فقال: «**يا ربيعة ما لَك حزينًا**»؟ فقلت: يا رسول الله، ما رأيتُ قومًا أكرمَ منهم، رَضُوا بما آتيتُهم، وأحسنوا،

وقالوا: كثيرًا طيبًا،[١] وليس عندي ما أُولِمُ! فقال النبي ﷺ: «**يا بُريدة، اجمعوا له شاةً**»، فجمعوا لي كبشًا عظيمًا سمينًا، فقال لي رسول الله ﷺ: «**اذهب إلى عائشة، فقل لها فلْتَبعَثْ بالمِكتَل الذي فيه الطعام**»، قال: فأتيتُها فقلت لها ما أمرَني به رسولُ الله ﷺ، فقالت: هذا المكتل، فيه تسعُ آصُعٍ شعيرٍ، لا والله إنْ أصبحَ لنا طعام غيرُه،[٢] خذه.

فأخذتُه فأتيتُ به النبيَّ ﷺ وأخبرتُه بما قالت عائشة، فقال: «**اذهب بهذا إليهم، فقل: لِيُصبِحْ هذا عندَكم خبزًا**»، فذهبتُ إليهم، وذهبتُ بالكبش ومعي أُناس من أسلَمَ، فقلت لهم: لِيُصبِحْ هذا عندَكم خبزًا وهذا طبيخًا، فقالوا: أما الخبزُ فسَنكْفِيكُموه، وأما الكبشُ فاكْفُونا أنتم، فأخذْنا الكبشَ أنا وأُناسٌ من أسلَمَ، فذبحناه وسلخناه وطبخناه، فأصبح عندنا خبزٌ ولحمٌ، فأَوْلَمْتُ ودَعَوتُ رسولَ الله ﷺ. رواه أحمد بإسناد حسن.[٣]

---

(١) قال السندي في حاشيته على مسند أحمد: (بالنصب، أي أعطيتَ كثيرًا طيّبًا). اهـ.

(٢) (إنْ) حرف نفي، أي: ما أصبح لنا طعام غيره.

(٣) مسند أحمد (١٦٥٧٧)، مسند أبي داود الطيالسي (١٢٦٩)، مستدرك الحاكم وصححه (٢٧١٨) وكذا (٦٢١٧) مختصرًا، وحسن إسنادَه العراقيُّ في المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار (١٣٩١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٢٥٦: (رواه أحمد والطبراني، وفيه مبارك بن فَضالةَ، وحديثُه حسن، وبقية رجال أحمد رجالُ الصحيح). اهـ.

ومبارك بن فضالة وإن كان مدلِّسًا، فقد صرح بالتحديث في مسند أحمد وغيره، وأما ما نسبه الحافظ في تقريب التهذيب أنه كان يدلس تدليس التسوية، ففيه نظر! فلم ينسبه أحد إلى تدليس التسوية، كما يُعلَم من الرجوع إلى تهذيب الكمال للمزي وتهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر وأصولهما، بل إن الحافظ نفسه لم يصفه بتدليس التسوية في كتابه تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس. وعلى هذا، فما علقه العلامة الشيخ شعيب الأرناؤوط رَحِمَهُ اللَّهُ على مسند أحمد فيه نظر، والله أعلم.

وهذا التكرار من رسول الله ﷺ يدل على فضلِ النكاح، ويُحتملُ أن الرسول ﷺ قد توسم فيه الحاجةَ إلى النكاح.

وفي فوائد الزواج يقولُ العلامة المُناوي: (واعلم أن النكاح من أثقلِ السنن مَحملًا، وأصعبِ الحقوقِ قضاءً، وأعمِّ الأمور نفعًا، وأجزلِ القضايا أجرًا، فإنه بموضوعه للدِّين تحصين، وللخُلُقِ تحسين، وفيه سترُ العورة المعرضةِ للآفات، وجلبٌ للغِنى والرزق، وتكثيرُ سوادِ أهل التوحيد).[1]

وذكر الإمام الغزّالي رَحِمَهُ اللَّهُ في فوائدِ الزواج خمسة: الولدُ، وكسرُ الشهوة، وتدبيرُ المنزل، وكثرةُ العشيرة، ومجاهدةُ النفس بالقيام بالزوجات.

وفي مجال التفصيلِ عن الولد قال: (هو الأصلُ، وله وُضع النكاح، والمقصود إبقاءُ النسل، وألّا يخلوَ العالمُ من جنسِ الإنس، وإنما الشهوةُ خُلقتْ باعثةً مُستحِثة. وكانت القدرة الإلهيةُ غيرَ قاصرةٍ عن اختراعِ الأشخاص ابتداءً من غير حِراثة وازدواج، ولكن الحكمة اقتضت ترتيب المسبَّبات على الأسباب، إظهارًا للقدرة، وإتمامًا لعجائب الصنعة، وتحقيقًا لما سبقت به المشيئةُ، وحقتْ به الكلمةُ، وجرى به القلم).[2]

ثم قال الإمام الغزّالي: (وفي التوصلِ إلى الولدِ قربةٌ من أربعةِ أوجه:

الأول: موافقةُ محبةِ الله بالسعي في تحصيلِ الولد لبقاء جنسِ الإنسان.

والثاني: طلبُ محبةِ الرسولِ ﷺ في تكثير ما هو من مباهاته، يشيرُ

---

(١) فيض القدير ٣/ ٢٦٩.

(٢) إحياء علوم الدين، كتاب آداب النكاح ٢/ ٢٤.

بذلك إلى حديث النبي ﷺ: «**تزوجوا الـوَدُودَ الوَلُودَ، فإني مكاثرٌ بكم الأمم**» أخرجه أبو داود.(١)

والثالثُ: طلب التبركِ بدعاءِ الولد الصالح، يشير بذلك إلى حديث الرسول ﷺ: «**إذا مات الإنسانُ انقطع عنه عملُه إلا من ثلاثة: إلا من صدقةٍ جارية، أو علمٍ يُنتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له**» رواه مسلم.(٢)

والرابعُ: طلبُ الشفاعةِ بموتِ الولد الصغير إذا مات قبلَه، ويشيرُ بذلك إلى الحديث الذي رواه الإمام أحمد: «**من مات له ثلاثةٌ لم يَبلغوا الحنث، لم تمسَّه النارُ إلا تَحِلّةَ القَسَم**»، يعني الوُرُودَ.(٣)

وإلى الحديث الذي رواه الإمام أحمد أيضًا أن رسول الله ﷺ قال لنسوة من الأنصار: «**لا يموت لإحداكُنّ ثلاثةٌ من الولد فتَحتسِبُه إلا دَخَلَتِ**

---

(١) سنن أبي داود (٢٠٥٠)، سنن النسائي (٣٢٢٧)، صحيح ابن حبان (٤٠٥٦) (٤٠٥٧)، مستدرك الحاكم وصححه (٢٦٨٥) عن مَعقِلِ بنِ يَسَارٍ رضي الله عنه.

ورواه أحمد في مسنده (١٢٦١٣) (١٣٥٦٩)، وابن حبان (٤٠٢٨) عن أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا بلفظ: «**فإني مكاثر بكم الأنبياء يوم القيامة**». وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٢٥٨.

(٢) صحيح مسلم (١٦٣١)، سنن أبي داود (٢٨٨٠)، سنن النسائي (٣٦٥١)، جامع الترمذي (١٣٧٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) صحيح البخاري (١٢٥١) (٦٦٥٦)، صحيح مسلم (٢٦٣٢)، سنن النسائي (١٨٧٥)، جامع الترمذي (١٠٦٠) مسند أحمد (٧٧٢١) واللفظ له، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وقوله: (يعني الورودَ): أي الوُرُودَ على النار فقط، قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم ٧١].

الجنة»، فقالت امرأة منهن: أو اثنينِ يا رسول الله؟ قال: «**أو اثنين**».(١)

وحُكي أن أحدَ الصالحين كان يُعرَضُ عليه الزواجُ فيأبى، فانتبه من نومه ذاتَ يوم وقال: زوِّجوني زوِّجوني! فزوجوه، فسُئلَ عن ذلك، فقال: لعلَّ اللهَ يرزقُني ولدًا ويقبضُه، فيكون لي في الآخرة ذُخرًا.

ثم قال: رأيتُ في المنام كأنّ القيامة قد قامتْ، وكأني في جُملةِ الخلائق في الموقف، وبي من العطشِ ما كادَ أن يَقطعَ عنقي، وكذا الخلائقُ في شدةِ العطش والكربِ، فنحن كذلك إذا وِلدانٌ يتخللون الجمعَ، عليهم مناديلُ من نور، وبأيديهم أباريقُ من فضة، وأكوابٌ من ذهب، وهم يَسقون الواحدَ بعد الآخر، ويتخللون الجمعَ، ويتجاوزون أكثرَ الناس، فمددتُ يدي إلى أحدهِم وقلت: اسقني فقد أجهدني العطش، فقال: ليس لك فينا ولد، وإنما نسقي آباءَنا، فقلت: ومن أنتم؟ فقالوا: نحنُ من مات من أطفالِ المسلمين). انتهى من إحياء علوم الدين.(٢)

ولعلِ هذا أَحَدُ المعاني المذكورةِ في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة ٢٢٣].(٣)

---

(١) صحيح مسلم (٢٦٣٢)، مسند أحمد (٨٩١٦) واللفظ له، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وروى البخاري (٧٣١٠)، ومسلم (٢٦٣٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ أنه قال للنساء: «**ما منكن امرأةٌ تقدِّمُ بين يديها من ولدها ثلاثةً، إلا كان لها حجابًا من النار**»، فقالت امرأة منهن: يا رسول الله، اثنين؟ فأعادتْها مرتين، فقال ﷺ: «**واثنين واثنين واثنين**».

(٢) إحياء علوم الدين، كتاب آداب النكاح ٢/ ٢٧.

(٣) قال الإمام الغزّالي رحمه الله في إحياء علوم الدين ٢/ ٢٧: (وأَحَدُ المعاني المذكورة في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة ٢٢٣]، هو تقديم الأطفال إلى الآخرة).

قال بعض المفسرين: قَدِّموا لأنفسكم فِعلَ الطاعات، أو قَدِّموا لأنفسكم طَلَبَ الولد.[١]

وإذا كان للزواج كلُّ هذه الفوائدِ الكثيرة، التي أفرزها أئمتنا الأعلام على ضوءِ الكتاب والسنة، وبينوا لنا أن الإحصانَ غرضٌ شريف من أغراضِه السامية، وأن لذّةَ الجسد وسيلةٌ لا غاية، وسيلةٌ لتحقيق هدفٍ أعمقَ في طبيعة الحياة، وهو ترتيبُ النظامِ البشري على أساسٍ ثابت وقويّ، واضحٍ وجَلِيّ، لا لَبْسَ فيه ولا خَلْط، ولا ضياعَ فيه ولا حَيرة، لا انحرافَ فيه ولا فساد، وإنما في ظلّ المودةِ والرحمة، ومراعاةِ الحقوقِ والواجبات، وفي ظلّ حياةٍ تقومُ على التفاهمِ التامّ، والاحترامِ المتبادَل، والرَّقابةِ لله عز وجل.

أهذا النظامُ الإسلاميّ خيرٌ؟ أم ما يَدّعيه الملاحدةُ والمنحلّون الذين يَدْعون إلى إطلاقِ الغريزة من كل قيد، وإرضاءِ الجسد بلا حدود، والانغماسِ في الملذّات الدنيا والشهواتِ الرخيصة إلى أبعدِ حد؟! الذين يدَّعون زورًا وبهتانًا أن الارتواءَ الحيوانيَّ هو أساسُ السعادة التي لا تعرف القلقَ ولا التوترَ ولا الكبت، والتي تقضي على جميعِ ما يعتري الإنسانَ من مشكلاتٍ وعقد؟!

أفكارٌ غريبة، وألفاظٌ دخيلة، دخلتْ عصرَنا الحديثَ في صُوَرِ ثقافةٍ

---

(١) هذان القولان مبثوثان في عامة كتب التفسير، انظر القول الأول في تفسير مفاتح الغيب لفخر الدين الرازي ٦/ ٤٢٤، وتفسير ابن كثير ٢/ ١٦٥. والقول الثاني في تفسير البغوي معالم التنزيل ١/ ٢٦١، وتفسير البيضاوي أنوار التنزيل ١/ ١٤٠.

جنسية، أو قِصصٍ غرامية، أو آدابٍ أجنبية، أو عن طريق العلوم العصرية.. أفكارٌ تجردتْ لها أقلامٌ تدّعي التحرر، ونَشِطَتْ لها أقلامٌ تدّعي الإصلاح، واكتظّتْ بها مكتباتٌ تدّعي الحداثة، ودارتْ لها مطابعُ في أنحاء العالم كلٌّ هَمِّها المال، وتحمَّسَ لها رجالٌ سمَّوْهم فلاسفة، وصار لها دعاةٌ، ولكنْ على أبواب جهنم، ووقَعتْ في شِباكِها دولٌ بكل أسفٍ فتحت أبوابها على مصاريعِها لممارسةِ الجنس بكل أشكالِه، وأصبحَ عندها كالطعام والشراب! فماذا كانت النتيجة؟!

فَتَياتٌ تُنجِبُ بدون زواج.. إذا بلغت إحداهن السادسةَ عشْرةَ عَيَّروها بأنها لا تزال عذراء! آباءٌ يغتصبون بناتِهم! وصلتْ نسبة الأبناء غيرِ الشرعيين عندهم إلى ١٢٪، لا يعرفون لهم آباءً ولا أمهات.. اعتداءٌ على بناتٍ في سن السادسة من أعمارهن.. رجالُ دِينٍ يفخرون بأن لهم أصدقاءَ يمارسون معهم الجنس.. انتشارُ الشذوذ الجنسي.. انتشارُ الخمور والمخدرات.. أمراضٌ لم يستطع الطبُّ أن يجد لها عِلاجًا.. مرض الإيدز الذي يجتاح العالمَ بلا رحمة.. ومع ذلك يتحجّجون وما زالوا يدْعون إلى شقاءِ العالم!

أليس الزواجُ بعدَ كلّ هذا، وفوقَ كلّ هذا، هو دعوةَ الله الخيّرة إلى النظافةِ والعفةِ والسلوكِ القويم، والصراطِ المستقيم؟ أليس الزواجُ هو نعمةً كبرى وآيةً عظمى، أليس الزواجُ دعوةً للسكينةِ والرحمةِ والمودة؟

بلى! ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم].

❋ ❋ ❋

٢- رَغَبات وتطلّعات

للناس عند إرادة الزواج رَغَباتٌ وتطلعات، تَشغَلُهم عن كل شيء، وتُعَدُّ في نفوسهم أهمَّ شيء، ويروْن السعادة كل السعادة في تحقيقها، ومن الصعب أن تَثْنِيَهم عنها أو تُقنعَهم بغيرها، لأنها تنطلق من إحساس عميق من داخل النفس بالحاجة إليها.. وتختلف هذه الرغبات والتطلعات من رجلٍ إلى آخر بالنسبة إلى المرأة، كما تختلف من امرأةٍ إلى أخرى بالنسبة إلى الرجل.

فمنهم من يريدها غنيةً تسانده وتساعده في معترك الحياة، تُعينه إذا احتاج، وتوسّع عليه إذا ضاق، وتفرّج همومه إذا اشتدتْ، وتكفيه نفقاتِها إذا أرادتْ، وتحقق ما كانت تهفو إليه نفسه من رفاهيَةٍ وثراء، وتعوّضه ما قاسى من حرمان، وما كابده من معاناةٍ، وما ذاقه من فقر، فيعيش كريمًا، ويموت كريمًا.. أليس من حقه ذلك؟

فالإسلام لا يكره الغِنى ولا يحبُّ الفقر، فقد كان من دعاء الرسول ﷺ: «**اللهم إني أسألك الهُدى والتقى والعفافَ والغِنى**» رواه مسلم.[1] وهذا من أجمل الأدعية وأنفعِها، ويتضمن سؤالَ خيرَي الدنيا والآخرة، فإن الهُدى هو العلمُ النافع، والتُّقى العملُ الصالح، والعفافُ والغِنى، يتضمن العفافَ من الخلْق، وعدمَ التعلقِ بهم، والغِنى باللهِ ورزقِه، والقناعةَ بما فيه حصولُ ما يطمئنُّ به القلب من الكفاية.

(١) صحيح مسلم (٢٧٢١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

كما صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجلٍ آتاه الله مالًا، فسَلّطه على هَلَكتِه في الحق، ورجلٍ آتاه الله الحكمةَ، فهو يقضي بها ويُعلّمُها**» متفق عليه.(١) كما كان ﷺ يستعيذُ بالله من الفقر والكفر، صحيح رواه البيهقي.(٢) ومن دعائه ﷺ: «**اللهم أَصلِحْ لي ديني الذي هو عصمةُ أمري، وأَصلِحْ لي دُنيايَ التي فيها معاشي**» رواه مسلم.(٣)

ومنهم من يريدها ذات حسبٍ ونسب، ترفعه من هَوان، وتحفظه من ضياع، فيُذكرُ بعدَ خُمول، ويُعرفُ بعد تجاهل، ويُرى بعدما كانت العيون تقتحمه من قِصَر، ويُهابُ بعد ما كان لا يخطر على بال، ويُستشار حين كان لا يُؤخذ له رأي، وتَرفعُ خَسِيستَه كما قالت الفتاة لرسول الله ﷺ،(٤) ويكونُ

---

(١) صحيح البخاري (٧٣) (١٤٠٩)، صحيح مسلم (٨١٦) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) الدعوات الكبير للبيهقي ١/ ٩١ (٣٣)، و١/ ٤٥٦ (٣٤٥) عن أبي بكْرةَ الثقفي رضي الله عنه. وعلقه البيهقي في السنن الكبرى ١٣/ ٣٨٨ (بعد ١٣٢٧٨). ورواه البيهقي في الدعوات الكبير ١/ ٤٥٩ (٣٤٨) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.
وقد قصّر المؤلف رحمه الله في العزو، فالحديث في سنن أبي داود (٥٠٩٠)، سنن النسائي (١٣٤٧) (٥٤٦٥)، مسند أحمد (٢٠٣٨١)، صحيح ابن خزيمة (٧٤٧)، صحيح ابن حبان (١٠٢٨)، مستدرك الحاكم (٩٩) (٩٢٧) عن أبي بكْرةَ الثقفي رضي الله عنه.
ورواه ابن حبان (١٠٢٣)، والحاكم (١٩٤٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) صحيح مسلم (٢٧٢٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) روى أحمد في مسنده (٢٥٠٤٣)، والنسائي في سننه (٣٢٦٩) عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءت فتاة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن أبي زوَّجني ابنَ أخيه يَرفعُ بي خَسِيستَه! فجَعل الأمرَ إليها، قالت: فإني قد أجزتُ ما صَنع أبي، ولكن أردتُ أن تَعلمَ النساء أنْ ليس للآباء من الأمر شيء. وللحديث شواهد صحيحة، انظر تحقيق مسند أحمد.

لأولاده أجدادٌ مشهورون، وأخوالٌ معروفون، وحسبٌ به يُفاخِرون.. أليس من حقه ومن حقها ذلك؟

فالإسلام لا يكره الحسب والنسب، ولا محاولةَ الارتقاء من مواطن الدناءة والخِسّة، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال: «**تَخَيَّروا لِنُطَفِكم، فأَنْكِحوا الأَكْفاء، وانْكِحُوا إليهم**». صحيح رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقي، السلسلة الصحيحة.(١) كما صح عن النبي ﷺ قال: «**الناسُ مَعادِنُ: خِيارُهم في الجاهلية خِيارُهم في الإسلام إذا فقُهوا**». متفق عليه.(٢)

كما ذاع على ألسنة الناس: إياكم وخضراءَ الدِّمَن! قيل: وما خضراء الدِّمَن؟ فقيل: المرأة الحسناء في المَنْبِتِ السوء.(٣)

---

(١) سنن ابن ماجه (١٩٦٨)، مستدرك الحاكم (٢٦٨٧)، السنن الكبرى للبيهقي ١٤/ ١٦٣ (١٣٨٧٢) عن عائشة رضي الله عنها، السلسلة الصحيحة (١٠٦٧).

(٢) صحيح البخاري (٣٣٥٣) (٣٣٨٣)، صحيح مسلم (٢٣٧٨) (٢٥٢٦) (٢٦٣٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أحسن المؤلف رحمه الله إذ أورده مما شاع على ألسنة الناس، وقد رواه الدارقطني في الأفراد، والرامهرمزي في الأمثال، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وفي سنده محمد بن عمر الواقدي، وهو متروك بل كذاب! انظر تخريج الحديث في البدر المنير لابن الملقن ٧/ ٤٩٧، التلخيص الحبير لابن حجر ٥/ ٢٢٣٩، المقاصد الحسنة للسخاوي ٢/ ١٩ (٢٧٦).

والدِّمَنُ: جمع دِمْنة، وهي ما تُدَمِّنُه الإبلُ والغنم بأبوالها وأبعارها، أي تُلبِّدُه في مَرَابضها، فربما نبت فيها النباتُ الحسنُ النضير. اهـ النهاية في غريب الحديث (دمن).

وهذا مَثَلٌ، فالنبات الذي ينبُت في المزبلة، فتجيء خَضِرةً ناعمة ناضرة، ومنبتها خبيث قذر، فهذا النبات ضُرب مَثَلًا للمرأة الجميلةِ الوجه، اللئيمة المنصب. اهـ النهاية في غريب الحديث (خضر).

ومنهم من يريدها جميلة، تتلألأ في بيته كالجوهرة الثمينة، ويَشيع جمالُها في نفسه كالعطر الفوّاح، ويَسري حبُّها في فؤاده كالنور الوهاج، ويجلسُ أمامَها يتأمّل كأنه أمام كتابٍ مملوءٍ بالأسرار، يتأمل فيجد فيها من قدرة اللهِ ما يُوجب عليه حمدَ الواهب الذي وهب، والرازقِ الذي رزقه مَن تحفظُ عينَه من النظرة الخبيثة، وتحفظُ نفسَه من التفكير الساقط، وتحفظُ عِرضَه من الحرام.

أحرامٌ أن يختار زوجةً جميلة! وقد سئل رسولُ الله ﷺ: أيّ النساء خير؟ فقال: «**التي تسُرُّه إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه فيما يكره في نفسها ولا في ماله**» رواه أحمد والنسائي على شرط مسلم.(١)

وهل الإسلام يكره الجمال، وقد ركَّب الله في الإنسان غرائزَ تَهوى الجمالَ وتنجذب إليه! ورسول الله ﷺ يقول: «**إن الله جميلٌ يُحبّ الجمال**» رواه مسلم والترمذي.(٢) ويقول: «**إن الله نظيف يحب النظافة، جَوَادٌ يحب الجُود**» رواه الترمذي.(٣)

وما جعل الله هذه الأمة خيرَ أمة أخرجت للناس وهو يريد لها الدَّمامةَ والقبح، وتنفيرَ الخلْق، إنما يريدها في مستواها الرفيع، ظاهرًا وباطنًا، أدبًا وسلوكًا، عبادةً ومعاملةً.

---

(١) مسند أحمد (٧٤٢١)، سنن النسائي (٣٢٣١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح مسلم (٩١)، جامع الترمذي (١٩٩٨) (١٩٩٩)، مسند أحمد (٣٧٨٩) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) حديث منكر لا يصح. جامع الترمذي (٢٧٩٩) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وقال: هذا حديث غريب، وخالدُ بن إلياسَ يُضعَّفُ. اهـ. وأورده ابن الجوزي في العلل المتناهية في الأحاديث الواهية ٢/ ٢٢٤ (١١٨٦) ونقل التضعيف الشديد لهذا الراوي.

ومنهم مَن يريدها عاقلةً، سديدةَ الرأي، صائبةَ الفكر، حَسَنةَ التدبير، طيّبةَ العِشرة، تَحلُمُ إذا غَضِب، وتُنصت إذا تكلّم، وتفرَح إذا قَدِم، وتشكُر إذا قَدّم، وتحبُّ مَن يحب، وتَكره مَن يكره، وتُعين على نوائب الدهر، وإحقاقِ الحق، وصلةِ الرحم، وبَشاشةِ الوجه، وبذلِ المعروف.. عينُها معلّقةٌ بِرِضاه، وقلبُها مشغولٌ بهواه، ومَطالبها على قدرِ حالِه، لا تَزيد مِن هَمِّه، ولا تَعمِدُ إلى غمّه، ولا تُوغِرُ صدرَه بالمكاره، ولا تُعكّر صَفْوَه بالتَّوافِه، ولا تضحك من غير عَجَب، ولا تبكي من غير سبب.

وهل الإسلام يكره ذلك؟ أم يرحب بالمرأة العاقلة المدبِّرة، الكيّسةِ الحكيمة؟ وقد روى ابنُ حِبّانَ في صحيحه والبيهقيُّ في شعب الإيمان عن أبي ذرٍّ الغِفاريّ رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**يا أبا ذر، لا عَقْلَ كالتدبير، ولا وَرَعَ كالكَفّ، ولا حَسَبَ كحُسنِ الخُلُق**».(١)

والجملة الأولى بيانٌ للعقلِ وآثاره، وأن العقل الممدوح في الكتاب والسنة هو نعمةٌ أنعم الله بها على العبد، يَعقِلُ بها الأشياءَ النافعة، ويمتنع بها عن الأمور الضارة القبيحة.. والعقل في الجسم كالمَلِكِ في مملكته، إليه تَرجعُ أمورُ المملكة، فيَختارُ ما أمره الشرع أن يختاره، ويترك ما أمره الشرع أن يتركه، ويستحسن ما أمره الشرع أن يستحسنه، ويستقبح ما أمره الشرع أن يستقبحه.

---

(١) سنن ابن ماجه (٤٢١٨)، صحيح ابن حبان (٣٦١)، شعب الإيمان للبيهقي (٤٣٢٥) (٧٦٦٨)، وضعفه البوصيري في مصباح الزجاجة بزوائد ابن ماجه ٤/ ٢٤٠، وشعيب الأرناؤوط في تحقيق سنن ابن ماجه وتحقيق صحيح ابن حبان.

ومنهم مَن يريدها متعلِّمةً مثقَّفةً، تُتقِنُ فنَّ الحِوار، وتَعرف أدبَ المجالس، تَبْهَرُ مَن يَسمعُها بحلو الحديث، وسَعةِ الأفق، وقوةِ الحجة، وسلامةِ المنطق.. الكتاب عندَها خيرُ جليس، والقلمُ في يدها أثمنُ من خواتم الألماس، وقلائدُ الحكمة أغلى عندَها من قلائد الذهب، ورائحةُ المِداد أحبُّ إليها من رائحةِ العطور الثمينة.

تَعرف كيف تُربّي ولدَها، وتُرتّب بيتَها، وتقضي ليلَها ونهارَها في العلم لا في الرُّقود، في الحركة لا في الجُمود، بالنور لا بالظلام، بالتزود بالمعارف، لا بالتوسع في الطعام والشراب.

فهل يمنع الإسلام ذلك؟ والله تبارك وتعالى يقول: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر ٩]. والرسولُ ﷺ يقول: «**طلبُ العلم فريضةٌ على كل مسلم**». صحيح رواه ابن عبد البر عن أنس رضي الله عنه.(١) وقوله: (مسلم) أي ومسلمة.

ومنهم من يريدها خِصْبةً، وَلودًا وَدُودًا، تُعمّقُ جذورَه، وتَمدُّ غصونَه، وتبسُط ظِلَّه، وتُبقِي ذِكرَه، وتَنْسَأُ أَثَرَه، وتَلِدُ له البنينَ والبنات، مهجةَ القلوب، وسوادَ العيون، وزينةَ الدنيا، وحُماةَ الوطن، وأكبادَنا التي تمشي على الأرض، ومن دونهم تصبحُ الأرض بَلَاقِعَ، وتصبح الدُّورُ دَوَارِسَ، وتصبح الأعمارُ مبتوتة، والحياةُ داكنة، خاليةً من سكينة النفس، وامتدادِ الأمل، ومن البسمة المضيئة، والحركةِ البريئة، والصَّخَبِ المحبوب.

---

(١) سنن ابن ماجه (٢٢٤)، مسند أبي يعلى (٢٨٣٧) (٢٩٠٣) (٤٠٣٥)، جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ١/ ٩، وهو حديث حسن بطرقه وشواهده فيما ذهب إليه المزي والسيوطي وغيرهما. انظر تعليق شعيب الأرناؤوط على سنن ابن ماجه.

أليست حكمةُ الزواج الأولى هي عِمارةَ الكون بالحلال، وكثرةَ النسل لامتداد الحياة، أليس من أحاديث الرسول ﷺ: «**تَزَوَّجُوا الوَدودَ الوَلودَ، فإني مكاثرٌ بكم الأمم**». رواه أبو داود والنسائي.(١)

ومنهم من يريدها بِكرًا، يُداعِبُها وتُداعِبُه، ويُلاعبُها وتُلاعبُه، ويُسعدُها وتُسعدُه، تَملأُ البيتَ أُنسًا وبهجة، وسرورًا ومرحًا، وشوقًا وحبًّا، لم يكنْ لها في الأزواج عهدٌ سابق، ولا في المعاشرة تجرِبةٌ سابقة، لا تعرف غيره، ولم يتّسع قلبُها لِسواه، يتمثّلُ في نظرها سيّدَ الرجال، وزينةَ الشباب، وأجملَ الخَلْق، وأكرمَ الناس.

أليس ذلك من حقه؟ وقد قال الرسول ﷺ لجابر بن عبد الله رضي الله عنهما حين قفلوا من غزوة تبوك: «**ما يُعجِلُك يا جابر**»؟ قال: يا رسول الله، إني حديثُ عهدٍ بعُرْس، فقال: «**أبِكرًا تزوجتَها أم ثيبًا**»؟ قال: بل ثيبًا. فقال ﷺ: «**فهَلّا جاريةً تُلاعبُها وتُلاعبُك**»! رواه البخاري.(٢)

وجميع نساء الرسول ﷺ كنَّ ثيباتٍ إلا عائشةَ رضي الله عنهن، ولذلك كانت تَدِلُّ عليهن بذلك، وتقول لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، أرأيتَ لو

---

(١) سنن أبي داود (٢٠٥٠)، سنن النسائي (٣٢٢٧)، صحيح ابن حبان (٤٠٥٦) (٤٠٥٧)، مستدرك الحاكم وصححه (٢٦٨٥) عن مَعقِلِ بنِ يَسَارٍ رضي الله عنه.
ورواه أحمد (١٢٦١٣) (١٣٥٦٩)، وابن حبان (٤٠٢٨) عن أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا بلفظ: «**فإني مكاثر بكم الأنبياء يوم القيامة**». وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٢٥٨.

(٢) صحيح البخاري (٢٤٠٦) (٦٣٨٧)، صحيح مسلم (٧١٥). وتتمة الحديث: قال جابر: إن عبدَ الله هَلَكَ [أي إنّ والدَه توفي] وترك تسع بنات - أو سبع - وإني كرهتُ أن آتِيَهنّ بمثلهنّ، فأحببتُ أن أجيءَ بامرأة تقوم عليهن وتصلحهن، قال النبي ﷺ: «**فبارك الله لك**».

نزلتَ واديًا وفيه شجرةٌ قد أُكل منها، ووجدتَ شجرًا لم يؤكلْ منها، في أيها كنتَ تُرتِعُ بعيرَك؟ قال: «**في التي لم يُرتَعْ منها**»، **تعني أن رسول الله** ﷺ لم يتزوج بِكرًا غيرَها. رواه البخاري.[1] ومعنى (يُرتع) أي يترك بعيره يرعى فيها.

ومنهم من يريدها صالحةً تقية، طاهرةً نقية، ذاتَ دِينٍ وأدب، تؤدّي خمسَها، وتصومُ شهرَها، وتُرضِي ربَّها، وتعرفُ حقَّ زوجِها، لا يَشغَلُها ما يَشغَلُ سائرَ النساء من زهرةِ الدنيا، ولا يَعنِيها ما يَعنِي سائرَ النساء، من فارس الأحلام الذي يَخطَفُها على صهوةِ جوادٍ أبيَض، لا يُهِمُّها العَرَض، وإنما يُهِمُّها الجوهر، ولا تَجذِبُها المظاهر، وإنما تجذبها الحقائق، الحقائقُ الثابتة التي لا تتغير ولا تزول، وجزاؤُها عند الله لا يضيع ولا يفنى.

قلت: وهذا هو الأصل في الاختيار، والإسلام يرحب بهذه الأمور وغيرها، للرجل والمرأة على السواء، على شرطِ أن تدور كلها في فَلَك الإسلام، وتحت مظلته، وألّا تكون كلُّ خصلةٍ من هذه الخصال مجردةً عن التقوى.

فالغِنى المجرَّدُ من الإيمان يُطغي ويُفسد: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق].. والحَسَبُ بعيدًا عن الإسلام يتحول إلى استعلاءٍ وكِبْر.. والجمالُ من دون مراقبة الله يتحولُ إلى فتنة.. والعلم من دون

(١) صحيح البخاري (٥٠٧٧).

الإيمان يتحول - والعياذ بالله - إلى ضلالٍ وكفر، وتخريبٍ وتدمير.

وكل خصلةٍ لا تنطلقُ إلا من الهوى، ولا تصطبغ بالإسلام، فثمرتُها مُرّة: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية].

❊ ❊ ❊

٣- «تُنكَحُ المرأةُ لأربع»

يقول الرسول ﷺ: «**تُنكَحُ المرأة لأربع: لِمالِها ولِحَسَبِها وجَمالِها ولِدِينِها، فاظفَرْ بذاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاك**». متفق عليه.(١)

يبين الرسول ﷺ الخصالَ التي جرت عادة الناس على الزواج من أجلها. فالحديث إخبارٌ عما في الوجود، لا أنه وَقَعَ الأمرُ بذلك، فظاهره إباحةُ النكاح لغرضٍ من هذه الأغراض، لكنَّ قصد الدِّين أولى، فهو يبين العادة الجارية بين الناس، ويوافق عليها، ويقدم بعضها على بعض..

والرسول ﷺ وإن ترك للمسلم حريةَ الاختيار، إلا أنه يختار لكل مسلم أعظمَ الصفات أثرًا، وأدومَها عِشْرةً، وأكثرَها بركةً، ويجعلُ هذه الصفةَ سَنَامَ الصفات، وأَوْلاها بالتقديم والتفكير، وأزكاها عند ذوي المروءة والرأيِ السديد، ويجعلُ الحصولَ عليها نجاحًا عظيمًا، ومكسبًا كبيرًا، وأملًا من أجلِّ الآمال، ويُرشدُ إلى هذه الصفة بأبلغ تعبيرٍ، فيقول: «**فاظفَرْ بذاتِ الدِّين**»، أي لا تَدَعْ هذه الفرصةَ النادرةَ تَفُوتُك فيَفُوتَك الخيرُ كلُّه، ولا تَدَعْها تُفْلِتُ، فتَفْلِتَ من يدِك راحةُ النفس، وراحةُ البال، واستقرارُ الحال، وسعادةُ الدنيا والآخرة، واعلم أن الحصول عليها ظَفَرٌ وانتصار، وغايةٌ من أعظم الغايات، وفرصةٌ من أجلِّ الفرص.

فإذا كان للمال بَهجتُه، وللحَسَبِ جاهُه، وللجمال جاذبيّتُه، فللدِّين

(١) صحيح البخاري (٥٠٩٠)، صحيح مسلم (١٤٦٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

سلطانُه على النفوس، وأثرُه في مسيرة الحياة، وسِرُّه في اجتياز العَقَبات، وامتصاصِ النَّكَبات، واستدامةِ الوِفاق، فالدِّينُ هو الأصل، هو الأساس، هو الجوهر، وغيرُه من مطالب الحياة عَرَضٌ من الأعراض.

المالُ غادٍ ورائحٌ، وظِلٌّ يتحول من مكان إلى آخر، وينتقل من يد إلى يد، وكم من الناس أصبحوا أغنياءَ! وأمسَوْا فقراء! فَقَدوا كل شيء، حتى الثيابَ التي عليهم، حتى القصورَ التي كانت تتلألأ بالأنوار، حتى المركباتِ الضخمةَ التي كانت تختال في الشوارع، بألوانها الزاهية، وأشكالها الحديثة، وأثمانها الغالية.. بالله ما مكان بناتهم من أزواجهم الذين اختاروهم لهذا الغرض بعدما عادت عليهم العوادي، وتقلبتْ بهم الأحوال؟

أيمكن لهذا الزواج المادي - مهما كان نُبْلُه - أن يرحمَ عزيز قومٍ ذلّ؟ أم يُسقِطُ القِناعَ عن وجهه، فيَظهَرُ على حقيقته، ينْدُبُ حظَّه العاثر، وصفقتَه الخاسرة؟!

وحتى على فَرْضِ دوام المال - وهو من المحال - هل يستطيع الزوج أن يعاشر هذه الزوجةَ المرفَّهةَ على نفس المستوى الذي كانت عليه، بين الوصيفات والمربِّيات، والخدم والحشم؟ هل يستطيع أن يتحمل نفقاتِها الباهظةَ ومطالبَها الكثيرة، وأوامرَها المشدَّدة، ونواهِيَها الحاسمة، وزَهْوَها وتَعَالِيَها، وكِبْرَها وبَطَرَها؟ أم يطالبُها بالإنفاق عليه، ويسألُها الرحمةَ به، ويرجوها العونَ والمساعدة، فيَفقِدُ أهمَّ ركنٍ من أركان القِوامة، قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ [النساء ٣٤].

وما دَخَلَتِ المادةُ في أمرٍ من الأمور إلا أفسدَتْه، ولا عَلاقةً من العلاقات إلا قطعَتْها، ولا بين الأخ وأخيه إلا قطعتْ ما بينهما من رَحِم، وغيَّرتْ ما بينهما من دَم، فكيف بالميثاق الغليظ، الذي على أساسه تُبنَى البيوت ويقوم المجتمع..

والعز والحَسَب، والجاه والمجد، كلها أمورٌ قابلة للتغيير والتبديل والتحول، وكم رأينا من أناسٍ كانوا في القمة، ثم نزلوا إلى السفح! وكانوا أعلى عِلِّيِّينَ، ثم أصبحوا أسفلَ سافلين! كان الناس يتشرفون بهم، ويتقربون إليهم، ويَلهَجون بالثناء عليهم.. وبين يوم وليلة ذهب عِزُّهم، وانطفأ بَرِيقُهم، وانفضَّ الناس من حولهم! بل تبرأ الناس منهم، وتحول ثناؤهم إلى هجاء، وحبُّهم إلى بُغض، والتقرب إليهم إلى الخوف منهم، وعادوا إلى الضياع!

كأنْ لم يكنْ بين الحَجُونِ إلى الصَّفَا

أنيسٌ، ولم يَسْمُرْ بمكةَ سامرُ[1]

رأينا وزراءَ فَقَدوا حقائبَهم، وعظماءَ فقدوا مراكزهم، وملوكًا سقطت تِيجانُهم وسِيقُوا إلى السجون، بل وضُربت أعناقهم! ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ [الدخان]، ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران].

---

(١) البيت من قصيدة من البحر الطويل لعمرو بن الحارث بن مُضاض الجُرْهُمي، يتأسف على البيت الحرام ويتشوق له بعد أن أَجْلَتْهم خزاعة. انظر سيرة ابن هشام ١/ ١١٤.

والجمال شأنُه شأنُ كل حي، يزهو ثم ينطفئ ثم يزول، ومثلُه مثلُ الزهرة اليانعة، عُمرُها قصير، ثم تذبُلُ ثم تموت، ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾ [الكهف].

ولو ذهبتَ تقارن بين أجمل الجميلات منذ عشرات السنين، وبين حالها اليوم! لأنكرْتها، وأنكرتَ نفسك! كيف كانت تَخطَفُ الأبصار، ثم كيف أصبحت موضعَ الاعتبار!

ولو ذهبتَ تقارن بين صورتها على الطبيعة، بجمالها ودَلالها، وحَيَوِيَّتِها ونَضارتِها، وبصورة أشعتها! لوجدتَ الوجهَ عبارةً عن حفرٍ عميقة، ومحاجرَ غائرةٍ، وأنفٍ أفطسَ، وتسألُ أهذه هي تلك؟ فما بال جمالها؟! فتجيب الصورة: نعم هي هي، وهذه هي الحقيقة، أما الجمال فقشرةٌ ظاهرة، تلمع ثم تختفي، جِلدٌ ناضر ثم يتجعد، إطارٌ جميلٌ وبمرور الزمن يسقط.. هل الجمال أبقى على الدهر من الجبال الراسيات، التي تعتريها عوامل التعرية؟ كلا! بل هو أسرع إلى عوامل الذبول والانكماش.. هذا كله إذا نجا الجمال من حادثات الأيام والليالي.. والليالي يَلِدْنَ كلَّ عَجيب..[1]

---

(١) أصل بيت الشعر:

فالليالي - كما علمتَ - حَبَالَى مُقْرِباتٌ يَلِدْنَ كلَّ عجيبِ

من البحر الخفيف، وهو للأديب الكاتب الأمير كمال الدين أبي إسحاق إبراهيم بن عبد الرحيم بن علي بن شيت القرشي الأموي (ت٦٧٤). انظر تاريخ الإسلام للذهبي ٥٠/ ١٤٧.

وكم من جميلاتٍ تربعن على عرش الجمال، وأصبحنَ أشهرَ من الملوك، يتمنى الزعماء أن يَحْظَوْا منهن بنظرة! ويجري وراءهن الصَّحَفيون ليَحظَوْا منهن بكلمة! وتلهث وراءهن الكاميرات لتَحظَى منهن بصورة! ويلتفّ حولهن الشباب، ليَحظَوْا منهن بتوقيعٍ! ثم ماذا؟.. تتعرض إحداهن لحريق يشوّه وجهها، أو تنقلب بها سيارةٌ فتكسر عظامها، أو يصيبها مرضٌ من الأمراض يتركها جِلدًا على عظم، فتتحول بين لحظة وأخرى من جميلةٍ إلى شوهاءَ، ومن رشيقةٍ إلى شَلّاءَ، ومن امرأةٍ إلى بقايا امرأة، وسبحان من يغيّر ولا يتغيّر، سبحان من يعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، ويحيي ويميت، وهو حي لا يموت.

هذا أبسط الافتراضات بالنسبة للمال والحسب والجمال، هذه الأمور التي حدَّث عنها الرسول ﷺ، أبسط الافتراضات أنها متغيرةٌ متقلبةٌ، لا بقاء لها.. فكيف لو تجرد المال من الإيمان وطغى وتمرد، وتجرد الحسب من الإسلام واستعلى واستبد، وتجرد الجمال من الحياء وتحول إلى فتنةٍ في الأرض وفسادٍ كبير؟!

في غَيبة الإيمان يتحول المال إلى طُوفان، يجرف أمامه كل السدود، سدودِ الحكمة والأمان.. وفي غَيبة الإسلام يتحول الحسب إلى إعصار، يحطم كل القوانين والأعراف.. وفي غَيبة الدِّين يتحول الجمال إلى فتنةٍ تأكل الأخضر واليابس..

ومن هنا ندرك سر الحديث الشريف الذي رواه ابن حبان عن النبي ﷺ: **«لا تَزَوَّجُوا النساءَ لِحُسْنِهِنّ، فعسى حُسْنُهُنّ أن يُرْدِيَهُنّ، ولا تَزَوَّجُوهُنّ لأموالِهِنّ، فعسى أموالُهُنّ أن تُطْغِيَهُنّ، ولكن تَزَوَّجُوهُنّ على الدِّين،**

ولَأَمَةٌ سوداءُ خَرْماءُ ذاتُ دِينٍ أفضلُ».(١)

فتحذير الرسول ﷺ من ذات الحسن ومن ذات المال قائمٌ على تجردهما من الإيمان بالله ورسوله، وانقطاع الصلة فيما بينهما وبين الله. فمن تزوج امرأةً لحسنها لم يزده الله إلا دناءة.

وعلى هذا الأساس يجب أن يُوزَنَ الرجل بميزان الدِّين، وإلا ساء الحال وعم الفساد، يقول الرسول ﷺ: «**إذا خَطَبَ إليكم مَن تَرْضَوْنَ دِينَه وخُلُقَه فزَوِّجُوه، إلّا تفعلوا تكن فتنةٌ في الأرض وفساد عريض**». حديث حسن رواه الترمذي والحاكم.(٢)

أما إذا اجتمع الدِّين والجمال فلا خوف، وإذا اجتمع الإسلام والحسب فلا بأس، وإذا اجتمع الدين والمال فلا قلق، إذا كانت كلها في حماية الإسلام وفي رحابه، فهي السعادة المنشودة، والبركة الدائمة، والحظ الأوفر.

قال رجل للحسن رحمه الله: إن عندي ابنةً لي، وقد خُطبَتْ إليّ، فمَن أزوِّجُها؟ قال: (زَوِّجْها مَن يخاف الله، فإن أحبَّها أكرمَها، وإن أَبْغضَها لم يظلمْها).(٣)

---

(١) لم يروه ابن حبان، بل ابن ماجه في سننه (١٨٥٩)، وعبد بن حميد في المنتخب من مسنده (٣٢٨)، والبزار في مسنده (٢١٣٣) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، بسند ضعيف، انظر تعليق شعيب الأرناؤوط على سنن ابن ماجه. و«خرماء»: أي قُطِع بعضُ أنفها.

(٢) جامع الترمذي (١٠٨٤)، سنن ابن ماجه (١٨٥٩)، مستدرك الحاكم (٢٦٩٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه، وتعقبه الذهبي.
ورواه الترمذي وحسنه (١٠٨٥) عن أبي حاتِم المُزَني رضي الله عنه.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب العيال ١/ ٢٧٣ (١٢٥).

ومن حِكم سليمان بن داود عليهما السلام: المرأة العاقلة تَعمُرُ بيتَ زوجها، والمرأة السفيهة تَهدِمُه. المستطرف.[1]

إن الإسلام هو صِمَامُ الأمان، إذا صَحِبَ المالَ حوَّل طغيانَه إلى زهد، وطريقَه إلى إصلاح، وغايتَه إلى حبّ.. وإذا صَحِبَ الجاهَ حوَّل استعلاءَه إلى تواضع، وكِبْرَه إلى إخاء، وغطرستَه إلى أدب.. وإذا صَحِبَ الجمالَ حوَّل فتنتَه إلى عِفة، وأسلوبَه إلى احتشام، وغُرورَه إلى مراقبة الله، وتطلّعاتِه إلى المودة والرحمة..

وسبحانَ مَن جعل لكل شيء حكمةً، ولكل حكمةٍ آيةً، ولكل آيةٍ آثارًا تدل على عظمته وسلطانه، وتربط الكون بدقته وإتقانه، وتغمُر الخلقَ بلطفه وإحسانه.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم].

سبحانَ مَن قال في كتابه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان].

❊ ❊ ❊

(١) المستطرف في كل فن مستظرف ص٤٥٧. وهو ليس بمصدر معتمد ولا موثوق، وما كان ينبغي النقل منه، والخبر لا يصح.

٤ - الكفاءة بين الزوجين

وضمانًا لبقاء العشرة الزوجية سليمةً من الآفات، بعيدةً عن المنغصات، تؤدي دورها البناء في سعادةٍ وعافية، وفي احترامٍ متبادل، وفي مودةٍ ورحمة، تناول الفقهاء موضوع الكفاءة الزوجية، ويقصدون بها المساواةَ بين الزوج وزوجته في أمور مخصوصة، حتى لا تُعَيَّرَ هي ولا أولياؤها بزوجها، ومعنى ذلك ألّا يكون أقلَّ منها دِينًا ولا نسبًا، بحيث تجد ويجد أهلها في الانتساب إليهم غضاضةً وامتعاضًا وعارًا.

حتى ذهب الجمهور إلى أن الكفاءة بين الزوجين شرطٌ من شروط الزواج، لأن مصالح الزوجية ودوامَ العشرة بين الزوجين لا ينتظم عادةً إلا بين المتكافئين، فإذا لم يكن الزوج مساويًا لزوجته أو أعلى منها منزلةً، أحسّت فيما بينها وبين نفسها على الأقل بأنه ليس أهلًا للقِوامة عليها، وأنه لا يملأ عينيها بالتقدير والإكبار.

ويرى الإمام مالكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ، كما نقل عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعن محمد بن سيرين وعمر بن عبد العزيز من التابعين، أن الاعتبار في الكفاءة في الدِّين والخُلُق، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات١٣]، ولحديث: «**الناس بنو آدم، وآدم من تراب**». أخرجه ابن سعد من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.(١)

(١) طبقات ابن سعد ١/ ٥، وأخرجه مطولًا: أبو داود (٥١١٦)، والترمذي وحسنه (٣٩٥٥) (٣٩٥٦)، وأحمد (٨٧٣٦).

وأشار البخاري إلى نُصْرة هذا القول حيث قال: (باب الأَكْفاء في الدِّين، وقولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ [الفرقان])،[1] فاستنبط من الآية الكريمة المساواة بين بني آدم.

ويُقصد بالكفاءة في الدين ألّا تُزوَّج عفيفةٌ بفاجر، ولا صالحةٌ بمنحرف، ومن بابٍ أَولى لا يصح زواج مسلمةٍ بكافر، وزواجهما في الحالة باطل.. كما لا يجوز أن يتزوج المسلم بمشركةٍ، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة ٢٢١].

واستثنى الله من ذوات الديانات الأخرى: المحصناتِ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم. فليس حرامًا أن يتزوج المسلم يهوديةً أو نصرانية.. ومع ذلك حين سمع أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه عن زواج طلحة بن عبيد الله وحذيفة بن اليمان رضي الله عنهما من أهل الكتاب، غضب غضبًا شديدًا! لئلا يزهد الناس في المسلمات، أو لغير ذلك من المعاني.[2]

فعن شَقيق بن سلَمة قال: تزوج حذيفةُ رضي الله عنه يهوديةً، فكتب إليه عمر رضي الله عنه: خَلِّ سبيلَها، فكتب إليه: أتزعم أنها حرامٌ فأُخلِّيَ سبيلها؟! فقال: لا

---

(١) صحيح البخاري، كتاب النكاح، قبل الحديث (٥٠٨٨).

(٢) العبارة مستقاة من تفسير ابن جرير الطبري، وعبارته بتمامها: وإنما كره عمر لطلحة وحذيفة نكاحَ اليهودية والنصرانية، حِذارًا من أن يقتديَ الناسُ بهما في ذلك، فيزهدوا في المسلمات، أو لغير ذلك من المعاني، فأمرهما بتخليتهما. اهـ. ثم روى ابن جرير حديث شقيق بن سلمة الآتي.

أزعم أنها حرام، ولكن أخاف أن تَعَاطَوُا المُومساتِ منهن.[١]

وعن ميمونِ بن مِهرانَ، عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كره نكاح أهل الكتاب، ويَتأوَّلُ: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾.[٢]

وروى البخاري: أن ابن عمر رضي الله عنهما كان إذا سئل عن نكاح النصرانية واليهودية قال: (إن الله حرم المشركاتِ على المؤمنين، ولا أعلم من الإشراك شيئًا أكبرَ من أن تقول المرأةُ: ربُّها عيسى! وهو عبد من عباد الله).[٣]

وما توقَّعه أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ببصيرته الحادة، وفطرته السليمة، من الإعراض عن المؤمنات، والإقبال على الأجنبيات! وقع فيه جمهورٌ كبير من شبابنا المثقف، متعللًا بأعذارٍ واهية من أن الأجنبيات أبهى جمالًا، وأعظمُ ثقافة، وأولادهن أكثرُ نجابةً وذكاءً، إلى غير ذلك من التعللات، كان من نتيجتها أزمةٌ في الزواج، حيث تدفع بناتُنا الثمنَ غاليًا من الذبول واليأس والعنوسة!

ومع ذلك فهل نجح مثل هذا الزواج؟ إن المسألة تحتاج إلى إحصاءٍ دقيق، لنعلم مدى نجاح هذه التجرِبة في مجتمعنا المعاصر، ولكن أغلب الظن أن التفاهم والتوافق في الدين واللغة، والتناسقَ في الآداب والقيم، من أكبر أسباب النجاح العائلي والعشرة الدائمة.. وما هي إلا شهورٌ حتى

---

(١) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره ٤/ ٣٦٦، والبيهقي في سننه ٧/ ١٧٢، وقال ابن كثير: إسناد صحيح.

وقوله: (**أن تَعاطَوا المومسات**)، تصحف في الطبعة القديمة لتفسير ابن جرير وفي بعض طبعات تفسير ابن كثير، إلى: (أن تعاطوا المؤمنات)! وهو تصحيف شنيع يُتنبّه له!

(٢) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره ٢/ ٣٩٨ (٢٠٩٩)، وأورده عنه ابن كثير في تفسيره.

(٣) صحيح البخاري (٥٢٨٥).

يرجع كلٌّ إلى حال سبيله، نظرًا لانكشاف الحقيقة، واستحالة التفاهم، وصعوبة الانسجام الحقيقي، الذي يتجلى في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة ١٨٧].

ثم ماذا؟! يتركون خلفهم ذريةً ضِعافًا، تلتوي على النطق ألسنتُهم، وتستعصي على الحق قلوبُهم، ويُخيَّرون فيختارون سَرابَ المدَنيّة على جمال الحق، وفسادَ أوروبا على حقائق الإيمان، والذهابَ إلى الكنيسة بدلًا من الذهاب إلى المساجد التي أذن الله أن تُرفع ويذكر فيها اسمه..

بل أكثرُ من ذلك! حينما نرى مسلمةً تتزوج من نصرانيٍّ أو يهودي، مدّعيًا أنه أسلم، مُبْرِزًا وثيقةً رسميةً بإشهاره! وهذا عملٌ في ظاهره إسلاميٌّ، والله أعلم بالحقيقة، حتى إذا انكشف الغطاء.. وجدنا هذه الوثيقة مجردَ سِتارٍ لتمثيليةٍ حمقاءَ، تدفع الأسرةَ كلَّها إلى المجهول..

وسواءٌ أكان الواقع في الأمر أن الزوجة كتابيةٌ وهذا أمرٌ مشروع، أم أن الزوج كتابيُّ الأصل وهذا زواج باطل! فإن الذرية إن لم تكن مجهولة الهُوِيّة الدينية، فإنها ستقع في هُوّةٍ سحيقةٍ من الشك والاهتزاز.

أهذا خيرٌ؟ أم قولُ الحق تبارك وتعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النور ٢٦]؟.. هؤلاء بناتُنا أطهرُ عِرْضًا، وأزكى نفْسًا، وأكرمُ نسبًا، وأطيبُ عِشرةً، وأكرمُ خُؤولةً، وأحفظُ للعرض، وأحنى على ولد.. أتدري من يكون أخوالُ أولادك منّا؟ هم: محمد وأحمد وعبد الرحمن، فمن أخوالهم من غيرنا؟!

لقد استطرد بنا الحديث حول الكفاءة في الدين مع أن غرض الفقهاء ألّا تُزوَّج عفيفةٌ من فاجر، وهذا أمرٌ مجمع عليه.. أما باقي الأنواع فيرى

جمهور الفقهاء - عدا الإمامِ مالك - وجوبَ الكفاءة فيها.

أما الكفاءة في النسب فقد استدلوا بحديث عائشة رضي الله عنها قالت: (جاءت فتاةٌ إلى رسول الله ﷺ فقالت: إن أبي زوجني ابن أخيه ليرفع بي خَسِيستَه! فجعل الأمرَ إليها، فقالت: فإني قد أجزتُ ما صنع أبي، ولكن أردت أن تعلم النساء أنْ ليس إلى الآباء من الأمر شيءٌ). رواه أحمد والنسائي وابن ماجه، ورجاله رجال الصحيح.(١) كما استدلوا بقول عمر رضي الله عنه: (لأمنعنّ فُروجَ ذواتِ الأحساب إلا من الأَكْفاء).(٢)

مع أن رسول الله ﷺ خطب زينبَ بنتَ جحشٍ القُرشيةَ الحسيبةَ النسيبةَ رضي الله عنها، لمولاه زيدِ بن حارثة رضي الله عنه،(٣) وزوّج أبو حذيفة بنُ عتبة سالمًا، وهو مولًى لامرأة من الأنصار، من ابنة أخيه هند بنت الوليد بن عتبة رضي الله عنهم،(٤) وتزوج بلالٌ أخت عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم.(٥)

---

(١) مسند أحمد (٢٥٠٤٣)، سنن النسائي (٣٢٦٩)، من حديث عبد الله بن بريدة، عن عائشة رضي الله عنها، ووقع في سنن ابن ماجه (١٨٧٤): عبد الله بن بريدة، عن أبيه، وهو وَهَمٌ من أحد الرواة، انظر تحقيق مسند أحمد، وتحقيق سنن ابن ماجه للشيخ شعيب الأرناؤوط.

(٢) مصنف عبد الرزاق (١٠٣٢٤) (١٠٣٣١)، مصنف ابن أبي شيبة (١٧٧٠٢)، سنن الدارقطني ٣/ ٢٩٨.

(٣) رواه الدارقطني في سننه (٣٧٩٦)، والبيهقي في سننه ٧/ ١٣٦ عن زينب بنت جحش رضي الله عنها، قال البيهقي: (وهذا وإن كان إسناده لا تقوم بمثله حجة، فمشهور أن زينب بنت جحش رضي الله عنها وهي من بني أسد بن خزيمة، وأمها أُميمة بنت عبد المطلب بن هاشم عمةُ رسول الله ﷺ كانت عند زيد بن حارثة رضي الله عنه حتى طلقها، ثم تزوج رسول الله ﷺ بها). اهـ.

(٤) صحيح البخاري (٤٠٠٠) عن عائشة رضي الله عنها. وكان أبو حذيفة قد تبنّى في الجاهلية سالمًا، قبل أن يُحرَّم التبني، فهو كان يعدّه ولدًا له، وزوَّجه من ابنة أخيه.

(٥) رواه الدارقطني في سننه (٣٧٩٧)، والبيهقي في سننه ٧/ ١٣٧.

كما اشترط الفقهاء الكفاءةَ في الحرية، واستدلوا بحديث عائشة رضي الله عنها قالت: (خُيِّرتْ بَرِيرةُ على زوجها حين عَتَقَتْ). متفق عليه.[1] وذلك أن بَرِيرةَ رضي الله عنها كانتْ زوجةً لعبدٍ أسودَ يقال له مُغيث رضي الله عنه، فخيَّرها النبي ﷺ بعد أن صارت حرةً وأمرها أن تعْتدّ عدة الحرّة.[2] والحديث دليل على ثبوت الخيار للمُعْتَقة في زوجها إذا كان عبدًا، وهذا بإجماع.

وكذلك يرى العلماء الكفاءة في الصناعة، فمن كان من أهل الصناعة الدنيئة كالدّباغ والزبّال، فليس كفئًا لبنات ذوي المروءة وأصحاب المصانع الجليلة، مع أن رسول الله ﷺ قال - فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه - : «**يا بني بَيَاضةَ، أَنكِحوا أبا هند، وانكِحوا إليه**»، وكان حجّامًا.[3] واسمه يسار رضي الله عنه، وهو الذي حَجَمَ النبيَّ ﷺ، وكان مولًى لبني بياضة من الأنصار.

وكذلك من الأمور المهمة: الكفاءة في اليَسار، كأن يكون تحت الصفر في الفقر، ولا يستطيع الإنفاق على مثلها، وذلك اعتمادًا على قوله ﷺ: «**الحَسَبُ المال، والكرم التقوى**». رواه أحمد والترمذي.[4]

---

(١) صحيح البخاري (٥٠٩٧)، صحيح مسلم (١٥٠٤).

(٢) سنن أبي داود (٢٢٣٢)، مسند أحمد (٢٥٤٢) (٣٤٠٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه البخاري عنه (٥٠٩٠) دون ذكر العدّة.

(٣) سنن أبي داود (٢١٠٢)، صحيح ابن حبان (٤٠٦٧)، مستدرك الحاكم وصححه (٢٦٩٣). في عون المعبود: («**أَنكِحوا أبا هند**» أي زَوِّجوه بناتِكم، «**وانكِحوا إليه**» أي اخطُبوا إليه بناتِه، ولا تُخرجوه منكم بسبب الحجامة). اهـ.

(٤) جامع الترمذي وصحّحه (٣٢٧١)، سنن ابن ماجه (٤٢١٩)، مسند أحمد (٢٠١٠٢)، مستدرك الحاكم وصحّحه (٢٦٩٠) (٧٩٢٢) عن سَمُرةَ بن جُندُب رضي الله عنه.

وعلى حديث فاطمة بنت قيس رضي الله عنها، وكانت من المهاجرات الأُوَلِ، (وكانت ذات جمال وفضل وكمال)، أن زوجها أبا عمرو بن حفص بن المغيرة رضي الله عنه طلّقها البتةَ[1].. قال لها النبي ﷺ: «**فإذا حَلَلْتِ فآذِنِيني**»، أي إذا انتهَتْ عِدّتُكِ فأخبريني. قالت: فلما حَلَلْتُ، ذكرتُ له أن معاويةَ بنَ أبي سفيان، وأبا جهمِ بنَ هشام خَطَباني، فقال رسول الله ﷺ: «**أمّا أبو جهمٍ، فلا يضع عصاهُ عن عاتقه، وأمّا معاويةُ فصُعْلُوكٌ لا مال له، انكِحي أسامةَ بن زيد**»، قالت: فكَرِهتُه! ثم قال: «**انكِحي أسامة بن زيد**»، فنَكَحْتُه، فجعل الله في ذلك خيرًا، واغتبطتُ به.[2]

فأمرها النبي ﷺ بنكاحِ أسامة رضي الله عنه مولاهُ ابنِ مولاه، وهي قرشية، وقدّمه على أكفائها ممن ذُكر.

---

(١) كلمة (**البتة**): همزتها همزة وصل، على الجادة، و(ال) التعريف فيها مثلها مثل كل الكَلِم في العربية. وتوهَّم بعض العلماء المتأخرين أنها بهمزة القطع، وردّ عليه الحافظ ابن حجر في فتح الباري بأنها همزة وصل قطعًا. وانظر تفصيلًا مطولًا في ذلك للشيخ عبد الفتاح أبو غدة في تعليقه على الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام للقَرافي ص٣٩، وتعليقِه على مبادئ علم الحديث وأصوله لشَبِّير أحمد العثماني ص٧٨.

(٢) موطأ مالك (١٦٩٧)، صحيح مسلم (١٤٠٨)، سنن أبي داود (٢٢٨٤)، سنن النسائي (٣٢٤٥)، مسند أحمد (٢٧٣٢٧).

قال الترمذي في باب ما جاء ألّا يَخطُبَ الرجل على خِطبة أخيه، بعد حديث (١١٣٤): (قال مالك بن أنس رحمه الله: إنما معنى كراهية أن يخطب الرجل على خِطبة أخيه: إذا خطب الرجل المرأةَ فرَضِيَتْ به، فليس لأحد أن يخطُبَ على خِطبته. وقال الشافعي رحمه الله: معنى الحديث عندنا: إذا خطَب الرجلُ المرأةَ فرَضِيَتْ به وركنت إليه، فليس لأحد أن يخطُب على خِطبته، فأما قَبْلَ أن يعلم رضاها أو ركونها إليه فلا بأس أن يخطُبها، والحجة في ذلك حديث فاطمة بنت قيس رضي الله عنها .. فمعنى هذا الحديث عندنا والله أعلم: أن فاطمة لم تخبره برضاها بواحد منهما، ولو أخبرته لم يُشِر عليها بغير الذي ذكرتْ). اهـ.

ومِن العلماء مَن لم يعدّ اليسار شرطًا، لأنه ليس أمرًا لازمًا، فأشبه العافية، وكلُّ إنسانٍ معرضٌ للفقر والغِنى، ومهما كان الأمر في هذه الكفاءات فإن العرف السائد أمرٌ له أهميته ولا يجوز إغفاله، كما أن للأولياء رأيهم الذي لا يجوز إغفاله.

كثيراتٌ تمردن على آبائهن وتزوجن - قهرًا عنهم - فِتيانَ أحلامهن، ووقعن في شِراك الحب والهوى بالكلام المعسول، والوعودِ الخلابة، والمظهرِ البراق، والغِنى المصطنع، غيرَ ناظراتٍ إلى حقائقِ الحياة، ولا عابئاتٍ بكرامة البيوت! وما هي إلا أيامٌ حتى ينكشف الغِطاء، فإذا الحُبّ ما هو إلا وَهْم، وما اللمعان إلا سراب! وما كان يبدو من رقةٍ ودماثة، تحول فجأةً إلى وحشيةٍ لا تعرف الرحمة، وضربٍ وطرد، وطلاقٍ وتشرد، وضياعٍ بين جنبات الأرض، وندمٍ ولكن بعد فوات الأوان!

بناتي! إن المجتمع مملوءٌ باللصوص، وأخطر هؤلاء اللصوص على المجتمع، وأشدهم إجرامًا، الذين يسرقون القلوب، ويصطادون السذّج، ويلعبون بالنار..

وأما أنتم أيها الآباء فافتحوا عيونكم، وشدوا عزائمكم، وأَحكِموا السفينة، فإن البحر عميق..

❊ ❊ ❊

٥- أسباب أزمة الزواج

وفي عصورنا الحديثة، وفي ظل التقدم العلمي والتكنولوجي، وتقارُب العالَم بعضِه مع بعض، حتى كأنه قريةٌ واحدة، تحدث أزمةٌ في الزواج تعصِر ظهورَ الشباب، وتنوء بها كواهلُهم، وتذبُل وجوهُ الفتيات وتَحني أعوادَهن.. وقد تناول علماء النفس والاجتماع والاقتصاد هذه الأزمة بالبحث والتحليل والعلاج، ورغم ذلك فالأزمة تزداد عامًا بعد عام، كأنها إعصارٌ مدمر.

لقد كان الزواج قديمًا أمرًا بسيطًا وسهلًا وميسورًا لكل الناس، لا يخلق أية مشكلة، ولا يثير أية مخاوف.. وكانت البنات لا يتجاوزن مطلقًا السنَّ القانونيَّ للزواج، بل كان الكثيرون من الأولياء يحتالون على القانون، ويزوجون بناتهم قبل السادسةَ عشْرة.. وفي هذه السن المبكرة من الزواج، الدافقة بالشباب، الممتلئة بالخصوبة، الملتهبة بالمشاعر والأشواق، كانت تخرج إلى الوجود أجيالٌ قوية، تتدفق بالحيوية والجمال.. وما هي إلا سنواتٌ حتى لا تستطيع أن تفرق بين الوالدة وابنتِها، ولا بين والدٍ وما وَلَد.. والفرق شاسعٌ بين العصر القديم وعصورِنا الحديثة، التي تَشيب فيها الفتاة قبل الأوان، وتموت فيها غرائزها وتجفّ، وتُشيَّع إلى قبرها وفي سرها آمال لم تتحقق! وفي جوفها أولاد لم يروْا نور الحياة!

ما السبب في هذه الأزمة؟ ما السبب في إعراض الشباب عن الزواج؟ ما السبب في ازدياد أعداد العوانس عامًا بعد عام، يجلسن وراء الأبواب

طمعًا في أن يُدق لهن باب؟ ما السبب في ازدياد أعداد الشباب، الذين يُردُّون على أعقابهم مهزومين، كأنهم فلول جيشٍ منكسرٍ من طول ما قاوم؟ ما السبب؟!

إنه ليس سببًا واحدًا، وإنما هي عدة أسباب.

أول هذه الأسباب غلاء المهور غلاءً يستهلك كل الطاقات، ويفوق كل التصورات، من قال: إن المهر ثمن للمرأة تغلو بغلائه وترخص برخصه؟! إن المهر مجرد رمزٍ يدل على صدق النية، ولذلك سُمي صَداقًا، قال تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗ﴾ [النساء ٤]، أي عطيةً فريضةً لازمةً عليكم، وقال ابن جُريج: فريضةً مسماة، وقيل: دِيانةً، من النِّحلة بمعنى الملة، وتطلق على ما يَنحَلُه الإنسان ويعطيه هبةً عن طيب نفس بدون عِوض.

وهذا ما اختاره الشيخ محمد عبده، معترضًا على أن المهر بمعنى العِوض، قائلًا: (كلّا! إن الصلة بين الزوجين أعلى وأشرف من الصلة بين الرجل وفرسه أو جاريته، ولذلك قال: ﴿نِحۡلَةٗ﴾.

قال: فالذي ينبغي أن يُلاحظ هو أن هذا العطاء آيةٌ من آيات المحبة وصلة القربى، وتوثيق عُرَى المودة والرحمة، وأنه واجبٌ حتمٌ، لا تخيير فيه، وترى عرفَ الناس جاريًا على عدم الاكتفاء بهذا العطاء، بل يشفعه الزوج بالهدايا والتحف). انتهى.

وأضاف محمد رشيد رضا: (أقول: الخطاب على هذا الوجه للأزواج،

وفيها وجهٌ آخر وهو أن الخطاب للأولياء الذين يُزوجون اليتامى وغير اليتامى، يأمرهم الله تعالى أن يعطوهن ما يأخذونه من مهورهن من أزواجهن بالنيابة عنهن، وكان وليُّ المرأة في الجاهلية يزوّجها ويأخذ صداقها لنفسه دونها، ومنهم من كان يعطي الرجلَ أختَه على أن يعطيَه أختَه، فلا يصيب الأختين شيءٌ من المهر!) اهـ من تفسير المنار ٤/ ٣٧٦.

وهذا ما يسميه الفقهاء بالشِّغار، وقد نهى عنه الرسول ﷺ، فعن نافعٍ عن ابن عمر رضي الله عنه قال: (نهى رسول الله ﷺ عن الشِّغار). وفسره نافع بقوله: (والشغار أن يزوج الرجل ابنته على أن يزوجه الآخر ابنته، وليس بينهما صداق) متفق عليه.[١]

وإذا كان الصداق على وجوبه سماه الله نِحلةً أي عطية، وأباح للزوجة أن تتنازل عنه أو عن بعضه لزوجها عن طيب خاطر، فقال تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء]، فلا يصحُّ أن نجعل من المهر أمرًا مستحيلًا، أو نقصم ظهور الشباب، أو نجعل منه عقبةً كَأْداءَ في طريق المستقبل! والرسول ﷺ يقول لأحد أصحابه: «**الْتَمِس ولو خاتمًا من حديد**»، مبالغةً في تقليل المهر، ولما لم يستطع الحصول على خاتمٍ من حديد قال له: «**زوّجتُكها بما معك من القرآن**». رواه البخاري ومسلم،[٢] أي أن تعلمها ما معك أو بعضَ ما معك من القرآن.

---

(١) موطأ مالك (١٥٢٩)، صحيح البخاري (٥١١٢)، صحيح مسلم (١٤١٥).

(٢) صحيح البخاري (٥٠٢٩) (٥١٢١)، صحيح مسلم (١٤٢٥) عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنهما.

وفي قصة أم سُلَيمٍ مع أبي طلحةَ الأنصاري رضي الله عنهما دليل على ما تتمتع به المرأة المسلمة من إدراك للحقائق، وزهدٍ في عرَض الدنيا، ذلك أنه لما خطبها - وكانت أسلمتْ قبلَه - قالت له: والله ما مِثْلُك يا أبا طلحةَ يُردّ، ولكنك رجل كافرٌ! وأنا امرأةٌ مسلمة، ولا يحل لي أن أتزوجَك، فإنْ تُسلِمْ فذاك مَهْري، وما أسألُك غيرَه، فأسلَمَ، فكان ذلك مهرَها. أخرجه النسائي.(١) أرأيتَ أعظمَ من هذا المهر، الذي يعلو على الدنيا وما فيها..

ولما توفي أبو سلمة رضي الله عنه تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة رضي الله عنها وأصبحت أمًّا للمؤمنين. أتدري ماذا كان صداقها منه؟! أصدقها رسول الله ﷺ فِراشًا حَشوُه لِيف، وقدحًا، وصَحفةً، ورحًى!(٢)

وإذا كان غلاء المهور سببًا يرجع إلى أهل الزوجة، فإن هناك سببًا آخر يرجع إلى الزوجة نفسها، حين تبالغ في الشروط، وتقسو في الالتزامات،

---

(١) سنن النسائي (٣٣٤١)، صحيح ابن حبان (٧١٨٧) عن ثابتٍ البُناني، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، زاد النسائي: (قال ثابت: فما سمعتُ بامرأةٍ قطُّ كانت أكرمَ مهرًا من أم سُليم رضي الله عنها، الإسلامُ). اهـ.

(٢) روى أحمد في مسنده (٢٦٦٦٩)، وابن حبان في صحيحه (٢٩٤٩)، والحاكم في المستدرك وصحّحه (٢٧٣٤) (٦٧٥٩) عن أم سلمة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال لها: «**أَمَا إني لا أَنْقُصُكِ شيئًا مما أعطيتُ أُختَكِ فلانةَ: رَحَيَيْنِ وجرَّتين، ووسادةً من أَدَمٍ حشوُها لِيفٌ**».

«**من أَدَمٍ**» اسمٌ لجمعِ أَدِيم، وهو الجلد المدبوغ. اهـ المُغْرِب في ترتيب المُعْرِب للمُطَرِّزيّ (أدم).

«**لِيف**» هو ما يخرُج من أصول سَعَف النخل، يُحشَى بها الوسائدُ، ويُفتَلُ منها الحبال. اهـ هُدَى الساري مقدمة فتح الباري للحافظ ابن حجر (ليف).

وتطالب الخاطب بما فوق طاقته: بأن تكون بعيدةً عن أهله، في قصرٍ مُنيف، مجهزٍ بأحدثِ ما ابتكرته أوروبا من أثاث، ومزودٍ بأحدثِ ما وصلت إليه من تكنولوجيا، وسياراتٍ لم تحمل الأرض مثلها، ومجوهراتٍ لا يقل وزنها عن كذا، وخادماتٍ ووصيفاتٍ كذا وكذا، لأنها ليستْ أقلَّ من بنت فلان، أو أن هذا لا يناسب مستواها الاجتماعيَّ، ومركزَها الأدبيّ، ووسطَها العائلي، ودرجتَها العلمية! وهذه مطالبُ تنوء عن حملها الجبال، وتحتاج إلى وقتٍ، والوقت يذهب ولا يعود.

ولقد دخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه على رسول الله ﷺ في مَشْرُبَتِه التي اعتزل فيها نساءه شهرًا، فوجده على حصيرٍ، وتحت رأسه وسادةٌ من أَدَمٍ حشوُها لِيفٌ، وقد أثّر الحصير في جنبه ﷺ، فبكى عمر، فقال النبي ﷺ: «**ما يبكيك**»؟ قال: يا رسول الله! إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت رسول الله! فقال: «**أما ترضى أن تكون لهم الدنيا، ولنا الآخرة**»؟!(١)

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: اضطجع النبي ﷺ على حصير، فأثّر في جلده، فقلت: بأبي وأمي يا رسول الله! لو كنتَ آذَنْتَنا ففَرَشنا لك عليه شيئًا يَقِيك منه! فقال رسول الله ﷺ: «**ما لي وللدنيا! ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استظلَّ تحت شجرة ثم راح وتركها**». رواه الترمذي وقال: حديث صحيح.(٢)

---

(١) صحيح البخاري (٤٩١٣)، صحيح مسلم (١٤٧٩) عن ابن عباس عن عمر رضي الله عنهما.

(٢) جامع الترمذي (٢٣٧٧)، سنن ابن ماجه (٤١٠٩)، مسند أحمد (٣٧٠٩).

ومن الأسباب التي أسهمت في أزمة الزواج شدةُ الغلاء، فما كان ثمنه عشرًا أصبح ثمنه ألفًا، وما كانت أجرته ثلاثين أصبحتْ أجرته ثلاثمئة! وكلما تقدم الشاب خُطوةً رجع إلى الخلف خطواتٍ! وكلما دبَّر أمرًا أبطل العجزُ أمرَه! وكلما أسرع إلى الأمل وجد اليأس أسرعَ! وما كان هذا لِيحدُثَ في زمن الرضا والقناعة، وهدوءِ الحال، واستقرارِ الأسعار.

وهناك أسبابٌ أخرى مُجملها في اختلاط الرجال بالنساء، وكثرة الأسفار، وقرب المسافات وطول الغربة، وسهولة الحرام، وصعوبة الحلال.. رأى الشبابُ في الشارع أطيافًا من الجمال يقلّب فيها النظر، ويسمع في الخارج نساءً تُتْقن فنّ الغزل، ويرى نفسه في شِبَاكٍ من الحرير لم يجدْ منها مخرجًا، ويرى أنواعًا من العائلات لا تكلفه درهمًا ولا دينارًا!

كلُّ ذلك على حساب الأيامى من بناتنا اللواتي طال بهن الانتظار، وأسرع بهن القطار، واشتعلت رؤوسهن شيبًا! مع أن الواحدة منهن في ميزان الحق والفضيلة، والبراءةِ والطهر، والوفاءِ والصبر، والإيثارِ والأدب، والرضا بالقليل، والتضحيةِ بالكثير، والمحافظةِ على العِرض في الغيب والشهادة، خيرٌ من عشراتٍ لم يَذُقْنَ طعمَ الإيمان، ولا حلاوةَ القرآن، ولا حقوقَ الزوج.

وصدق الله العظيم حين يقول: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء ٣٤].

وحين يقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ

حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل].

وحين يقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١ ﴾ [المؤمنون].

❊ ❊ ❊

٦- الخِطبة

والخِطبةُ أُولى الخطوات الجادة في طريق الزواج، أو هي اللبنة الأولى في بناء البيت المسلم، وهي أن يتقدم الشاب وأهله إلى بيت الفتاة وأهلها طلبًا ليدها، وهذه الخطوة لا تعدّ عقد زواجٍ بين الخاطبين يُحِلُّ لهما ما كان محرمًا عليهما، وإنما هي مرحلةٌ تمهيدية، ينبني عليها الزواج الشرعي.

ويُندب قبلها أن يرى كل من الخاطبين ما يُرغّبه في هذا الزواج، فعن جابرٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا خطب أحدُكم المرأةَ، فإن استطاع أن ينظر منها إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل**»، قال جابر: فخطبت جارية، فكنت أتخبّأ لها حتى رأيت منها ما دعاني إلى نكاحها وتَزوُّجِها، فتزوجتُها. رواه أحمد وأبو داود ورجاله ثقات، وصححه الحاكم.(١)

وروى الترمذي والنسائي عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، أنه خطب امرأةً، فقال له رسول الله ﷺ: «**انظر إليها، فإنه أحرى أن يُؤدم بينكما**».(٢)

ولمسلمٍ وابن حبان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال لرجلٍ تزوج امرأة - أي أراد أن يتزوجها -: «**أنظرت إليها**»؟ قال: لا. قال: «**اذهب فانظر إليها**».(٣)

---

(١) سنن أبي داود (٢٠٨٢)، مسند أحمد (١٤٥٨٦)، مستدرك الحاكم (٢٦٩٦).

(٢) سنن الترمذي وحسنه (١٠٨٧)، سنن النسائي (٣٢٣٥)، سنن ابن ماجه (١٨٦٦)، مسند أحمد (١٨١٣٧). قال الترمذي: (أي أحرى أن تدوم المودةُ بينكما). اهـ.

(٣) صحيح مسلم (١٤٢٤)، سنن النسائي (٣٢٣٤) (٣٢٤٦) (٣٢٤٧)، مسند أحمد (٧٨٤٢)، صحيح ابن حبان (٤٠٤١) (٤٠٤٤).

وقد دلتْ هذه الأحاديث على أنه يُندبُ تقديم النظر إلى من يريد نكاحها، وهو قول جمهور العلماء، والمراد بالنظر، سواءٌ فيما فعله جابرٌ رضي الله عنه حين كان يتخبأ لها، أم فيما أمر به الرسول ﷺ المغيرة رضي الله عنه، إنما هو النظر إلى الوجه والكفين، لأنه يُستدلُّ بالوجه على الجمال أو ضِدِّه، وبالكفين على خصوبة الجسم أو عدمها، كما تدلُّ هذه الأحاديث على أنه ينبغي أن ينظر إليها حين غفلتها، وأن يكون ذلك قبل إعلان الخِطبةِ، حتى إذا كرهها تركها من غير إيذاءٍ، بخلافِه بعدها.

وفي العصور القريبة قبل خروج المرأة إلى الشارع، وحين كانت النساء محجباتٍ لا يُرى منهن شيءٌ، وحين كان النساء يَقْرَرْنَ في بيوتهن ولا يتبرجن، وكان أقصى ما يعرفه الشاب أن فلانًا عنده بنتٌ أو أكثر، كانت الطريقة الوحيدة للتعارف أن يبعث الشابُّ إحدى قريباته التقيات الأمينات لترى من فتاةِ أحلامه وأمِّ أولادِهِ في المستقبل ما يرغّبه في الزواج منها، وتأتيه بتقرير مفصلٍ عنها.

وهذا ما وردت به السنة الشريفة، فقد روى أنسٌ رضي الله عنه أن النبي ﷺ أرسل أمَّ سُليم رضي الله عنها تنظر إلى جارية، فقال: «**شَمِّي عَوارِضَها**[1]، **وانظري إلى عُرقُوبَيها**». أخرجه أحمد وغيره،[2] وفي رواية: «**وشَمِّي**

---

(١) الفعل شَمَّ يَشَمّ بفتح الشين في المضارع، ووزنُه فعِل يفعَل، والأمر منه: شَمَّ واشْمَمْ. هذه اللغة الفصحى، وهناك لغة من باب ردّ: شمَّ يشُمُّ، والأمر منه: شُمَّ واشْمُمْ، وبعض اللغويين يخطّئها. انظر مختار الصحاح، والمصباح المنير للفيومي، وشروح ألفية ابن مالك عند قول ابن مالك رحمه الله: فعلٌ مضارعٌ يَلِي لَمْ كَيَشَم.

(٢) مسند أحمد (١٣٤٢٤)، مستدرك الحاكم وصححه (٢٦٩٩). =

مَعَاطِفَها».[1] والعوارض: هي الأسنان التي في عُرْض الفم ما بين الثنايا والأضراس، والمراد اختبار رائحة النَّكهة.

وللمرأة أن تنظر إلى خاطبها، فإنه يُعجبُها منه ما يعجبه منها.. ونظرُ كلٍّ من الخاطبَين إلى الآخر إنما هو مستثنًى من تحريم النظر المنهي عنه بقوله تعالى: ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ**﴾ [النور ٣٠]، وقولِه تعالى: ﴿**وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ**﴾ [النور ٣١].

ثم تغير الزمن وتغير أهله! وأصبحت البنت تقول: لي إرادة، والرأي رأيي! هذه حياتي، أنا حرة! لست سائمة تساق إلى المَقَاصِل![2] لست رقيقةً تباع في أسواق النخاسة.

وتعالت أصواتٌ، وتجردت أقلامٌ تقول: إن فترة الخِطبة أحلى فترات

= **والعُرقُوب**: هو الوَتَر الذي خلفَ الكعبينِ بينَ مَفصِل القَدَم والساق من ذواتِ الأربع، وهو من الإنسان فُويقَ العَقِب. النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (عرقب). وقال ابن الأثير في مادة (عقب): «انظري إلى عَقِبَيها أو عُرقُوبَيها» قيل: لأنه إذا اسودَّ عَقِباها اسودّ سائرُ جسدِها. اهـ.

(١) **المعاطف**: جمع مِعْطَف، وهو الرداء. تهذيب اللغة للأزهري (عطف). وقيل: المعاطف: الأردية، لا واحد لها. المُحكم لابن سِيدَه.

وقد روى الطبراني في المعجم الأوسط ٦/ ٢٠٤ (٦١٩٥) بسند ضعيف، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أراد خِطبةَ امرأةٍ بعث أمَّ سُليم تنظر إليها، فشَمَّتْ أعطافَها، ونظرتْ إلى عراقيبِها». **والأعطاف**: جمع عِطف، وعِطْفَا الرجُل: جانِباهُ مِن لَدُنْ رأسِه إلى وَرِكَيْه، وكذا عِطْفَا كلِّ شيءٍ جانِباهُ. مختار الصحاح (عطف).

(٢) **المَقَاصل**: جمع مِقْصَلة، وهي أداة حادّة كانوا يقطعون بها رِقابَ المحكوم عليهم بالقتل، وشاع استعمالها في الثورة الفرنسية. المعجم الوسيط.

العمر، يجب أن تكون هذه الفترة فترةَ تفاهمٍ وتعارف، فترةَ دراسةٍ وتخطيطٍ للبيت السعيد، فأصبحت البنت تجلس وحدها مع خطيبها بدون رقيب، ويسهران معًا إلى منتصف الليل بدون خوف، ويسافران إلى أقصى بلاد العالم بدون مَحرَم..

وتطول فترة الخِطبة سنواتٍ وسنوات بحجة الدراسة، حتى يَمَلَّ كلٌّ منهما الآخر، وتقول البنت بكل جرأةٍ بعد هذه السنين: لم يجذبني ولم يفهمني! ويقول هو الآخر بكلِّ سُخْف: لم تدخل عقلي ولم تَحُلّ مُشكلاتي! وتُفسَخ الخِطبة، وقطار العمر يسرع، وعوامل التغيير تَجِدّ، ومستقبل الحياة مظلم، وكلام الناس لا يرحم. وأصوات العلماء بُحّتْ بقول رسول الله ﷺ: «**لا يَخْلُوَنَّ رجل بامرأة إلا مع ذي مَحْرَم**» متفق عليه،[1] وبقول الرسول ﷺ: «**إياكم والدخولَ عل النساء**»! فقال رجل من الأنصار: أفرأيتَ الحَمْوَ؟ فقال النبي ﷺ: «**الحَمْوُ الموت**»! متفق عليه.[2]

لقد أرخصت المرأةُ نفسَها، وأصبحتْ تَخطُب بعد ما كانت تُخطَب! وتَطلُب بعد ما كانت تُطلَب! وتَعرِض نفسَها بعد ما كان الكثيرون يلهثون في البحث عنها! وتكشف كل مفاتنَها فتلتهمها العيون حتى تزهد فيها، بعدما كانت كالجوهرة الثمينة لا يراها إلا أهلها ومحارمها! وأصبحت تُقدِّم التنازلاتِ والعُروضَ، بعدما كانت سرًّا يُحيّر القلوب! وتجوب

---

(١) صحيح البخاري (٥٢٣٣)، صحيح مسلم (١٣٤١) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) صحيح البخاري (٥٢٣٢)، صحيح مسلم (٢١٧٢) عن عقبة بن عامر رضي الله عنه.

الشوارعَ والمَحلّات في استعراضٍ طويل! كأنها في مسابقةٍ من مسابقات الجمال لا يفوز فيها إلا واحدة!

كانت المرأة إلى عهدٍ قريب تُزَفُّ إلى زوجها، فتراه ويراها.. يراها على الطبيعة بلا أصباغ ولا مساحيق، فيرى فيها امرأةً وضيئةً مضيئةً، نظيفةً عفيفة، راضيةً قانعة، سامعةً مطيعة، لم يخفق قلبها لأحدٍ قبله، ولم يُغلَق بابها على رجل سواه، لم يَكشِفْها سِتر، ولم يَمَسَّ يدَها أحد، ولم يحمرَّ وجهُها إلا من الخجل..

وتراه هي الأخرى رجلًا شهمًا كريمًا، قويًّا رحيمًا، رحبًا مَهِيبًا، سهلًا سمحًا، لا يعرف الميوعة ولا الخُبث، ولا الخيانة ولا الدجل، طويل الباع، عميق القاع، سليم الطوية، لم يتخذ من الخِطبة حرفةً ينتقل فيها من بيتٍ إلى بيت، ولم يتخذ من قلوب العذارى ثيابًا يَلبَسها ثوبًا بعد ثوب، ولا مسرحًا ينتقل عليه من فصلٍ إلى فصل، لا يتاجر بالحب، ولا يتلاعب بالألفاظ، ولا يقول لكل واحدةٍ منهن: أنت أول امرأةٍ في حياتي! كلّا! ولكنه يملأ عينها مهابةً وحبًّا.

ومثل هذه الأُسَر كان الله يبارك فيها، ويحفظها بعينه التي لا تنام، ويُنزِلُ عليها سكينته، ويؤلف بين قلوب أصحابها بالمودة بدون سابق معرفة، ويربط بينها بالرحمة التي وسعت كل شيء.. وبنظرةٍ يسيرةٍ إلى هذا العصر الذي تسميه المرأة عصرَ التخلف والرجعية والحريم، نجد أن هذه الأسر - بفضل الله وبرحمته، ثم بالنية الطيبة والقصد النبيل، والرجوع إلى الله في كل ما أمر ونهى - نجد هذه الأسر قد أنجبت عباقرة الطب، وعمالقة

الهندسة، وأساتذة القانون، وقادة الفكر، وأبطال التاريخ، ودهاة السياسة، والمتقين والصالحين..

سعيد بن المسيب رَحِمَهُ اللَّهُ - سيد التابعين - لم يقبل أن يزوج ابنته وليَّ عهد الخلافة الأُموية، الذي سيصير فيما بعدُ أميرَ المؤمنين وخليفةَ المسلمين! وزوَّجها لطالب علمٍ فقير، غاب يومًا عن مجلسه لتجهيز زوجته التي تُوفيت، ثم ماذا؟ في اليوم نفسه أخذها سعيدٌ بيده إلى بيت زوجها، الذي لا يملك درهمًا ولا دينارًا، مخافة أن يبيت ليلةً عَزَبًا! قال ابن أبي وَدَاعة: فوجدتُها أحفظَ الناس لكتاب الله، وأعرفَ الناس بحديث رسول الله ﷺ، ذلك لأن سعيدًا قاسه بمقياسٍ غير مقاييسنا، ووزنه بميزانٍ غير موازيننا، ميزان الصلاح والتقوى، لا ميزان التهريج والتزييف.(١)

والأب إذا عرض ابنته على من يتوسم فيه الخير غيرُ أن تعرض البنت نفسها، فقد عرض عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ابنته حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا على أبي بكرٍ وعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تأَيّمَتْ - أي توفي زوجها - قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فأتيتُ عثمان بن عفان، فعرضتُ عليه حفصة، فقال: سأنظر في أمري، فلبثتُ لياليَ ثم لَقِيَني فقال: قد بدا لي ألّا أتزوجَ يومي هذا، قال عمر: فلَقِيتُ أبا بكر الصديق، فقلت: إن شئتَ زوجتُك حفصةَ بنت عمر، فصَمَتَ أبو بكر فلم يَرجِع إليّ شيئًا!

---

(١) انظر تفصيل قصة سعيد بن المسيب وتزويجه ابنته من كثير بن المطلب بن أبي وداعة، في طبقات ابن سعد ٥/ ١٣٨، وحلية الأولياء ٢/ ١٦٧. وصاغها د. عبد الرحمن رأفت باشا بأسلوبه الأدبي الجميل في كتابه صور من حياة التابعين ص ١٩٧.

وكنت أوجَدَ عليه مني على عثمان - أي أشدَّ غضبًا -، فلبثت لياليَ، ثم خطبها رسول الله ﷺ، فأنكحتها إياه.

فلقيني أبو بكر فقال: لعلك وَجَدْتَ عليّ حين عرضتَ عليَّ حفصةَ فلم أَرجِع إليك شيئًا؟ قال عمر: نعم، قال أبو بكر: فإنه لم يمنعني أن أَرجِعَ إليك فيما عرضتَ عليّ، إلا أني كنت علمتُ أن رسولَ الله ﷺ قد ذَكَرَها، فلم أكن لأُفشِيَ سرَّ رسول الله ﷺ، ولو تركها رسول الله ﷺ قَبِلْتُها.(١)

ولكنْ أين الآباء مِن عمر رضي الله عنه؟ ومِن سعيد بن المسيب رحمه الله؟ وأين شبابنا من أبي بكرٍ وعثمان رضي الله عنهما؟!

تُقرأُ الفاتحة على أن فلانةَ لفلانٍ، وتُعطى العهود والمواثيق، ويدعى المئات إلى حفلٍ مَهِيب، في إحدى القاعات الكبرى، من فنادق الدرجة الأولى ذات النجوم الخمس أو العشر، وتصدح الموسيقا طول الليل! وتُدار حلقات الرقص! ويتبادل العروسان الكؤوس والقُبَل! ويسجل الفيديو كلَّ ركنٍ من أركان القاعة، وكل حركة من حركات العروسين! وكلها أمورٌ خارجةٌ على الشرع.. ثم ماذا؟

ما هي إلا أيام حتى تسمع بتبادل التهم، وإلقاء الخواتم، وتقاذف الشتائم، واتساع رقعة الخلاف، ثم فسخ الخطبة كأن شيئًا لم يكن، كأن لم تكن فاتحةٌ ولا عهودٌ ومواثيق! لماذا؟ لأن الأساس منهار، لا حَظَّ في هذه الخِطبة لله، وإنما هي من أولها إلى آخرها من حظ الشيطان الذي

(١) صحيح البخاري (٥١٢٢).

أقسم بعزة الله وقال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف].

وقد تسمع أيضًا أن فلانةَ خُطِبتْ لفلان، ثم تسمع بخاطبٍ آخرَ للعروس نفسها، ولكنه أغنى أو أرشق! وأبهى أو أجمل وابن ناس! وبكل بساطة تتآكل الخِطبة الأولى بلا سبب! وتسأل نفسك: كيف استحلَّ الخاطب الثاني الخِطبة على خِطبة أخيه؟ وكيف يبرر الأب الكريم ما فعل؟ وكيف يرضى الخاطب الثاني ما رآه بعينه على أشرطة الفيديو من إسفاف؟ كأن المرأة أصبحت سلعةً خاضعةً للمزاد! تُعطى لمن يدفع أكثر، أو كأنها تحولت إلى صفقةٍ من الصفقات..

وهذا ما نهى عنه الرسول ﷺ فقال: «**لا يَبِع الرجلُ على بيع أخيه، ولا يخطُبْ على خطبة أخيه، حتى يترُك الخاطبُ قبلَه، أو يأذَنَ له الخاطب**» متفق عليه،[1] والنهي أصله للتحريم إلا إذا دل دليل يصرفه عنه. والله أعلم.

❊ ❊ ❊

(١) صحيح البخاري (٥١٤٢)، صحيح مسلم (١٤١٢) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

٧- الزواج الشرعي

الزواج الشرعي لا يعيش إلا في الهواء الطلق، وتحت أشعة الشمس، والنوافذ مفتوحة، والأبـواب مُشرَعة.. في هذا الجو الصحي يعيش الزواج وينمو، ويكون مصدرَ سعادةٍ وهدوءٍ واستقرار، وينبت نباتًا حسنًا، محفوظًا برحمة الله ولطفه من الشيطان الرجيم..

ومن هنا أمر الرسول ﷺ بإعلان الزواج وإشهاره، فقال فيما أخرجه الترمذي وحسنه عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**أَعلِنُوا هذا النكاح، واجعلوه في المساجد، واضربوا عليه بالدُّفوف**».(١)

وقال النبي ﷺ: «**أَولِمْ ولو بِشاة**».(٢) وقال النبي ﷺ: «**إذا خَطَب أحدُكم امرأةً وقد خَضَب بالسَّوَاد، فلْيُعْلِمْها ولا يَغُرَّنّها**».(٣)

---

(١) جامع الترمذي (١٠٨٩)، ورواه ابن ماجه (١٨٩٥) بلفظ: «**أعلنوا هذا النكاح، واضربوا عليه بالغِرْبال**». والشطر الأول وهو الإعلان، حديث حسن، أما الشطر الثاني فضعفه الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٥١٦٢) وغيرُه.
وروى أحمد في مسنده (١٦١٣٠)، وابن حبان في صحيحه (٤٠٦٦)، والحاكم في المستدرك وصححه (٢٧٤٨)، عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: «**أَعلِنُوا النكاح**».

(٢) صحيح البخاري (٢٠٤٨)، صحيح مسلم (١٤٢٧) عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قاله لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه.

(٣) رواه البيهقي في السنن الكبرى ١٥/ ١٠٠ (١٤٨١٤) عن عائشة رضي الله عنها، وضعفه، فيه راو ضعيف جدًّا.

والأحاديث في هذا المقام كثيرة، يَعضُدُ بعضُها بعضًا،[١] وتدل على شرعية الضرب بالدف، لأنه أبلغ في إعلانه من عدمه، بشرط ألّا يَصْحَبَه مُحرّمٌ من الغناء المحرم وغيره مما اعتاد الناس في هذا الزمان.[٢]

والأمر في الحديث بقوله: «**أعلنوا النكاح**» وإن كان ظاهرُه الوجوبَ، إلا أنه لم يقل به أحد، فيُحمل على الندب، ليَعلم الجميع أن فلانةَ أصبحت زوجةً لفلان، بعقدٍ مشهورٍ ومشهودٍ، فلا تحوم حول علاقتهما رِيبة، ولا يُساء بهما الظن، فـ«**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**».[٣]

ومن هنا لا يصحُّ الزواج إلا بوليٍّ من عَصَبة الزوجة دون ذَوِي أرحامها، قال النبي ﷺ: «**لا نكاحَ إلا بولي**» رواه أحمد والأربعة.[٤]

---

(١) ومنها حديث محمد بن حاطب رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**فصلُ ما بين الحلال والحرام الدُّفُّ ورفعُ الصوت في النكاح**». رواه أحمد (١٥٤٥١)، والترمذي وحسّنه (١٠٨٨)، والنسائي (١٣٦٩) (٣٣٧٠) وابن ماجه (١٨٩٦)، والحاكم وصححه (٢٧٥٠).

(٢) لكن قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٥١٦٢): (واستُدل بقوله: «**واضربوا**» على أن ذلك لا يختص بالنساء، لكنه ضعيف، والأحاديث القوية فيها الإذن في ذلك للنساء، فلا يلتحق بهن الرجال، لعموم النهي عن التشبه بهن). اهـ.

(٣) هذا جزء من حديث ورد في قصة، رواه البخاري (٢٠٣٥) (٢٠٣٩)، ومسلم (٢١٧٥) عن أم المؤمنين صفية بنت حُيَيٍّ رضي الله عنها، ورواه مسلم أيضًا (٢١٧٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٤) مسند أحمد (١٩٥١٨)، سنن أبي داود (٢٠٨٥)، جامع الترمذي (١١٠١)، سنن ابن ماجه (١٨٨١)، صحيح ابن حبان (٤٠٧٧) (٤٠٧٨) (٤٠٨٣) (٤٠٩٠)، مستدرك الحاكم (٢٧١٠ - ٢٧١٧) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وكأن المؤلف عزاه للسنن الأربعة تبعًا للحافظ ابن حجر في بلوغ المرام، وليس هو في سنن النسائي. =

والجمهور على اشتراط الولي، وأنه لا يصح للمرأة أن تزوج نفسها، إلا ما كان من الإمام مالكٍ والإمام أبي حنيفة، إذ جعله مالك رَحِمَهُ اللَّهُ شرطًا في حق الشريفة لا العفيفة، ولم يشترطه أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ، قِياسًا على استقلال المرأة في البيع، فإنها تستقل ببيع سلعتها، والراجح مذهب الجمهور، لأنه لا قياس مع النص.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «**أيما امرأةٍ نكَحَتْ بغير إذن وليها فنكاحها باطل**». أخرجه الأربعة، وصححه أبو عَوانة وابن حبان والحاكم.(١)

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تُزوِّجُ المرأةُ المرأةَ، ولا تُزوِّج المرأةُ نفسَها**». رواه ابن ماجه والدارقطني، ورجاله ثقات.(٢)

= ورواه أيضًا ابن حبان (٤٠٧٦) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ورواه أحمد (٢٢٦٠) وابن ماجه (١٨٨٠) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ورواه أحمد (٢٢٦١) (٢٦٢٣٥) وابن ماجه (١٨٨٠) وابن حبان (٤٠٧٥) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(١) مسند أحمد (٢٤٢٠٥)، سنن أبي داود (٢٠٨٣) (٢٠٨٤)، جامع الترمذي وحسنه (١١٠٢)، السنن الكبرى للنسائي (٥٣٧٣)، سنن ابن ماجه (١٨٧٩)، صحيح ابن حبان (٤٠٧٤) (٤٠٧٥)، مستدرك الحاكم وصححه (٢٧٠٦ - ٢٧٠٩)، مستخرج أبي عَوانة (٤٠٣٧) (٤٠٣٨) (٤٠٣٩).

والفعل «**نَكَحَتْ**» ضُبط في بعض المصادر بفتح النون والكاف، مبنيًّا للفاعل، وضُبط في بعض المصادر «**نُكِحَتْ**» بضم النون، مبنيًّا للمجهول.

(٢) سنن ابن ماجه (١٨٨٢)، سنن الدارقطني (٣٥٣٥-٣٥٤١)، وقول المؤلف: (ورجاله ثقات) هو كلام الحافظ ابن حجر في كتابه بلوغ المرام من أحاديث الأحكام (٩٩٣).

وفيه دليل على أن المرأةَ ليس لها وِلايةٌ في التزويج لنفسها ولا لغيرها، فليس لها حقٌّ في ذلك إيجابًا وقبولًا.

إلى جانب هذه الأحاديث استدل الجمهور على عدم صحة الزواج إلا بولي، بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ [البقرة ٢٣٢]، قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: (وهذا أبينُ ما في القرآن في بيان حقّ الولي، وإلّا لَمَا كان لِعَضْلِه معنًى).[١]

وقد نزلتْ في مَعْقِلِ بنِ يَسَارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد روى البخاري عن معقل بن يسار قال: (زوجتُ أختًا لي من رجل، فطلّقها، حتى إذا انقضت عِدّتُها جاء يخطُبها، فقلت له: زوجتُك وفَرَشْتُك وأكرمتُك، فطلّقتَها، ثم جئتَ تخطُبها! لا والله لا تعودُ إليك أبدًا! وكان رجلًا لا بأس به، وكانت المرأةُ تريد أن ترجع إليه، فأنزل الله هذه الآية: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾، فقلت: الآن أفعلُ يا رسول الله، فزوَّجَها إياه). زاد أبو داود: (فكفّرتُ عن يميني، فأنكحتُها إياه).[٢]

فلو كان لها تزويجُ نفسها لم يُعاتِبْ أخاها على الامتناع، ولَكان نزول

---

(١) هذا ملخص ما قاله الإمام الشافعي في كتاب الأم ٦/ ٣٢.

(٢) صحيح البخاري (٤٥٢٩) (٥١٣٠)، سنن أبي داود (٢٠٨٧)، جامع الترمذي (٢٩٨١) وقال: (وفي هذا الحديث دلالة على أنه لا يجوز النكاح بغير ولي، لأن أخت مَعقِل ابن يَسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كانت ثيبًا، فلو كان الأمرُ إليها دونَ وليّها لزوَّجتْ نفسَها ولم يُحتَجْ إلى وليّها معقل بن يسار، وإنما خاطب الله في الآية الأولياءَ فقال: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾، ففي هذه الآية دلالة على أن الأمر إلى الأولياء في التزويج مع رضاهن). اهـ.

الآية لبيان أنها تُزوِّجُ نفسها، بل كرَّر الله تعالى الأمر إلى الأولياء، في عدة آياتٍ، ولم يرِدْ في القرآن آيةٌ تدل على أن للمرأة إنكاحَ نفسها.

وأما قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [البقرة ٢٣٠] فالمراد به الإنكاح بعقد الولي، إذْ لو فَهِمَ النبيُّ ﷺ أنها تُنكِحُ نفسَها، لَأَمَرَها بذلك بعد نزول الآية، ولَأبان لأخيها أنه لا ولاية له، ولم يُبِحْ له الحِنْثَ في اليمين والتكفير.

ومن الأدلة كذلك قول أم سلمة رضي الله عنها لرسول الله ﷺ: ليس أحدٌ من أوليائي حاضرًا، تقول أم سلمة: لمّا انقضَتْ عِدّتُها بعث إليها أبو بكر رضي الله عنه يخطُبها، فلم تَزَوَّجْه، فبعث إليها رسولُ الله ﷺ عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه يخطُبها عليه، فقالت: أَخبِر رسولَ الله أني امرأةٌ غَيرَى، وأني امرأةٌ مُصْبِية، وليس أحدٌ من أوليائي شاهدًا. فأتى رسولَ الله ﷺ فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: «**ارجِع إليها فقل لها: أما قولُكِ: إني امرأة غَيرَى، فسأدعو اللهَ لك فيُذهِبُ غَيرَتَك، وأما قولك: إني امرأة مُصبِية، فستُكْفَيْنَ صِبيانَك، وأما قولك: إنه ليس أحدٌ من أوليائي شاهدًا، فليس أحدٌ من أوليائكِ شاهدٌ ولا غائبٌ يكره ذلك**».

فقالت لابنها: يا عمر، قُم فزَوِّجْ رسولَ الله. فزَوَّجَه.(١)

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢٦٦٩٧)، والنسائي في سننه (٣٢٥٤)، وابن حبان في صحيحه (٢٩٤٩)، والحاكم في المستدرك وصححه (٢٧٦٩). وفي ذكر عمر بن أبي سلمة رضي الله عنهما نكارة، ولا يصح، فقد كان عمره ثلاث سنوات! وقال ابن القيم في زاد المعاد ١/ ٩٥: واختُلف فيمن ولي تزويجها منه، فقال ابن سعد في الطبقات ٦/ ٥٣٢ (١٣٨٢): ولي تزويجها منه سلَمة بن أبي سلَمة رضي الله عنهما. قال ابن القيم: وقيل: إن الذي زوَّجها من رسول الله ﷺ ابنُ عمِّها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والحديث: قم يا عمر، فزوِّج رسولَ الله. اهـ. =

قد تقول: إن هذا يتعارض مع قول الرسول ﷺ: «**الثيبُ أحقُّ بنفسها من وليها**».[١]

وأقول: إن هذا الحديث معي وليس عليَّ، ذلك أن كلمة «**أحقُّ**» تُثبت حقًّا للولي، وحق الثيب معناه رضاها وإذنها الصريح، وأما حق الولي فهو الولاية، ولا شك أنه لا يصحُّ عقده بتزويجها إلا بعد رضاها، ذلك أن رسول الله ﷺ قال فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «**لا تُنكحُ الأيِّمُ** - وهي التي فارقت زوجها بطلاقٍ أو موت - **حتى تُستأْمَرَ، ولا تُنكَحُ البِكرُ حتى تُستأذَنَ**»، قالوا: يا رسول الله، وكيف إذنها؟ قال: «**أن تسكُت**» متفق عليه.[٢]

أي أنه لا بدَّ من طلب الأمر من الثيب، فلا يَعقِدُ عليها الولي حتى يطلب الأمر منها بالإذن بالعقد، والمراد من ذلك اعتبار رضاها، وأراد بالبكر البالغةَ، وعبّر عنها بالاستئذان، وعبر في الثيب بالاستئمار، إشارةً إلى الفرق بينهما، وهو أن مشاورة الثيب مُتأكّدٌ ويحتاج إلى صريح القول بالإذن منها في العقد عليها، والإذنُ من البكر دائرٌ بين القول والسكوت، وإنما اكتفي منها بالسكوت لأنها قد تَسْتَحْيي من التصريح.

= وقد رواه إسحاق بن راهويه في مسنده (١٨٢٧) بلفظ: فقالت لابنها: قم فزوج رسول الله. اهـ. فلعل المخاطب ابنها سلمة رضي الله عنه، وفي الإصابة لابن حجر: قال ابن إسحاق: حدثني مَن لا أتهم، عن عبد الله بن شداد قال: كان الذي زوّج أمَّ سلمة من النبي ﷺ: سلَمةَ بنَ أبي سلَمة ابنَها. اهـ.

(١) موطأ مالك (١٤٩٣)، صحيح مسلم واللفظ له (١٤٢١) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) صحيح البخاري (٥١٣٦)، صحيح مسلم (١٤١٩).

لقد كانت الكلمة بين الرجل وأخيه تعدّ عهدًا مؤكدًا، وميثاقًا غليظًا، لا يتحلل منها إلا فاجرٌ ساقط المروءة، وعلى هذا الأساس كان الزواج يتم في أيسر صورةٍ ما دام مستوفيَ الأركان والشروط، ولكن لما ضعف الإيمان، وفسدت القلوب، وخربت الذمم، وأصبح الباطل سهلًا، وشهادة الزور تجارةً، مع أنها من أكبر الكبائر، وظل النبي ﷺ يقول: «**ألا وشهادة الزور، ألا وشهادة الزور**»، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت.[1]

فلما أصبحت الضمائرُ عرضةً للبيع والشراء والمساومة، ولم يعُدْ غريبًا على سمع الناس أن يسمعوا أن فلانة تُنكرُ زواجَها من فلان! وأن فلانًا ينكر زواجه من فلانة! ويأتي كلٌّ منهما بشهودٍ من المرتزقة.. لمّا كان ذلك لجأت الحكومات إلى توثيق عقود الزواج، كما تُوثَّق سائر العقود، وتُؤرَّخ في ملفات المحاكم، حفظًا للحقوق، ودرءًا للمفاسد، وتأكيدًا لعلاقة اللحم والدم.

فالزواج العرفيُّ[2] - إذن - زواجٌ شرعي، ولكنه غير قانوني، وخالٍ من التبعات والالتزامات، والحقوق والقيود، وعرضةٌ للتنصل والهروب، ووسيلةٌ للتلاعب بالأعراض، خصوصًا بين أزواجٍ لا تعرف الله ولا تخشاه، وخصوصًا حين تُزوج المرأة نفسها من غير ولي.

حتى أصبحنا نسمع عن المرأة في عصمة عدد من الرجال.. ونسمع عن

---

(١) صحيح البخاري (٢٦٥٤)، صحيح مسلم (٨٧) عن أبي بَكْرَةَ الثَّقَفي رضي الله عنه.

(٢) **الزواج العرفي**: هو زواجٌ مستوفي الأركان والشروط، لكنه لم يوثَّقْ في محكمة شرعية أو جهةٍ مسؤولة.

الرجل الذي يطلق امرأته ثلاثًا ثم يعاشرها.. ونسمع عن الرجل يتظاهر بالعمل طول الليل وهو مع زوجةٍ أخرى.. ونسمع عن الرجل يكثر الأسفار وله في كل بلدٍ زوجة.. ونسمع عن هذا الرجل يهاجر وتطول هجرته، ليضمن لزوجته وأولاده مستوًى رفيعًا، ثم يعود فيجدها في عصمة رجلٍ آخر! ونسمع بالمرأة تشارك زوجها في جمع الثروة، وبناء البيت، وتأمين مستقبل الأولاد، ثم تفاجأ بأنه كتب كلَّ هذه الأموال لغيرها..

وكل هذه الأمور لا مبالغة فيها، وإنما هي بعض ما تحمله إلينا الصحف كلَّ يوم من أحداثٍ مروِّعةٍ تفوق حدَّ الخيال.. وتَعجَبُ كيف حدث هذا في بلدٍ من بلاد الإسلام! ولو كانت هناك أَثارةٌ من علم، أو بقيةٌ من دين، أو أمارةٌ من خلق، أو قليلٌ من التقوى لدى الزوج الذي قَبِل، والزوجة التي خانتْ، والشهود الذين أَدَّوُا الشهادة، والمأذون الذي عقد، والمغفلين من الرجال والنساء، لما كانت هذه الفضائح التي تزكم الأنوف، ولا هذه الكوارث التي تهدّ الجبال، ولا هذه المصائب التي يَنْدَى لها الجبين، والتي تُعرِّض النفوس للقتل، والأولاد للتشرد، والبيوت للخراب، وسمعة العائلات للعار!

وهناك نوعٌ آخر من الزواج، يسمونه الزواج المدنيّ،[1] دون توفر الشروط والأركان الشرعية، وليس هو بزواجٍ، ولا بمدني! وإنما هو اتخاذ أخدانٍ،[2] أو اتخاذ أقران، أو اتخاذ عشيقات.. وصحبةٌ غير شريفة،

---

(١) **الزواج المدني**: يوثَّق عند جهة مسؤولة، ويكون مختلَّ الأركان والشروط الشرعية، كأن يكون دون شهود، أو تتزوج مسلمة من غير مسلم.

(٢) **الخِدْنُ والخَدِينُ** هو الصَّدِيق. مختار الصَّحاح.

يلتقي رجلٌ بامرأةٍ ويتفقان معًا على معاشرةٍ زوجية لمدة من الزمن، قد تطول أو تقصر، وتنتهي أو تجدّد، ثم يترك أحدهما صاحبه.. ولا تقوم هذه العلاقة على عقدٍ ولا وليّ ولا شهود، وقد ينتج من هذه العلاقة أولادٌ يكون مصيرهم إلى ملاجئ الحكومة حيث لا يكون لهم أبٌ ولا أم.. وقد شاع هذا في بلاد الغرب والشرق، ووقع فيه كثيرٌ من أبنائنا السذّج الذين يتعلمون في الخارج.

وهذه العلاقة الآثمة يرفضها الإسلام رفضًا تامًّا، كما يرفض سائر أنواع الزنى والانحراف، ولا يقبل إلا الزواج الشرعي القائم على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.. الزواج الذي يعيش في النور لا في الظلام.. ويدخل من الأبواب لا من الشبابيك.. ويحيا على القيم لا على الضلال.. وتعلو به الهمم، وترتفع به الهامات، ويتجلى به الشرف، وتتحقق به الأنساب.. وتُبنى به البيوت: على الحق لا على الباطل.. على الصدق لا على الدجل.. على الأمانة لا على الغدر.. بكلمة الله التي أحلَّ بها الحرام، وأخزى بها الشيطان، وجَدَعَ بها أنفَ الغَيرة، كما قال رسول الله ﷺ: «**فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانِ الله، واستحللتم فروجَهن بكلمة الله**».(١) وقال ﷺ أيضًا: «**استوصوا بالنساء خيرًا**».(٢)

❊ ❊ ❊

(١) الحديث جزء من خُطبة النبي ﷺ في حِجة الوداع، صحيح مسلم (١٢١٨)، سنن أبي داود (١٩٠٥) عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاري (٥١٨٦)، ومسلم (١٤٦٨)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٨- حقوق الزوجة

فإذا انتقل الزوجان إلى عُش الزوجية، وأصبح كل منهما مكمِّلًا للآخر، ومستودَعًا لسره، وملاذًا لهمه، ومرآةً صافيةً لصاحبه، كان عليهما أنْ يعْلَما أن هذا البيت عالَمُهما، ولكنه عالَمُ الحقائق لا عالم الأوهام، عالم الواقع لا عالم الخيال، وأنه مِلْكٌ لهما وحدَهما، يَبنِيانِه لَبِنةً لبنة، فلا يجوز أن يسمحا لأحدٍ بترتيبه، ولا أن يقبلا من أحدٍ أن يتدخل فيه، وأن يعمل كلٌّ منهما على توفير أسباب السعادة لصاحبه..

والإسلام الذي يَنشأ البيت في ظله، ويقوم على مبادئه وباسمه، وضع من الحقوق والواجبات ما يجعل الحياة تسري فيه نديةً عاطرةً، وما يجعل السعادة تتخلل جميع مَسامِّه، رقراقةً طيبة، فجعل للزوجة حقوقًا على زوجها، وللزوج حقوقًا على زوجته، إذا أرادها كلٌّ منهما حقيقةً لا تمثيلًا، وجِدًّا لا هَزْلًا، وإخلاصًا لا نفاقًا، وابتغاءَ وجه الله.. يظلُّ البيت قويَّ الأركان، ويظل أهله في رغدٍ وأمان.

وأول حقوق الزوجة على زوجها أن يعاشرها بمعروف، بحسنِ خُلق، وسلامةِ صدر، وعِفةِ لسان، وأدبِ حوار، وطهارةِ قلب، وهذا ما أمرنا به المولى تبارك وتعالى بقوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء ١٩].

لقد اعتاد بعض الشباب والفتيات في مدة الخِطبة أن يظهر كلٌّ منهم بمظهر الرقة والدقة والوداعة، ودماثة الخلق، والذوق الرفيع، حتى إذا

جمعهما بيتٌ واحدٌ، تغير ذلك إلى جفاءٍ وغِلظة، وشدةٍ وقسوة، وطمع وتطلب، وتجاهل وتهاون، وتجريح وشتائم! فلمَ كلُّ هذا؟ هل حدث شيء بعد الزواج يستدعي كلَّ هذا التغيير؟ أم أن الأخلاق الكريمة والأسلوب العف كان مجرد شِبَاكٍ للفريسة، وستارٍ للخداع، وعُملةٍ مزيّفةٍ للتجارة بمستقبل الناس ومصائرهم؟!

ماذا لو حَكَم علاقاتِ الناس صدقُ النية، وسلامةُ القصد، وأمانةُ الكلمة.. إن الزواج ليس مجرد كلمةٍ مطبوعةٍ على ورق، وليس بيتًا مصنوعًا من الزجاج، وإنما هو بيتٌ قائمٌ على قواعد ثابتة، وأركان عميقة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ماذا لو استمر المذاق حلوًا هنيئًا، والعملُ سخاءً رخاءً، والأخلاقُ سماحةً وعفة.. ماذا لو عاشر الأزواج زوجاتهم بالمعروف كما أمرنا الله سبحانه وتعالى؟ ورسول الله ﷺ يقول: «**خيرُكم خيرُكم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**».[1] ويقول: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنُهم خلقًا، وخِيارُكم خياركم لنسائهم**». رواه أبو داود والترمذي.[2] كما كان من أواخر ما أوصى به النبي ﷺ ما قاله في خُطبته في حِجة الوداع: «**فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانِ الله، واستحللتم فروجَهن بكلمة الله**».[3]

---

(١) جامع الترمذي وصححه (٣٨٩٥)، صحيح ابن حبان (٤١٧٧) عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) سنن أبي داود (٤٦٨٢)، جامع الترمذي وصححه (١١٦٢)، مسند أحمد (٧٤٠٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) صحيح مسلم (١٢١٨)، سنن أبي داود (١٩٠٥) عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما.

ويقول الإمام الغَزّالي رَحِمَهُ اللَّهُ: (وليس حسنُ الخلق كفَّ الأذى عنها، بل احتمالَ الأذى منها، فقد كانت أزواجه ﷺ يُراجِعْنَه، وإن إحداهنّ لَتَهجُرُه اليوم إلى الليل)![1] متفق عليه.[2]

واستأذن أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على النبي ﷺ، فسمع صوتَ عائشةَ رضي الله عنها عاليًا! فلما دخَل تناوَلَها لِيَلطِمَها، وقال: ألا أراكِ ترفعينَ صوتَكِ على رسول الله! فجعل النبيُّ ﷺ يحجُزُه، وخرج أبو بكر مُغضَبًا، فقال النبي ﷺ حين خرج أبو بكر: «**كيف رأيتِني أنقذتُكِ من الرجُل**»؟

قالت: فمكثَ أبو بكر أيامًا، ثم استأذَنَ على رسولِ الله ﷺ فوجدَهما قد اصطَلَحَا، فقال لهما: أَدخِلاني في سِلْمِكُما كما أَدخلتُماني في حَرْبِكما، فقال النبيّ ﷺ: «**قد فَعَلْنا، قد فعلنا**».[3]

وكان رسول الله ﷺ يقول لعائشة رضي الله عنها: «**إني لأعلمُ إذا كنتِ عني راضية، وإذا كنت عليَّ غَضْبَى**»، قالت: من أين تعرف ذلك؟ فقال: «**أمَّا إذا كنت عني راضية فإنكِ تقولين: لا وربِّ محمد، وإذا كنتِ عليَّ غَضْبَى قلتِ: لا وربِّ إبراهيم**»! قالت: أجلْ والله يا رسول الله، ما أهجُرُ إلا اسمَك. رواه البخاري.[4]

---

(١) إحياء علوم الدين، كتاب آداب النكاح ٢/ ٤٣.

(٢) صحيح البخاري (٢٤٦٨)، صحيح مسلم (١٤٧٩) عن ابن عباس، عن عمر بن الخطاب، عن زوجةِ عمر، رضي الله عنهم.

(٣) سنن أبي داود (٤٩٩٩)، السنن الكبرى للنسائي (٨٤٤١) (٩١١٠)، مسند أحمد (١٨٣٩٤) عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

(٤) صحيح البخاري (٥٢٢٨) (٦٠٧٨)، صحيح مسلم (٢٤٣٩) عن عائشة رضي الله عنها.

إننا لا نفترض أن تكون المرأةُ دائمًا صاحبةَ حقّ، فقد تكون هي البادئةَ بالجفاء والتجنّي، ومع ذلك يأمرنا الشرع بأن نُحسن صحبتَها، أليس أمهاتُ المؤمنين هنّ اللواتي هَجَرْنَ رسولَ الله ﷺ! فلم يقابل جفاءَهن بجفاء، ولا قطيعتَهن بالقطيعة، بل لما تظاهرتْ زوجتانِ من زوجاته عليه، جاءهن الإنذارُ والتهديد من الله سبحانه وتعالى بأن النبي ﷺ ليس وحده، وإنما معه مولاه رب العالمين وملائكته، فقال عَزَّ مِن قائل: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم].

ومن حق الزوجة على زوجها أن يُداعبَها وتداعبَه، ويُلاعبَها وتلاعبَه، وأن يُرخيَ السِّترَ بينهما ويرفعَ الكُلفة إلى حد الامتزاج المباح، والمُزاح الحق، بلا تعنّتٍ ولا صَلَفٍ ولا إسفاف، فليس من المطلوب أن يتحول البيت إلى دارٍ للعجزة لا يُرى فيه إلا الأسى، ولا أن يتحول إلى سجنٍ لا يُرى فيه إلا القيودُ والقهر. وإنما يجب أن يَشيع فيه الأنسُ والسرور، وأن يترُك الزوج لزوجته فرصةَ التعبير عن نفسها والتمتع معه.

ولذلك أنكر الرسول ﷺ على عبد الله بن عمرٍو رضي الله عنهما انقطاعَه للعبادة، وبُعدَه عن زوجته، وقال له: «**ألم أُخبَرْ أنك تصوم النهار وتقوم الليل**»؟ قال: بلى يا رسول الله! قال: «**فلا تفعل، صُمْ وأَفطِرْ، وقُمْ ونَمْ، فإنّ لجسدِك عليك حقًّا، وإنّ لعينِك عليك حقًّا، وإن لزوجِك عليك حقًّا**» متفق عليه.[1]

(١) صحيح البخاري (١٩٧٥) (٥١٩٩)، صحيح مسلم (١١٥٩) عن عبد الله بن عمرِو بن العاص رضي الله عنهما.

فسمَّى رسول الله ﷺ نصيبَ الزوجة من زوجها حقًّا، بل جعله أمرًا دينيًّا يُثاب عليه الزوج، فقال لسعد بنِ أبي وقاص رضي الله عنه، في حديث طويل: «**وإنك لن تُنفِقَ نفقةً تبتغي بها وجهَ الله إلا أُجِرْتَ عليها، حتى ما تضع فِي فِيْ امْرأتِك**».(١)

ويقول النبي ﷺ: «**وفي بُضْعِ أحدِكم صدقة**». قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدُنا شهوتَه ويكونُ له فيها أجر؟! فقال: «**أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر**» رواه مسلم.(٢)

أرأيتم إلى الإسلام العظيم الذي يجعل إشباع الغريزة في الحلال، والاستجابةَ لنداء الجسد، أمرًا مشروعًا ترعاه الشريعة الإسلامية وتُثيب عليه؟

وانظروا معي إلى هذا الانسجام الندي فيما بين النبي ﷺ وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، مما رواه البخاري عنها قالت: وكان يومَ عيد، يلعب السودانُ بالدَّرَق والحِراب، فإما سألتُ النبي ﷺ، وإما قال: «**تَشتَهِينَ تَنظُرِين**»؟ فقلتُ: نعم، فأقامني وراءه، خَدِّي على خدِّه، وهو يقول: «**دُونَكم يا بني أَرْفِدة**»، حتى إذا مَلِلْتُ قال: «**حَسْبُكِ**»؟ قلت: نعم، قال: «**فاذهبي**».(٣)

---

(١) صحيح البخاري (٥٦) (١٢٩٥)، صحيح مسلم (١٦٢٨) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.
وقوله: «**في فِيْ امرأتِك**» أي في فم امرأتك، والياء مخففة، كما لو قلتَ: في فِيْها، أي في فمها. ومن الأغلاط الشائعة أن تشدَّد الياء هنا فيقال: (في فيّ امرأتك)!

(٢) صحيح مسلم (١٠٠٦) عن أبي ذَرٍّ الغِفاري رضي الله عنه.

(٣) صحيح البخاري (٩٥٠)، صحيح مسلم (٨٩٢).

وفي رواية النسائي: فقال لي: «**أمَا شَبِعْتِ؟ أما شبعت**»؟ قالت: فجعلتُ أقول: لا، لأنظر منزلتي عنده.(١)

وللنسائي أيضًا: قلت: يا رسول الله لا تعجل، فقام لي. ثم قال: «**حسبك**»؟ قلت: لا تعجل، قالت: وما بي حب النظر إليهم، ولكن أحببت أن يبلغ النساءَ مقامُه لي ومكاني منه.(٢)

والحديث هنا لا يحتاج إلى تعليق، وإنما يحتاج إلى تخيل الصورة التي أبرزتها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها من حيث كونُها زوجةً، وإلى المعاني التي أفرزتها من داخل نفسها من حيث كونُها امرأةً.

ومن حق الزوجة على زوجها أن يُنفق عليها ولو كانت غنية، فبالإنفاق عليها من حُرّ ماله تشعر بحاجتها إليه، والالتصاقِ به، وباعتزازِه بها، وحُظوتِها عندَه، تراه يسهر ليُقِرَّ عينَها، ويُجهِدُ نفسَه ويغتربُ ليوفِّرَ لها كلَّ أسباب السعادة، وكل ذلك من أجلها، أليس ذلك دليلًا على حبه لها، وحرصه عليها، واهتمامه بشؤونها..

على أن يكون إنفاقه بين التقتير والتبذير، وهذه طبيعة الإسلام: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ [الفرقان]، ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورٗا﴾ [الإسراء]. ولأن البيت يعلو شيئًا فشيئًا، والمستقبل يتسع شيئًا فشيئًا، والأولاد يزيدون عامًا بعد عام، وكل ذلك يتطلب من

(١) السنن الكبرى للنسائي (٨٩٥٧)، جامع الترمذي وصححه (٣٦٩١).
(٢) السنن الكبرى للنسائي (٨٩٥١) (٨٩٥٥)، مسند أبي يعلى (٤٨٣٠).

المرء سَدادًا في الرأي، وبُعدًا في النظر، وتوقّعًا للمفاجآت، ومراجعةً للحساب.

ولقد جعل الإسلامُ الإنفاقَ على الأهل أعلى مراتب الإنفاق، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**دينارٌ أنفقتَه في سبيل الله، ودينارٌ أنفقتَه في رقبة، ودينارٌ تصدقتَ به على مسكين، ودينارٌ أنفقتَه على أهلك، أعظمُها أجرًا الذي أنفقتَه على أهلك**» رواه مسلم.(١)

ومع أن هذه النفقة واجبةٌ على الزوج إلا أن لها أجرًا لا يَفوتُه ولا يُخطئُه، فعن أبي مسعودٍ البَدْري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إذا أنفق الرجل على أهله يَحتسِبُها، فهو له صدقة**» متفق عليه.(٢)

ويقول ﷺ: «**اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدَأْ بمن تعول**» رواه البخاري.(٣)

ويقول ﷺ: «**كفى بالمرء إثمًا أن يُضيِّعَ من يَقُوتُ**» رواه أبو داود.(٤)

❊ ❊ ❊

(١) صحيح مسلم (٩٩٥).

(٢) صحيح البخاري (٥٥)، صحيح مسلم (١٠٠٢).

(٣) صحيح البخاري (١٤٢٧)، صحيح مسلم (١٠٣٤) عن حَكِيم بن حِزَام رضي الله عنه.
ورواه أيضًا البخاري (١٤٢٨) (٥٣٥٥)، ومسلم (١٠٤٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
ورواه مسلم (١٠٣٦) عن أبي أمامة رضي الله عنه.

(٤) سنن أبي داود (١٦٩٢) عن عبد الله بن عمرِو بن العاص رضي الله عنهما.
ورواه مسلم (٩٩٦) بلفظ: «**كَفَى بالمرء إثمًا أن يَحبِسَ عمّن يَمْلِكُ قُوتَه**».

٩- حقوق الزوج

المرأة الصالحة هي التي تعرف قدرَ زوجها، وتعلمُ أنه نعمةٌ من نعم الله عليها، ساقها الله إليها.. وهو أبو أولادها، وحامِي ذِمَارِها، وشريك حياتها، والساهر على راحتها، والمتكفل بكل مطالبها.. الذي احتلَّ أعلى مكانةٍ من قلبها، وسرى في عروقها سريان الماء في العود.. لذلك كان عليها أن تعطيَه حقه كما أعطاها حقها، وأن تحافظ عليه كما يحافظ عليها، وألّا تفرط فيه، وإلا ضاع منها كما تضيع النعمة مِن يدِ مَن لا يعرف قدرها.

من هنا لا يأخذنا العجب ونحن نقرأ حديث المصطفى ﷺ الذي يقول فيه: «**لو كنتُ آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها**». رواه الترمذي،[1] أي سجودَ تقديرٍ واحترام، لا سجودَ تعظيمٍ وعبادة، وفي هذا غاية المبالغة لوجوب إطاعة المرأة لزوجها، لأن الإسلام لا يرضى بالسجود لغير الله، والحديث وإن نفى عن الزوج صفة القداسة، إلا أنه أبرز صورته في الإطار الذي يناسب عظماء الناس وخيار البشر الذين يأثم الناس بتجاهلهم وعدم الاهتمام بهم.

---

(١) جامع الترمذي وحسنه (١١٥٩)، صحيح ابن حبان (٤١٦٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
ورواه ابن ماجه (١٨٥٣)، وابن حبان (٤١٧١)، وأحمد (١٩٤٠٣) عن عبد الله بن أبي أَوْفَى رضي الله عنهما.

وأول هذه الحقوق التي للزوج على زوجته أن تطيعه إذا أمر، في غير معصية، لأنه لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق، وكلمة الطاعة قد تعدُّها المرأة إهانة لها أو جرحًا لكبريائها حيث تصورها بصورة الطاعة العسكرية، التي تفرض عليها أن تكون في موقف المأمور من الآمر، وتوجب عليها أن ترفع يدها بالتحية كلما دخل البيت أو خرج، وليس كذلك، وإنما المقصود بها الرضا والقبول، والبُعد عن جو الإثارة والخلاف.

وليس معنى هذه الكلمة أن الرجل دائمًا صاحبُ حق، فهناك نساء لا يرجُحُ على رأيهن رأيٌ، وتستطيع المرأة بما أُوتيتْ من لباقة وكياسة أن تقوم بالتعديل المناسب في الوقت المناسب على رأي الرجل بما يشعره بأنه صاحب هذا الرأي، وأن الحق بجانبه.

إن البيت صورةٌ مصغرةٌ للدولة، يحتاج إلى السياسة الحكيمة والدبلوماسية الهادئة، ولا يَعِيبُ المرأةَ أن تكون في طاعة زوجها، ولا يجوز لها أن تأنف من هذه الكلمة، فهي المدخَل الطبيعي إلى قلب الرجل، والمسار المؤدي إلى رضا الله ودخول الجنة، روى ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إذا صَلَّتِ المرأةُ خَمْسَها، وصامتْ شهرَها، وحصَّنتْ فرجَها، وأطاعت بَعْلَها، دخلتْ مِن أيِّ أبوابِ الجنة شاءت**».[1]

(١) صحيح ابن حبان (٤١٦٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه. ورواه أحمد (١٦٦١) عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه.

ولا شك أن حب الأهل غريزة في الإنسان، كلٌّ على قدر قربه منه، فحب الأب غير حب الأخ، وغير حب جميع الأقارب، ولكن إذا انتقلت إلى بيت زوجها طغى حبه على كل حب، لأنه يستقر في قلبها ومخها وكل جزءٍ من أجزاء جسمها، ولأنه يومُها وغدُها، وحاضرُها ومستقبلُها، وأمنُها وراحتُها، وشاطئُها وواحتُها، وأملُها ومُناها..

حتى إذا زارت بيت أهلها أصبحت تُحِسُّ بأنها ضيفٌ عليهم، وأنها غريبة عنهم، وتعود في لهفةٍ إلى بيتها، فلا تكاد تضع عينها عليه حتى تُحس بالأمان، بما يُحس الغائب إذا عاد إلى وطنه..

ويروي لنا ابن إسحاق رَحِمَهُ اللَّهُ ما يدل على عظم مكانة الزوج، وعلى عمق حبه من قلب زوجته فيقول: لما انصرف الرسول ﷺ راجعًا إلى المدينة - أي بعد نكسة أُحُد - لَقِيَتْه حَمْنةُ بنت جحش رضي الله عنها كما ذكر لي، فلما لَقِيَتِ الناسَ نُعي إليها أخوها عبد الله بن جحش رضي الله عنه، فاسترجعتْ واستغفرت له، ثم نُعي لها خالُها حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، فاسترجعتْ واستغفرتْ له، ثم نُعي لها زوجها مصعب بن عمير رضي الله عنه، فصاحتْ ووَلْولت! قال رسول الله ﷺ: «**إن زوج المرأة منها لَبِمكان**»، لما رأى من تثبتها عند أخيها وخالها، وصياحها على زوجها.[1]

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٩٨ من دون إسناد!

وروى ابن ماجه (١٥٩٠) والحاكم (٦٩٠٦) بسند ضعيف، عن حَمْنةَ بنت جحش رضي الله عنها أنه قيل لها: قُتل أخوك، فقالت: رحمه الله! وإنا لله وإنا إليه راجعون! قالوا: قُتل زوجُك، قالت: واحُزناهْ! فقال رسول الله ﷺ: «**إن للزوج من المرأة لَشُعبةً، ما هي لشيء**».

ومن العسير على الزوجة أن تنسى زوجها بسهولةٍ إذا مات كما تنسى غيره، لأن حزنها عليه عميقٌ عُمْقَ حبها له، ولأن صورته لا تفارقها، وذكرياته تسكن كل ركن من أركان البيت، كما تسكن كل ركن من أركان قلبها.

ولذلك أوجب الشرع عليها أن تُحِدَّ على زوجها أربعة أشهرٍ وعشرًا، تنفيسًا عنها، ووفاءً له، واعترافًا بحقّه عليها، ومسايرةً للطبيعة البشرية، لأن الحزن على الحبيب جِبِلّةٌ فِطرية، أمّا غيرُه فلا تُحِدُّ عليه مهما كانت قرابتُه أكثرَ من ثلاثةِ أيام، فعن أمّ حَبيبةَ رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يَحِلُّ لامرأةٍ تؤمنُ بالله واليوم الآخر أن تُحِدَّ على ميْتٍ فوقَ ثلاث، إلا على زوجٍ فإنها تُحِدُّ عليه أربعةَ أشهرٍ وعشرًا**» رواه البخاري.(١)

وتنظر المرأة حولها فتجد الرجال يسبقونها بالأجر، فإذا جاهدوا كان لهم أجرُ الجهاد والغنيمة، وإذا استُشهِدوا كانوا أحياءً عند ربهم يرزقون، والمرأة محرومةٌ من ذلك، فما ذنبها؟

ويأتي الجواب عن هذا الشعور بالنقص من حديث ابن عباس رضي الله عنهما فيقول: جاءت امرأةٌ إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، أنا وافدةُ النساء إليك، هذا الجهاد كتبه الله على الرجال، فإن يُصيبوا أُجِروا، وإن قُتلوا كانوا أحياءً عند ربهم يرزقون، ونحن معشرَ النساء نقوم عليهم، فما لنا

(١) صحيح البخاري (١٢٨٠)، صحيح مسلم (١٤٨٦) عن أم حبيبة رضي الله عنها . ورواه البخاري (١٢٨٢)، ومسلم (١٤٨٧) عن زينب بن جحش رضي الله عنها .

من ذلك؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أَبلِغي مَن لَقِيتِ من النساء أن طاعة الزوج اعترافًا بحقه يعدل ذلك، وقليل منكن من يفعله**» رواه البزار والطبراني.(١)

أي أنَّ المرأة وهي في بيتها تأخذ أجر المجاهد وهي لم تجاهد، وتأخذ أجر الشهيد وليست شهيدة، وأجرَ ما لم يُفرض عليها، تأخذ كل ذلك في مقابلة شيء واحد، وهو طاعة الزوج، فكم تكلفها هذه الطاعة؟

يصور الرسول ﷺ بعض صورها فيقول: «**ألا أخبركم بنسائكم في الجنة**»؟ قلنا: بلى يا رسول الله! قال: «**كلُّ وَدُودٍ وَلُود، إذا غَضِبَتْ أو أُسِيءَ إليها قالت: هذه يدي في يدك، لا أكتحل بِغَمْضٍ حتى ترضى**» رواه الطبراني.(٢)

ما أجملَ هذه الكلمةَ حين تقولها المرأة ولو كانت صاحبةَ حق! إنها لَتعملُ عملها في القلوب عَمَلَ السحر، ومن يسمعُ هذه الكلمة، ثم يتمادى في غضبه، ويسرف في ظلمه، ويميل بجانبه؟! من يسمع هذه الكلمة ثم لا يذوب رقةً وحياءً؟!

ومن حقه عليها - إلى جانب طاعته - ألّا تَهجُر فراشَه ولو ليلةً واحدة، لأن الهجر إذا كان منهيًّا عنه فيما بين المسلم وأخيه المسلم، فما أشدَّ

---

(١) مسند البزار (٥٢٠٩)، المعجم الكبير للطبراني (١٢١٦٣)، بسند ضعيف جدًّا، وأورده ابن الجوزي في العلل المتناهية في الأحاديث الواهية ٢/ ١٤٠، وله شواهد لكنها ضعيفة أيضًا.

(٢) المعجم الأوسط للطبراني (١٧٤٣) المعجم الصغير للطبراني (١١٨) عن أنس بن مالك رضي الله عنه. ورواه الضياء المقدسي في الأحاديث الجياد المختارة (٤٢٤) (٤٢٥)، والطبراني في الكبير (١٢٤٧٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

حرمتَه بين زوجٍ وزوجة، قد جعل الشرع كلًّا منهما لباسًا للآخر! فقال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة ١٨٧]، وقد قال النبي ﷺ: «**إذا باتَتِ المرأةُ هاجرةً فِراشَ زوجِها، لَعَنَتْها الملائكةُ حتى تصبح**» متفق عليه.(١)

كذلك من حقه عليها ألّا تصوم نافلةً وهو حاضرٌ إلا بإذنه، وألّا تتصرف في ماله وبيته إلا بإذنه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لا يحل للمرأة أن تصوم وزوجها شاهدٌ إلا بإذنه، ولا تأذَنَ في بيته إلا بإذنه**» متفق عليه.(٢)

فإذا أذن لها إذنًا صريحًا أو عامًّا، ولم تجاوِزِ الحدَّ بتقصيرٍ أو تبذير كان لها أجرُها، فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «**إذا أنفقت المرأة من بيت زوجها غيرَ مُفسِدةٍ، كان لها أجرُها بما أنفقت، ولزوجها أجرُه بما كَسَب، وللخازن مثل ذلك، لا يَنْقُصُ بعضُهم من أجر بعضٍ شيئًا**» متفق عليه.(٣)

ومن حقه عليها أن تحفظ عِرضَه، وأن تصون مالَه، وأن ترعى ولدَه، وأن تحفظ سرَّه، وما يحدُث بين الرجل وامرأته لا يجوز أن يعرفه أحد، ومن يُفضي بِسِرٍّ بينه وبين زوجته يكون من شرار الناس.

---

(١) صحيح البخاري (٣٢٣٧) (٥١٩٤)، صحيح مسلم (١٤٣٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) صحيح البخاري (٥١٩٥)، صحيح مسلم (١٠٢٦).
(٣) صحيح البخاري (١٤٢٥)، صحيح مسلم (١٠٢٤).

فعن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إنّ من أشَرِّ الناس عند الله منزلةً يوم القيامة: الرجلَ يُفضي إلى امرأته، وتفضي إليه، ثم ينشُرُ سرَّها**»! رواه مسلم.(١)

وعن أسماءَ بنتِ يَزيدَ رضي الله عنها أنها كانت عند رسول الله ﷺ والرجالُ والنساء قعودٌ عنده، فقال: «**لعل رجلًا يقول ما يفعل بأهله! ولعل امرأةً تخبر بما فعلت مع زوجها**»! فأَرَمَّ القومُ - أي سكتوا- فقلتُ: إِيْ وَاللهِ يا رسول الله! إنهنّ لَيَقُلْنَ، وإنهم لَيفعلون! فقال النبي ﷺ: «**فلا تفعلوا، فإنما مَثَلُ ذلك مثلُ شيطانٍ لقي شيطانة في طريق، فغَشِيَها والناسُ ينظرون**»! رواه أحمد من رواية شهر بن حوشب.(٢)

كم يقع في هذا الشر ناسٌ اتصفوا بالوقاحة وسوء الأدب! وطُبعوا على الاستهتار والمجون! يرسمون الصورة بكل تفاصيلها في المجالس بغير حياءٍ ولا خَفَر! وهم لا يعلمون أنهم يسقطون من أعين العقلاء!

ومن حقه عليها أن تُعينَه على بِرّ أهله، وصِلةِ رحمِه، لا أن تنتزعه من بينهم انتزاعًا ليكون لها وحدها، أنانيةً وظلمًا! فإذا فعلت ذلك تكون قد فتحت على نفسها جبهاتٍ من العداوة لا تخرج منها سالمة، فإن الله إذا كان قد أحلها لزوجها بكلمةٍ، فإنه يحرمها عليه بكلمةٍ، ومن اليسير على

---

(١) صحيح مسلم (١٤٣٧).

(٢) مسند أحمد (٢٧٥٨٣)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٢٩٤: (رواه أحمد والطبراني، فيه شهر بن حوشب، وحديثه حسن، وفيه ضعف). اهـ.

أي رجلٍ أن يستبدل زوجةً بزوجة، ولكن لا يستطيع أن يستبدل أبًا بأب ولا أمًّا بأم.

هذه بعض حقوق الزوج على زوجته، إذا أدّتها له بطيب خاطرٍ من قلبها ووجدانها صدقًا وعدلًا، ضَمِنت رضاه في الحياة وبعد الممات، والنبي ﷺ يقول: «**أيُّما امرأةٍ ماتت وزوجُها عنها راضٍ، دخلت الجنة**». رواه الترمذي.(١)

وعلى قدر معاملتها له يتحدد مسارها إلى الجنة أو إلى النار، فعن حُصين بن مِحْصَنٍ، أن عمّةً له أتت النبي ﷺ في حاجة، ففرَغَتْ من حاجتها، فقال لها: «**أذاتُ زوجٍ أنتِ**»؟ قالت: نعم، قال: «**كيف أنتِ منه**»؟ قالت: ما آلوه إلا ما عَجَزتُ عنه - أي لا أقصّر في أمرٍ من أموره إلا ما عَجَزتُ عنه - فقال: «**فانظري أين أنتِ منه، فإنما هو جنتُكِ ونارُك**». رواه أحمد والنسائي بإسناد جيد والحاكم.(٢)

❊ ❊ ❊

(١) جامع الترمذي وحسنه (١١٦١)، سنن ابن ماجه (١٨٥٤)، مستدرك الحاكم وصححه (٧٣٢٨) عن أم سلمة رضي الله عنها.

(٢) مسند أحمد (١٩٠٠٣) (٢٧٣٥٢)، السنن الكبرى للنسائي (٨٩٦٢) (٨٩٦٣)، مستدرك الحاكم وصححه (٢٧٦٩).

١٠- قانون الوراثة

ولكن كيف ينشأ الشاب على عبادة ربه؟ سؤالٌ يحتاج إلى أن نرجع إلى الوراء قليلًا، لنرى كيف جاء إلى هذه الدنيا؟

لقد جاء إلى هذه الدنيا طاهرًا نظيفًا، سليمَ الصدر، نقيَّ السريرة، ظاهرَ الوَضاءة، في أحسن تقويم، أنقى من مُزن الغمام، أطيبَ من رائحة المسك، أبهى من الزهرة الجميلة، أجملَ من إشراقة الصباح، أشدَّ حياءً من العذراء، لا يعرف اللؤمَ والغدر، ولا الخُبثَ والطمع، ولا الظلمَ والبغي، ولا الإثمَ والعدوان، ولا الفسوقَ والعصيان، ولا من أحوال الدنيا كلها شيئًا، كما قال المولى تبارك وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل].

يمتنُّ الله سبحانه على عباده، في إخراجه إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئًا من أمور العلم، ولا مما قضت به المقاديرُ عليهم من سعادةٍ وشقاءٍ، ولا شيئًا من منافعهم، ثم رزقهم السمع الذي يُدركون به الأصواتَ، والأبصارَ التي يُحِسّون بها المرئياتِ، والأفئدةَ التي يميزون بها بين ما يضر وما ينفع، وهذه القُوى والحواسَّ التي يُحصّلون بها العلمَ الذي كان مسلوبًا عنهم، لكي يعملوا بمُوجَبِ هذا العلم: مِن شكر المنعم وعبادته، والقيام بحقوقه.

فيخرج الطفل من بطن أمه صفحةً بيضاءَ مضيئة، بحواسَّ نظيفة، ونفْسٍ سوية مستقيمة، كما قال الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس]، يخرج على الفطرة القويمة، كما قال سبحانه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم ٣٠]، وكما قال رسوله ﷺ: «**ما من مولودٍ إلا يُولَدُ على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانِه أو يُنصِّرانِه أو يُمجِّسانِه، كما تُولَدُ البهيمةُ بهيمةً جمعاءَ، هل تُحِسُّون فيها من جدعاء**»! متفق عليه.(١)

يقول العلامة المُناوي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه فيض القدير: (ومعنى الفطرة أن المولود يُولد ولَدَيهِ الاستعدادُ لقَبول الدِّين، والاستعدادُ لِتَأَبّي الباطل، والتمييزِ بين الخطأ والصواب، فإن تُرك بحاله، وخُلِّيَ وطَبْعَه، ولم يَتعرَّضْ له مِن الخارج مَن يصدُّه عن النظر الصحيح، من فساد التربية، وتقليد الأبوين، والإلْف بالمحسوسات، والانهماك في الشهوات، ونحو ذلك، لينظر فيما نُصب من الدلالة الجلية على التوحيد، وصدقِ الرسول ﷺ وغير ذلك نظرًا صحيحًا يُوصله إلى الحق وإلى الرشد.. عَرَف الصواب، ولزم ما طُبع عليه في الأصل، ولم يخترْ إلا الملةَ الحنفية.

وإن لم يُترَك بحاله، بأن كان أبواه يهوديين أو نصرانيين، فأبواه يُصيِّرانه نصرانيًّا أو يهوديًّا أو مجوسيًّا، بأن يَصُدَّاه عما وُلد عليه، ويُزيِّنا له الملةَ الزائفة).

(١) صحيح البخاري (١٣٥٨)، صحيح مسلم (٢٦٥٨) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثم يقول: (والحاصل أن الإنسان مفطورٌ على التهيُّؤ للإسلام بالقوة، لكن لا بد من تعليمه بالفعل، فمن قدَّر الله كونه من أهل السعادة قيَّض له من يعلّمه سبيل الهدى، فصار مهذَّبًا بالفعل، ومن خذله وأشقاه سبَّب له من يغيّر فطرتَه، ويَثني عزيمتَه، والله سبحانه هو المتصرف في عبيده كيف يشاء، ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس]). فيض القدير ٥/ ٣٤.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾، يقول: (بيَّن الخيرَ والشر).(١)

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسيره: (قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس]: يحتمل أن يكون المعنى: قد أفلح من زكى نفسه، أي بطاعة الله، كما قال قَتادة، وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل، ويُروى نحوُه عن مجاهدٍ وعِكرمةَ وسعيدِ بن جُبير، وكقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾ [الأعلى]..

وقد يحتمل أن يكون المعنى: قد أفلح من زكى الله نفسَه، وقد خاب من دسَّى الله نفسَه، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما..(٢)

وروى الإمام أحمد ومسلم عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللهم آتِ نفسي تقواها، وزَكِّها أنت خيرُ من زكاها، أنت وليُّها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علمٍ لا ينفع، ومن قلبٍ لا يخشع، ومن**

---

(١) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره ٢٤/ ٤٤٠، وابن أبي حاتم في تفسيره ١٠/ ٣٤٣٦.

(٢) ما نقله ابن كثير عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة، رواها عنهم ابن جرير في تفسيره ٢٤/ ٤٤٣ وغيرُه.

نفسٍ لا تشبع، ومن دعوةٍ لا يُستجاب لها»، قال زيد: كان رسول الله ﷺ يُعلّمُناهُنَّ، ونحن نُعلِّمُكُموهُنّ)[١]. اهـ من تفسير ابن كثير ٤/ ٥١٧.

وإذا كان الطفل يولد بريئًا طاهرًا، على فطرة الله، فإنه إذا لم تُضِلَّه عواملُ خارجيةٌ يبقى سليمَ العقيدة، قويَّ الإيمان، روى الإمام مسلمٌ عن عِيَاضِ بن حِمارٍ المُجاشِعيّ رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال فيما يرويه عن ربه عز وجل: «..**وإني خلقتُ عبادي حنفاءَ كلَّهم، وإنهم أَتَتْهم الشياطين فاجْتالَتْهم عن دِينِهم، وحرَّمَتْ عليهم ما أحللتُ لهم، وأَمَرَتْهم أن يُشركوا بي ما لم أُنزِلْ به سلطانًا**».[٢]

يقول الإمام النووي رحمه الله في شرحه لهذا الحديث:

(«**حنفاءَ**» أي مسلمين، وقيل: طاهرين من المعاصي، وقيل: مستقيمين منيبين لِقَبول الهداية، وقيل: المرادُ حين أَخَذَ عليهم العهدَ في الذَّرّ وقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف ١٧٢]، وقولُه: «**فاجْتالَتْهم الشياطين**» أي استخفُّوهم، فذهبوا بهم، وأزالوهم عما كانوا عليه، وجالوا معهم في الباطل). اهـ من شرح مسلم ١٧/ ١٩٧.

وسواء كان هؤلاء الشياطين من شياطين الإنس أم الجن، فإن الحديث دلَّ على أن الطفل يُولد على الفطرة، ودلَّ على أن الأطفال خُلقوا حنفاء، وأن الشر يتسلل إليهم من خارجهم، وأن الأبوين هما أول من يتحمل

---

(١) صحيح مسلم (٢٧٢٢)، مسند أحمد (١٩٣٠٨)، وكلام زيد بن أرقَمَ رضي الله عنه في آخر الحديث، هو في مسند أحمد، وليس في صحيح مسلم.

(٢) صحيح مسلم (٢٨٦٥).

المسؤولية التربوية، وأنهما أولُ من تَقَرُّ بهم العيون إذا استقام بالأولاد فِكرٌ، وحالفهم التوفيق، وهما أول من يدفع الثمن غاليًا إذا زلَّت بهم قدم، وانحرف بهم سلوك.

لقد ثبت علميًّا أن لكلٍّ من الأب والأم تأثيرًا على الطفل حتى قبل ولادته، بل وهو في أولى مراحل التكوين في بطن أمه، لأنه جزءٌ منهما، يرث عنهما كل ما يتعمق في نفوسهما من أصول، ويأخذ منهما كل ما يثبت في حياتهما من حقائق، سواء كانت هذه المواريث تتعلق بالخَلْق أم بالخُلُق، بالصحة أم بالمرض، بالطول أم بالعرض، في الهداية أم في الانحراف، حتى في لون الحَدَقة، حتى في لون البشرة، حتى في الأشياء التي تُرى بالعين، والأشياء التي تغيب في أعماق النفس، كل هذه المواريث تمتزج بالخلية الأولى للإنسان منذ خلق الإنسان.. هذا القانون الذي يتباهى به العلم الحديثُ عرفه الإسلام قبل العلم الحديث بمئات السنين.

روى الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلًا أتى النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله، وُلد لي غلامٌ أسودُ! فقال: «**هل لك من إبل**»؟ قال: نعم. قال: «**ما ألوانُها**»؟ قال: حُمْر. قال: «**هل فيها من أَوْرَقَ**»؟ قال: نعم. قال: «**فأنّى ذلك**»؟ قال: لعله نَزَعَه عِرْقٌ. قال: «**فلعل ابنَك هذا نَزَعَه**»،[1] أي جَذَبَه أصلٌ من أصوله كان لونُه أسودَ، ومعنى هذا أن الرسول ﷺ يعرّفنا أن الوراثة حق، وأن الطفل قد يرث من أصوله البعيدة.

(١) صحيح البخاري (٥٣٠٥)، صحيح مسلم (١٥٠٠).

وإذا كان الإسلام يُقدر للوراثة قدرَها، ويعرّفنا سلبياتِها وإيجابياتها، فهو يبني عليها القاعدةَ العريضة للزواج، التي على أساسها تتكون الخلايا الصالحة والمجتمع الصالح، ويطالب كلًّا من الشاب والفتاة أن يختار أحدُهما الآخرَ على أساس الإسلام لا على أساس غيره، ولا على المظاهر المتقلبة.

فقال الرسول ﷺ للشباب: «**تُنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحَسَبِها، وجَمالها، ولدِينها، فاظفر بذات الدين، تَرِبَتْ يداك**» رواه البخاري.(١)

وقال ﷺ للأولياء: «**إذا خَطَبَ إليكم مَن تَرْضَوْنَ دِينَه وخُلُقَه فزَوِّجُوه، إلّا تفعلوا تكن فتنةٌ في الأرض وفساد عريض**» رواه الترمذي.(٢)

أي إن لم تُزوجوا الخاطب الذي تَرضَون خُلقه ودِينَه، ورَغِبتُم في مجرد المال الجالب للطغيان، الجارِّ للبغي والفساد، أو المراد: إن لم تُزوجوا مَن تَرضَون ذلك منه، ونَظَرتُم إلى ذي مالٍ أو جاهٍ، يَبْقَ أكثرُ النساء بلا زوجٍ، وأكثرُ الرجال بلا زوجةٍ، فيكثر الزنى، ويلحق العار، ويقع القتل، وتهيج الفتن، وتثور المحن.

والفتن تقوم أوّلَ ما تقوم على اختلاط الفكر، والفسادُ يقوم أولَ ما يقوم على اختلال التطبيق.

❊ ❊ ❊

(١) صحيح البخاري (٥٠٩٠)، صحيح مسلم (١٤٦٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) جامع الترمذي (١٠٨٤)، سنن ابن ماجه (١٨٥٩)، مستدرك الحاكم (٢٦٩٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه، وتعقبه الذهبي.
ورواه الترمذي وحسنه (١٠٨٥) عن أبي حاتِم المُزَني رضي الله عنه.

١١- سنن الإسلام للمولود

وإذا كان الإسلام حريصًا على أن يخرج الطفل إلى الوجود نقيًّا طاهرًا، وعلى الفطرة التي فَطَره الله عليها، وأن يتكّون من سلالاتٍ طاهرةٍ صالحة، رَضِيَتْ بالله ربًّا، وبالإسلام دِينًا، وبمحمدٍ ﷺ نبيًّا ورسولًا.. إذا كان الإسلام حريصًا على الطفل قبل ولادته، فهو بعد الولادة أشدُّ حرصًا على أصالته ونقاوته وصفائه، ومنذ تمام وضعه، ونزوله إلى هذه الدار.

من هذه السنن أن يُؤذِّن والدُ الطفل في أُذُنه اليمنى، ويُقيمَ الصلاةَ في أذنه اليسرى، ليكون أولَ ما يطرُقُ سمعَه اسمُ الله، فعن أبي رافعٍ رضي الله عنه قال: (رأيتُ النبي ﷺ أذَّن في أُذُن الحسن بن علي حين وَلَدتْه فاطمةُ بالصلاة) رواه أبو داود والترمذي وصححه،[1] وعن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه كان إذا ولد له مولود أخذه في خِرقة، فأذَّن في أذنه اليمنى، وأقام في اليسرى، وسماه.[2] المغني لابن قدامة ١١/ ١٢٥.

هذه أول كلمةٍ يسمعها قبل أن تختلط عليه الأصوات، وتتضارب في أذنه الكلمات، ويتسابق إلى سمعه أهل الأهواء، كلمة: الله أكبر، والشهادة لله بالوحدانية، والشهادة لمحمد بالرسالة، والدعوة إلى الهدى والفلاح.. هذه نقطة الضوء التي تتمركز في سمعه.. هذه نقطة الانطلاق إلى الحق

(١) سنن أبي داود (٥١٠٥)، جامع الترمذي (١٥١٤)، مسند أحمد (٢٣٨٦٩).
(٢) مصنف عبد الرزاق (٧٩٨٥).

التي تستقر في وجدانه.. هذه كلمة الإسلام التي تدخل من باب سمعه، فتسري في كل الخلايا والأعصاب، قبل أن تتسرب إلى الجسم الطاهر النظيف ما يحمله الفضاء من نُفاياتٍ، وكلماتٍ نابية، وألفاظٍ ملوثة، وعباراتٍ هزيلة سقيمة.

فإذا أتمَّ المولود سبعة أيامٍ كان للإسلام سُنّةٌ أخرى، فرحًا بقدومه، واحتفالًا بمولده، وإجراءً للخير على يده، بذبح شاةٍ أو شاتين للغلام، وشاةٍ للجارية.

صح عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «**عن الغلام شاتانِ مكافِئتان، وعن الجارية شاة**»،(١) كما صح عن رسول الله ﷺ قوله: «**كل غلامٍ رهينةٌ بعقيقته، تُذبحُ عنه يوم السابع، ويُحلق رأسه ويُسمَّى**». أخرجه الترمذي والنسائي،(٢) فتنشئته تنشئة صالحة، وحفظه حفظًا كاملًا مرهونٌ بالذبح عنه.

(وقال الإمام أحمد: معناه أنه محبوس الشفاعة في أبويه. والرهن في

---

(١) جامع الترمذي وصححه (١٥١٣)، سنن ابن ماجه (٣١٦٣)، مسند أحمد (٢٤٠٢٨).
ورواه أبو داود (٢٨٣٤)، والترمذي وصححه (١٥١٦)، والنسائي (٤٢١٥)، وابن ماجه (٣١٦٢)، وأحمد (٢٧١٣٩) عن أم كُرْزٍ الكَعْبية رضي الله عنها.
ورواه أبو داود (٢٨٤٢)، والنسائي (٤٢١٢)، وأحمد (٦٧١٣) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) سنن أبي داود (٢٨٣٧) (٢٨٣٨)، جامع الترمذي وصححه (١٥٢٢)، سنن النسائي (٤٢٢٠)، سنن ابن ماجه (٣١٦٥)، مسند أحمد (٢٠٠٨٣).

اللغة الحبس، وهذا يدل على أنها لازمةٌ لا بد منها، فشُبه لزومُها وعدم انفكاك المولود عنها بالرهن، ويَستدل بهذا مَن يرى وجوبَها، كالليث بن سعد، والحسن البصري، وأهل الظاهر، وهي سُنّةٌ مؤكدةٌ عند الجمهور، فَعَلها رسولُ الله ﷺ، وفعلها أصحابه).[1]

ودليل الجمهور حديث: «**من وُلد له ولدٌ فأحب أن يَنسُكَ عن ولده فليفعل**». أخرجه مالك،[2] وروى أصحاب السنن (أن النبي ﷺ عقَّ عن الحسن والحسين كبشًا كبشًا)،[3] وروى الترمذي من حديث علي رضي الله عنه قال: عقَّ رسول الله ﷺ عن الحسن بشاةٍ، وقال: «**يا فاطمة، احْلِقي رأسه، وتَصَدَّقِي بِزِنَةِ شعرِه فضةً**»، قال: فوَزَنَتْه فكان وزنُه درهمًا أو بعضَ درهم.[4]

هذه سنة من سنن الإسلام، تجمع بين الفرح والسرور، وبين الأكل والإطعام والصدقة. سنةٌ عمليةٌ نبويةٌ من سنن الإسلام، وشعيرةٌ من

---

(١) ما بين هلالين مقتبس بتصرف من زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم ٢/ ٢٩٧.

(٢) موطأ مالك (١٤٤١) عن رجل من بني ضَمْرةَ عن أبيه. ومن طريق مالك رواه أحمد في مسنده (٢٣١٣٤).
ورواه أبو داود (٢٨٤٢)، والنسائي (٤٢١٢)، وأحمد (٦٧١٣) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٣) رواه بهذا اللفظ أبو داود (٢٨٤١) عن ابن عباس رضي الله عنهما، لكن رواه النسائي (٤٢١٩) عن ابن عباس بلفظ: (كبشين كبشين)، ورجحه الحافظ ابن حجر في فتح الباري، عند شرح الحديث (٥٤٧١).

(٤) جامع الترمذي وحسنه (١٥١٩)، ورواه الحاكم في المستدرك وسكت عنه (٧٥٨٩) لكن سُمي المولود حسينًا.

شعائره، لا كهذه الطريقة التي يجري عليها البعيدون عن حقائق الإسلام ونوره، واللّاهون المقلدون للغير من لغو وصخبٍ، ولهوٍ ولعب، وغناءٍ ورقص، وكلامٍ لا معنى له ولا جدوى منه!

ومن العجب أن يَحرِصَ الناس على هذه البدعة، وأن يتوارثوها بجهلٍ، ويتحملوا في سبيلها ما لا يطيقون من تكاليف باهظة، ويَدْعوا إليها الصغارَ والكبار.. ومَن تَهاوَنَ في إحيائها اتهموه بالبخل والحرص.. ولو أنهم أنفقوا عُشر ما أنفقوه من زيناتٍ وحلوى واحتفالٍ فيما شرعه الإسلام، لكانوا قد أَحْيَوْا سُنّةً من سنن الإسلام، وشعيرةً من شعائره، ولكنها العادة التي تمسك برقابهم ولا يجدون منها فَكَاكًا!

ومن السنة أن يُختار للمولود اسمٌ حسن، لأن هذا الاسم سيلازمه طول حياته، ويرافقه في كل شؤونه، ويدلُّ عليه أينما ذهب وحيثما كان، وتتكون بينهما علاقةٌ كعلاقة اللحم والدم.

والاسم الحسن يُضفي على صاحبه راحةً نفسية، ويفتح له الطريق إلى طيب الحياة ورغد العيش، ويجعل له القَبول في الأرض.. يستبشر الناس بمقدمه، ويتفاءلون بسماع اسمه، بخلاف الاسم السيّئ، فإنه تنقبض له القلوب، وتتجهّم له الوجوه، ويتشاءم الناس بسماع اسمه، ويُضفي على صاحبه ظلًّا من الكآبة والبؤس..

ندب رسول الله ﷺ جماعةً إلى حلبِ شاة، قال: «**من يحلُبُ هذه**»؟ فقام رجل، فقال له النبي ﷺ: «**ما اسمُك**»؟ فقال له الرجل: مُرّة، فقال

له النبي ﷺ: «**اجلس**»، ثم قال: «**من يحلُبُ هذه**»؟ فقام رجل، فقال له النبي ﷺ: «**ما اسمُك**»؟ فقال: حَرْب، فقال له النبي ﷺ: «**اجلس**»، ثم قال: «**من يحلُبُ هذه**»؟ فقام رجل، فقال له النبي ﷺ: «**ما اسمُك**»؟ فقال: يَعِيش، فقال له النبي ﷺ: «**احلُبْ**».(١)

ولقد شكا رجلٌ إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه عقوقَ ابنه، فأَحضَر الابنَ وأَنَّبَه على عقوقه لأبيه، فقال الابن: يا أمير المؤمنين، أليس للولد حقٌّ على أبيه؟! قال: بلى! قال: فما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: أن ينتقيَ أمَّه، ويُحسنَ اسمَه، ويعلّمَه الكتاب، أي القرآن، فقال: يا أمير المؤمنين، إنه لم يفعل شيئًا من ذلك: أمّا أمّي فإنها زَنجيّة كانت لمجوسي، وقد سماني جُعَلًا،(٢) ولم يعلّمْني من الكتاب حرفًا واحدًا! فالتفت أمير المؤمنين إلى الرجل وقال له: أجئتَ إليّ تشكو عقوقَ ابنِك! وقد عَقَقْتَه قبل أن يَعُقَّك! وأسأتَ إليه قبل أن يُسيءَ إليك! هداية المرشدين ص ٣٤٠.(٣)

---

(١) موطأ مالك (٢٧٨٩) عن يحيى بن سعيد مرسلًا. قال ابن عبد البر رحمه الله في التمهيد ٢٤/ ٧١: (وهذا عندي - والله أعلم - ليس من باب الطِّيَرة، لأنه محال أن يَنهى عن شيء ويفعلَه! وإنما هو من باب طلبِ الفأل الحسن، وقد كان أخبرهم عن شر الأسماء أنه حرب ومُرّة، فأكد ذلك، حتى لا يتسمى بهما أحد، والله أعلم). اهـ.

(٢) **الجُعَلُ**: الرجلُ الأسودُ الدَّمِيم، أَو اللَّجُوج، قيل: هو الرَّقِيبُ، وكُلّ ذَلِك على التَّشْبِيه، الأصلُ فيه دُوَيْبَّةٌ سوداءُ، تكون في المواضع النَّدِيّة. جمعه: جِعْلانٌ. القاموس وشرحه تاج العروس (جعل).

(٣) هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة للشيخ علي محفوظ. والقصة عن عمر اشتَهَرت في كتب القُصاص، ولم يوجد لها إسناد! فلا تصح.

وكان رسول الله ﷺ يستحب الاسم الحسن، وثبت عنه أنه غيَّر اسمَ عاصيةَ وقال: «**أنتِ جميلةُ**». رواه مسلم،(١) وغيّر اسمَ حَزْنٍ جدِّ سعيدِ ابن المسيّب، وجعله سَهْلًا، رواه البخاري،(٢) وغيّر اسم العاصي وشيطانٍ والحَكَمِ وغُرابٍ، وسمَّى حربًا: سِلْمًا، وسمَّى المُضطَجِعَ: المُنْبَعِثَ، وأرضٌ تُسمى عَفِرةَ سمّاها خَضِرةَ، وشِعْبُ الضَّلالة سماه شِعبَ الهُدى.(٣)

قال الإمام ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللَّهُ في فقه هذا الباب: (لما كانت الأسماء قوالبَ للمعاني، ودالّةً عليها، اقتضت الحكمة أن يكون بينها وبينها ارتباطٌ وتناسُب، وألّا يكون المعنى معها بمنزلة الأجنبي المحْض الذي لا تعلق له بها، فإنّ حكمةَ الحكيم تأبى ذلك، والواقع يشهد بخلافه، بل للأسماء تأثيرٌ في المسمَّيات، وللمسميات تأثّرٌ عن أسمائها، في الحسْنِ والقبح، والخِفّة والثِّقَل، واللطافة والكثافة). اهـ.(٤)

وثبت عن الرسول ﷺ أنه قال: «**إن أحب أسمائكم إلى الله: عبد الله**

---

(١) صحيح مسلم (٢١٣٩)، سنن أبي داود (٤٩٥٢)، جامع الترمذي (٢٨٣٨) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) صحيح البخاري (٦١٩٠)، سنن أبي داود (٤٩٥٦)، من حديث سعيد بن المسيب، عن أبيه المسيب، عن جده حَزْن بن أبي وهب رضي الله عنهم.

(٣) هذه الأمثلة ذكرها الإمام أبو داود في سننه بعد الحديث (٤٩٥٦) وقال: تركتُ أسانيدَها للاختصار. اهـ.

(٤) زاد المعاد في هدي خير العباد ٢/ ٣٠٧.

وعبد الرحمن». أخرجه مسلم،[1] وفي رواية أبي داود: «**أحبُّ الأسماء إلى الله: عبدُ الله وعبدُ الرحمن، وأصدقها حارثٌ وهَمّام، وأقبحها حربٌ ومُرّة**».[2]

ويعلق ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ على ذلك فيقول: (ولما كان الاسم مقتضِيًا لمسماه ومؤثرًا فيه، كان أحبُّ الأسماء إلى الله ما اقتضَى أحبَّ الأوصاف إليه، كعبد الله وعبد الرحمن، وكانت إضافة العبودية إلى اسم الله واسم الرحمن أحبَّ إليه من إضافتها إلى غيرهما، كالقاهر والقادر، فعبد الرحمن أحبُّ إليه من عبد القادر، وعبد الله أحبُّ إليه من عبدِ رَبِّه، وهذا لأن التعلق الذي بين العبد وبين الله إنما هو العبودية المحضة، والتعلق الذي بين الله وبين العبد بالرحمة المحضة، فبرحمته كان وجودُه وكمالُ وجودِه، والغاية التي أوجده لأجلها أن يتألَّه له وحده، محبةً وخوفًا، ورجاءً وإجلالًا وتعظيمًا.. ثم قال: ولما غَلَبَتْ رحمتُه غضبَه، وكانت الرحمةُ أحبَّ إليه من الغضب، كان عبدُ الرحمن أحبَّ إليه من عبد القادر). زاد المعاد ٢/ ٣١٠.

❊ ❊ ❊

(١) صحيح مسلم (٢١٣٢) عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) سنن أبي داود (٤٩٥٠)، مسند أحمد (١٩٠٣٢) عن أبي وَهْبٍ الجُشَميّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١٢ - تأثير الأسماء على المسمَّيات

لو يعلم الآباء مدى تأثير الأسماء على مسمياتها، ومدى انعكاسها على أصحابها طولَ حياتهم، وما تُضفيه عليهم من سعادة أو شقاء، من يسر أو ضيق، من بشاشة أو همّ، لاتَّقَوُا اللهَ في اختيار أسماء أبنائهم، الذين سيدفعون الثمن وحدهم عن ذنبٍ لم يرتكبوه، وعن أسماءٍ لم يكن لهم في اختيارها يدٌ.

إن الأسماء الحسنة تمهد الطريق لأصحابها، وتفتح أمامَهم الأبواب المغلقة، وتيسر لهم الأمور العسيرة، ويتفاءل الناس بمَقدَمِهم، ويَبَشُّون في وجوههم، من أجل ذلك سيَظَلُّون طولَ حياتهم تلهج ألسنتهم بالثناء على آبائهم، ويترحمون عليهم، ويدعون لهم بالخير.

أما الأسماء القبيحة فإنها على العكس من ذلك تمامًا، تجعل الحياةَ مظلمة، والصدورَ منقبضة، ويشعرُ أصحابها بالخزي والكآبة، ويعدُّون أنفسهم في سجنٍ لم يكونوا سببًا في دخوله، ويعيشون في نكدٍ بسبب جناية الآباء والأمهات عليهم بأسماءٍ فرَضوها عليهم فرضًا، وسيظلون يَكْتَوُون بنارها مدى الحياة، ولا يجدون منها فَكَاكًا.

وماذا تقول في إنسان سماه أهله فأرًا! هل لهذا الفأر أن يعيش إلا في ذعرٍ وخوف؟! وفي إنسان سماه أهله شحاذًا خوف الحسد! هل لهذا الشحاذ أن يعيش إلا في ذلةٍ وهوان؟! وفي إنسان سماه أهله صِرصارًا حذرَ العين! هل لهذا الصرصار أن يعيش إلا في حياة الضَّعَة؟! وإلا على

فضلات العباد، ومستنقعات الحياة؟! أيُّ جهلٍ هذا الذي يدعو إلى اختيار أسماءٍ منفِّرة مقزِّزة، تثير في النفس الاشمئزاز والغثيان؟!

وأعجبُ من ذلك أن يسمِّيَ بعضُ الآباء أبناءَهم بأسماءِ أعداء الإنسانية، الذين جرُّوا عليها الخراب والدمار، وبأسماء أعداء الإسلام والمسلمين، الذين يحاربونه بكل سلاح، في السر والعلن، بالليل والنهار، وبأسماءِ مجرمي الحرب، الذين طغَوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد..

كيف ساغ لهم أن يخلّدوا أسماءهم، وكان من الواجب أن يُلغوهم؟! كيف جاز لهم أن يجدّدوا حياتَهم، وكان من الواجب عليهم أن يُهيلوا عليها التراب؟! وما الذي أغراهم بأسماءِ هؤلاء؟! هل أغراهم تاريخهم الذي يتفجرُ منه الدم! أم آثارُهم التي تبكي من الظلم! أم أخلاقهم التي كانت - ولا تزال - تصدر عن حقدٍ أسود؟!

وكذلك من العجب العجاب أن يسمِّيَ بعضُ الآباء أبناءَهم بأسماءِ الراقصين والراقصات، الذين اقتحموا علينا بيوتَنا، وخرّبوا علينا ديارَنا، وأسهموا إلى حد كبير في هزائمنا التي تُزكِمُ الأنوف، وخسائرِنا التي استَعصَى عليها الحل، وضَياعِ أبنائنا الذين هم أكبادُنا التي تمشي على الأرض، ويدَّعون أنهم يَحُلّون مشاكلَنا، وهم أساسُ هذه المشاكل! ويدَّعون أنهم يُصلحون، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون.. أَمِن المعقول أن يُصلح حالَ الأُسَر الذين فشلوا في إقامة أسر؟! وفشلوا في إقامة حياةٍ هادئةٍ وديعةٍ ومستقرة؟! أهؤلاء يستحقون أن نسمي أولادَنا بأسمائهم، ليَحْيَوْا حياتَهم، ويكونوا أمثالَهم؟!

إن أصحاب الدِّياناتِ المختلفةِ لهم أسماءٌ يَحرِصون عليها، ويتوارثونها، ويُعرفون بها، لا تكاد تسمع واحدًا من هذه الأسماء حتى تعرف دِينَه، فذِكرُ الاسم وحدَه يكفيك في معرفة عقيدته، فتعرف أن هذا يهوديٌّ أو نصرانيٌّ، وهكذا.

ولكل دولةٍ من الدول أسماءٌ تعارف أهلها عليها، واشتَهَروا بها، فلا تكاد تسمع اسمَ واحدٍ حتى تحكم عليه بأنه روسيٌّ أو صينيٌّ، أو هندي أو يوغسلافي أو يوناني، وهكذا.. أسماؤهم تدلُّ على دِياناتهم، وتدلُّ على جنسياتهم.. فلماذا لا نَحرِص على أسمائنا كما يحرِصون على أسمائهم؟! لماذا نقلدهم ولا يقلدوننا؟! لماذا نلجأُ إلى التبعية والتقليد بدون فهمٍ ولا وَعْي؟!

إن للإسلام شخصيتَه المستقلةَ، التي ترفض كلَّ ألوان التَّبَعية، وترفض كلَّ دخيلٍ عليها.. وإن لأمة الإسلام شخصيتَها التي ميزها الله بها عن سائر الأمم، والتي جعلها خير أمةٍ أُخرجت للناس، وجعل أهلها شهداء على الناس، وجعل لها القيادة الروحية، فغيرُها لها تبع..

فلماذا نُدخلُ في الإسلام ما ليس منه؟! لماذا ننحرف عن مساره الصحيح؟! لماذا نَعمل على تمييع ذاتِه، وتغييرِ قَسِمَاتِه؟! لماذا نَعمل على إذابته في معترك الحياة؟! فلا تدُلُّ أسماؤه على مسمَّياتِه! ولا تدلُّ ألفاظه على معانيه!

لقد قالوا قديمًا: إن الألفاظ قوالبُ للمعاني، وإنَّ بين اللفظ والمعنى صلةً مفهومة، فبالله عليك! إذا اخترت اسمًا من الأسماء الأجنبية، هل

تجد له في نفسك معنًى؟! كَلّا! انظرْ إلى لغتنا الجميلة، وانظرْ إلى العلاقة فيما بين الاسم والمعنى، فلا شكَّ أنك ستجد أن محمدًا من الحَمْد، وعليًّا من العُلُوّ، وهَمّامًا من الهِمّة، والحارثَ من الحَرْث، إلا فيما ندر من الأسماء التي قد يكون لها معنًى غائبٌ عنك.

ثم انظرْ إلى الترابط فيما بين الأسماء، وما تثيره غريزةُ تَدَاعي المعاني من ذِكْرَياتٍ وأمجاد، فإذا سمعتَ اسمَ محمدٍ، تتجلى في بصيرتك صورةُ الرجل الذي قاد الأمة، وكشف الغمة، وأدى الأمانة، وبلغ الرسالة، والذي أرسله الله رحمةً للعالمين.

وإذا سمعتَ اسمَ أبي بكرٍ، تمثلتْ أمامَك صورةُ الرجل الوديع الهادئ، صاحبِ رسول الله ﷺ في الغار، وخليفتِه مِن بعدِه، ورفيقِه في الجهاد، الذي قال عنه المصطفى صلوات الله عليه: «**لو كنتُ متَّخِذًا خليلًا غيرَ ربي، لاتَّخَذْتُ أبا بكر**» رواه البخاري.(١)

وإذا سمعتَ اسمَ عمرَ، تذكَّرتَ الرجلَ الذي أعز الله به الإسلامَ، وفَتح به الفُتوحَ، ومصَّر به الأمصار، والذي قال فيه النبي ﷺ: «**والذي نفسي بيده! ما لَقِيَك الشيطانُ سالكًا فَجًّا، إلا سَلك فَجًّا غيرَ فَجِّك**» رواه البخاري.(٢)

---

(١) صحيح البخاري (٣٦٥٤) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.
ورواه البخاري (٤٦٦)، ومسلم (٢٣٨٢) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
ورواه البخاري (٣٦٥٨) عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما.
ورواه مسلم (٥٣٢) عن جُنْدُبِ بن عبد الله البَجَلي رضي الله عنه.
ومسلم (٢٣٨٣) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) صحيح البخاري (٣٢٩٤)، صحيح مسلم (٢٣٩٦) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

وإذا سمعتَ اسمَ عثمانَ، تراءَتْ أمامَك صورةُ الشيخ الكبير، ذي النورين، الذي أنفَق على جيش العُسرة، واشترى بئرَ رُومةَ،(١) والذي قال فيه النبي ﷺ: «**ألا أستَحْيي من رجل تستَحْيي منه الملائكة**»!(٢)

وإذا سمعتَ اسمَ عليٍّ، تجلّتْ أمامَك صورةُ ابنِ عمِّ رسول الله ﷺ، أول من أسلم،(٣) ومن نام على فراشه ليلةَ الهجرة،(٤) وأول من بارز يوم بدر،(٥) والذي أعطاه الرسول ﷺ الرايةَ يوم خيبر، ففتح الله على

---

(١) شراء عثمان رضي الله عنه بئرَ رومة، وإنفاقُه على جيش العُسرة، أي في غزوة تبوك، رواه البخاري (٢٧٧٨) مطولًا عن عثمان بن عفان نفسِه رضي الله عنه.

(٢) صحيح مسلم (٢٤٠١) عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) قال ابن الصلاح في معرفة أنواع علم الحديث في النوع ٣٩، معرفة الصحابة ص٢٩٩ بتصرف: اختَلف السلف في أولهم إسلامًا، فقيل: أبو بكر الصديق، وقيل: عليّ، وقيل: زيد ابن حارثة، وقيل: أول خديجة أم المؤمنين، وادعى الثعلبي المفسر اتفاقَ العلماء على أن أول من أسلم خديجة، وأن اختلافهم إنما هو في أول من أسلم بعدها. والأورع أن يقال: أول من أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر، ومن الصبيان أو الأحداث علي، ومن النساء خديجة، ومن الموالي زيد بن حارثة، ومن العبيد بلال، والله أعلم. اهـ.

(٤) قصة مبيت علي رضي الله عنه في فراش رسول الله ﷺ: رواها عبد الرزاق في المصنف ٥/ ٣٩٠ ضمن (٩٧٤٣)، ومن طريقه أحمد (٣٢٥١)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار ١٥/ ٥ (٥٨٠٦)، وفي سنده راو ضعيف، انظر تحقيق مسند أحمد.

ورواها ابن إسحاق في السيرة، كما في سيرة ابن هشام ١/ ٤٨٣ عن محمد بن كعب القرظي مرسلًا، ومن طريقه ابن جرير الطبري في تاريخه ٢/ ٣٧٣، وأبو نعيم الأصبهاني في دلائل النبوة ص٢٠٣ (١٥٤).

(٥) نعم هو أول من بارز يوم بدر لكن مشاركةً مع حمزة بن عبد المطلب وعُبيدة بن الحارث رضي الله عنهم. روى البخاري (٣٩٦٩) ومسلم في آخر حديث من صحيحه (٣٠٣٣) عن قيس بن عُبَادٍ قال: سمعت أبا ذر رضي الله عنه يُقْسم قَسَمًا: إن هذه الآية: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ نزلت في الذين برزوا يوم بدر: حمزةَ وعليٍّ وعُبيدةَ بن الحارث، وعتبةَ وشيبةَ ابنَي ربيعةَ والوليدِ بن عتبة. اهـ. =

يديه،[1] والذي قال الرسول ﷺ له: «**ألا تَرْضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه ليس نبيٌّ بعدي**».[2]

وإذا ذكرتَ اسمَ سَعْدٍ، تذكرت سعدَ بن أبي وقاص رضي الله عنه وفتوحَ فارس، وإذا سمعتَ اسم أبي عُبيدة، تذكرتَ فتوحَ الشام، وإذا سمعتَ اسم خالدٍ، تراءى لك البطلُ الذي لم يُهزَم، سيفٌ من سيوف الله، وهكذا وهكذا.. أسماءٌ لها تاريخ، وأبطالٌ دوّخوا العالم، ورجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه.[3]

أنترُكُ أسماءَ هؤلاء، ونختار أسماءً أجنبية، يُضمر أصحابُها لنا العِداء! ويُعلنون علينا الحرب، ويُصدّرون لنا الشر! وينشرون في صفوفنا الرعب، ويسرقون منا الأوطان! يتقاطر الدم من أسمائهم! وتتطاير لحوم أبنائنا من أفواههم.. وهل نذكُرُ إذا ذكرناهم إلا أوطانَنا المغصوبة، وأموالَنا المنهوبة، وديارَنا المهدَّمة، وأطفالَنا اليتامى، ونساءَنا الثَّكالَى؟!

ألا ما أعظمَ الإسلام! وما أجملَ أسماءَه! وما أجلَّ مقاصدَه وأهدافَه! والله المعين.

❊ ❊ ❊

= **فائدة**: عُبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف رضي الله عنه قرشي مطّلبي، فجدُّه المطلب، وليس عبدَ المطلب. ويتوهّم بعضهم أنه ابن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم، وأنه هاشميّ، وليس كذلك.

(١) صحيح البخاري (٢٩٤٢)، صحيح مسلم (٢٤٠٦) عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنهما.

(٢) صحيح البخاري (٤٤١٦)، صحيح مسلم (٢٤٠٤) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٣) وكذا يقال في أسماء الإناث، مثل اسم خديجة وفاطمة وعائشة وحفصة وغيرها.

١٣ - ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ﴾

بعد ولادة الطفل يبدأُ دور الأم في التربية بارزًا ومُهِمًّا وخطيرًا، لا يصلُح فيه غيرُها، فالطفلُ قطعةٌ منها، وهو في جوفها دمُه من دمها، ولحمُه من لحمها، وحياتُه من حياتها، فإذا نزل إلى الوجود اشتد ارتباطُه بها، والْتِصاقُه بصدرها، وحاجته إليها..

انظر إلى قدرة الله سبحانه حين انفصل عنها، وضاق به المكان الذي يُؤوِيه، وانقطع عنه الرزق الذي كان يَكفِيه، ونزل وحيدًا إلى عالَمٍ واسعِ الأرجاء، ليس له يدٌ يَبطِشُ بها، ولا سِنٌّ يقطَعُ بها، ولا قوةٌ تحميه وتدافع عنه، فإذا بالمولى سبحانه وتعالى يُفجّر له ينابيعَ في صدر أمه، تُدِرُّ عليه لبنًا سائغًا، فيه كل عناصر الحياة..

أين كان هذا اللبن قبل ذلك؟! وكيف جاء في موعده لم يتقدم ولم يتأخر؟! وكيف يتقاطر سهلًا طيبًا لذيذًا مُعقَّمًا؟! تزداد كثافته يومًا بعد يوم حسبما تقتضيه مصلحة الطفل وسِنُّه؟! أين هذا المعمل الذي يعمل وحده بدقةٍ وأمانة؟! من الذي فجّر الينابيع في صدر الأم؟! إنه الله.. الذي أنزل من السماء ماءً فسلكه ينابيعَ في الأرض، الذي تكفّل برزق عباده.. الذي يرزق الطير في الهواء، والسمكَ في الماء، والطفلَ وهو في بطن أمه.

والإسلام يأمر الأمهات بإرضاع أطفالهن ولو كنّ مطلّقات، قال تعالى: ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، فالآية وإن كانت خَبَريةَ اللفظِ إلا أنها إنشائيةُ

المعنى، فمطلوب من الأم أن تُرضع ولدَها، لأن لبنَها أفضلُ، وهو الذي يلائمُه، ولا يُخشى على الولد منه من علةٍ بدنيةٍ أو خُلُقية، وهو ينمو به اللحم، وينشُزُ به العظم..

ولذلك كان للرَّضاع حُكمٌ خاص في الشريعة الإسلامية، قال تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ [النساء ٢٣]، ويقول الرسول ﷺ: «**يحرُمُ من الرَّضاع ما يحرم من النسب**» متفق عليه،(١) وكان تأثيرُه في الحولَيْن الأوّلَيْن أقوى وآكَدَ، ويقوم عليه التحريم عند الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره، وهو قول عليّ وابن مسعود وابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم.

وقد رُوي عن الرسول ﷺ أنه قال: «**لا رَضاع إلا ما كان في الحولين**» رواه الدارقطني وابن عدي،(٢) وروى الترمذي عن أم سلمة رضي الله عنها

---

(١) رواه البخاري (٢٦٤٥)، ومسلم (١٤٤٧) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.
ورواه البخاري (٥٢٣٩)، ومسلم (١٤٤٤) (١٤٤٥) عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) سنن الدارقطني ٤/ ١٧٤، الكامل لابن عدي ٨/ ٣٩٩، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وصححه ابن القيم في زاد المعاد ٥/ ٥٥٤، وجود إسناده زين الدين العراقي في تقريب الأسانيد.
لكن رجّح أكثر الحفاظ أنه موقوف، ومنهم الدارقطني، وابن عدي، والبيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٤٦٢، والحافظ ابن حجر في فتح الباري في باب من قال: لا رضاع بعد حولين، قبل شرح الحديث (٥١٠٣).
وممن رواه موقوفًا: عبد الرزاق في المصنف (١٣٩٠٣)، وابن أبي شيبة في المصنف (١٧٣٣٤)، وسعيد بن منصور في السنن (٩٨٠).
وروي موقوفًا من كلام عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، رواه ابن أبي شيبة في المصنف (١٧٣٣١) (١٧٣٣٢)، وسعيد بن منصور في السنن (٩٧٤).

قالت: قال رسول الله ﷺ: «**لا يُحرِّمُ من الرَّضاعة إلا ما فَتَقَ الأمعاءَ في الثدي وكان قبلَ الفِطام**».(١) والفِطام يكون في تمام الحولين، كما في قوله تعالى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان ١٤].

قال الإمام فخر الدين الرازيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ حول تفسير آية الرَّضاع: (كما وصّى الأمَّ برعاية جانب الطفل في قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ [البقرة ٢٣٣]، وصّى الأبَ برعاية جانب الأم، حتى تكون قادرة على رعاية مصلحة الطفل، فأمره برزقها وكسوتها بالمعروف، فقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة ٢٣٣].

فوصّى الأمَّ برعاية الطفل أولًا، ثم وصّى الأبَ برعايته ثانيًا، وهذا يدلُّ على أن احتياجَ الطفل إلى رعاية الأم أشدُّ من احتياجِه إلى رعاية الأب، لأنه ليس بين الطفل وبين رعاية الأم واسطةٌ البتةَ، أمّا رعاية الأب فإنما تصل إلى الطفل بواسطة، فإنه يستأجر المرأة على إرضاعه وحضانته بالنفقة والكِسْوة، وهذا يدلُّ على أن حقَّ الأم أكثر من حق الأب، والأخبارُ المطابقةُ لهذا المعنى كثيرةٌ مشهورةٌ). اهـ مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٦/ ١٢٨.

والطفل وهو على صدر أمِّه يجدُ من السعادة ما لا يجدُه في غيرها، فهو في حِضن أمه لا يرضع اللبنَ فحسبُ، وإنما يرضع معه الحنانَ والحب، والأمنَ والراحة، والدفءَ والحرارة، والصحةَ والعافية، وهل تتوفر هذه المعاني إلا في الأم! الأم التي لا تنام إلا إذا نام، ولا تجدُ لذةَ الطعام إلا إذا شَبِع، ولا تعرف معنى الراحة طولَ حياتها لتقوم بخدمته.. الأم التي تُعطيه

(١) جامع الترمذي وصححه (١١٥٢)، صحيح ابن حبان (٤٢٢٤).

من جسمها ليشتد، ومن عمرها ليزيد، ومن نور عينيْها ليسعَد.. الأم التي تُعطيه الحب الخالص الذي لا يعرف النفاق، والحنانَ الكامل البعيدَ عن الزيف، والرحمةَ التي تنبع من قلبها.

والطفل يدرك كلَّ هذه المعاني بفطرته، وبحكم كونه جزءًا من أمه، والبعض يحنُّ إلى بعضه، لذلك لا يثقُ إلا بها، فهي دنياهُ وجنتُه، إذا غابتْ ظل يبكي حتى تعود، وهي أيضًا تظلُّ متلهفةً عليه حتى تراه، مكانُها لا يملؤه أحد، وهو أيضا قلبُها الذي يخفق.

لقد أراد رسول الله ﷺ أن يُجسد لنا رحمةَ الله - ولله المثل الأعلى - وأن يقرّب هذا المعنى إلى نفوسنا، ويُصوّرَ هذه الرحمة بصورة الأمر المحسوس الذي تقع عيونُنا عليه كلَّ يوم، فبماذا شبّه هذه الرحمة؟ شبّهها برحمة الأم بولدها..

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قَدِمَ على رسول الله ﷺ سَبْيٌ، فإذا امرأةٌ من السبي قد تَحلَّبَ ثديُها تسعَى، إذا وجدَتْ صبيًّا في السَّبْيِ أخذَتْه [فأرضَعَتْه، فوجدَتْ صبيًّا] فألصَقَتْه ببطنها وأرضَعَتْه، فقال لنا رسول الله ﷺ: «**أتُرَوْنَ هذه المرأةَ طارحةً ولدَها في النار**»؟ قلنا: لا وَاللهِ وهي تقدرُ على ألّا تطرحه، فقال رسول الله ﷺ: «**للهُ أرحمُ بعباده من هذه بولدها**» [مختصر مسلم ص٥١٢].(١)

(١) صحيح البخاري (٥٩٩٩)، صحيح مسلم (٢٧٥٤)، وما بين معقوفين إضافةٌ لازمةٌ، من سياق رواية الإسماعيلي في مستخرجه على صحيح البخاري، أوردها الحافظ ابن حجر في فتح الباري.

هذه الحادثة التي لَفَتَتْ نظرَ النبي ﷺ ونظرَ أصحابه، واسترعَتِ اهتمامَهم، جعل منها الرسول ﷺ درسًا يُضيءُ جوانبَ المؤمنين بنور الله ورحمة الله، وأنه سبحانه أرحم بعباده من الوالدة بولدها، ولا شك أن هذا المشهد قد أثار في نفوس المشاهدين معانيَ الشفقة والرقة على أمٍّ تبحثُ عن كبدِها وقرة عينها.

كم يذكّرني هذا الحديثُ بهاجَرَ أمِّ إسماعيل ث، بعد أن أسكنها الخليلُ إبراهيم عليه السلام بوادٍ غيرِ ذي زَرْع، في أرضٍ لا تُنبتُ الزَّرْع، ولا تُدِرُّ الضَّرْع، كيف تعيش؟ وكيف يعيش؟ فأخذتْ تجري وتبحثُ، وتَكُدُّ وتتعب، بين الصخور الصُّمِّ، بين الصفا والمروة، فلما أعياها السعيُ، وأضناها الجهدُ، زاد إيمانها بالله، ويقينُها به، في أنه لن يُضِيعَها، كما قالت لإبراهيم عليه السلام.(١) فإذا بالصخور تتحرك، ويأتيها المخاضُ بعينٍ ثَرّةٍ، لا يَنضُبُ لها ماء، إلى أن يشاء الله.. رحمةً بإسماعيل، وأم إسماعيل، ورحمةً بأمةِ محمدٍ ﷺ، الذي هو من نسلِ إسماعيل.. رحمةً من الله، الذي هو أرحمُ بعباده من الوالدة بولدها..

وصدق الله العظيم: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة].

❋ ❋ ❋

(١) قصة هاجَرَ وإسماعيل وإبراهيم عليهم السلام، رواها البخاري (٣٣٦٤) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

١٤ - الرَّضاعة الطبيعية

إن الطفل منذ ولادته أمانةٌ في عنقِ أمه، ودورُها في هذه المرحلة أكبر من دورِ الأب، فهي وحدها مُطالبةٌ بحفظه ورعايته، ونموه وسلامته، ورَضاعته ونظافته.. مطالبةٌ بألّا تَغفُلَ عنه لحظة، ولا تنام عينُها عنه لحظة.. تضمُّه إلى صدرها، وتُدفئه بحنانها، وتداعبه بأناملها، وتجعله كلَّ همها، تعرف وقت طعامه ومنامه، وسبب بكائه وآلامه، إذا بكى أظلمت الحياةُ في وجهها، وإذا ضحك أحسّتْ بأن الدنيا كلَّها في قبضتها.

هذه هي الأم، وهذه رسالتها، بل هذه طبيعتها، طبيعة كل أنثى، رغم آلام الحمل والولادة تظلُّ في حنينٍ إلى الولد، فإذا جاء الولد أحسّتْ بالسعادة تحُفُّ بها من كل جانب، لأن الولد نعمةٌ من الله عز وجل، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ [النحل ٧٢]، لو لم يَضَعِ الله هذه الغريزة في الأنثى من كان يُطيق أن يقوم بهذه المهمة الصعبة نحو الطفل؟!

أرأيتَ إلى الطائر الصغير حين يخرجُ من البيضةِ عاريًا هزيلًا فاقدَ التوازن، فإذا في انتظارِه أمٌّ، تحمله وتنظّفه، وتذودُ عنه وتحمِيه، تغدو خِماصًا وتروحُ بِطانًا، تسقيه وتطعمه بمنقارها، وتعلّمُه الطيران، وتقومُ على أمرِه، حتى يستغنيَ عنها ويستقلّ.

ولا يَعِيبُ الأمَّ مهما تعلّمتْ ووُظِّفت وارتَقتْ إلى أعلى المناصب، أن تكون كأمِّ هذا الطائر، تقومُ بنفسها على احتياجاتِ أطفالِها، بل ذلك

يُشرّفُها ويُنصفها، ويُشبعُ غريزتَها، ويحقق أملها، لأن الأولاد نعمة، لأنهم قطعةٌ منها، لأنهم زينةُ الحياة الدنيا.

من أجل هذا كان من حق الطفل على أمه أن ترضعه رَضاعةً طبيعيةً، لا أن تَضَنَّ عليه برزقه، فتَعمِدَ إلى تجفيفِ الينابيع التي خلقها الله من أجله.. فلقد أجمع العلماءُ والأطباءُ على أن لبن الأم لا يعادله شيء، سواءٌ في قيمته الغذائية أم في آثاره النفسية على الأم والطفل معًا، مما يعمّق فيهما معانيَ الولاء والحب، ويؤكدُ وشيجة اللحم والدم، وينمّي فروضَ المودة والقربى.

ومهما اخترع الإنسانُ من موادَّ غذائيةٍ للطفل وغيرِه، فلا يمكن أن يكونَ خَلْقُه كخلق الله، ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة ٧]. ومهما تنافست شركاتٌ، وانطلقت دعاياتٌ، فإن الدوافع الأساسية لا تخلو من خُبث، ولو أحسَنَّا الظنَّ لا تخلو من نقصٍ، ولا تُريدُ من وراء ذلك إلا الرِّبحَ المادّيَّ، سواءٌ كان في ذلك سعادةُ الإنسان أم تعاستُه، صحتُه أم مرضُه، حياتُه أم موتُه.

من هنا خدعوا الأمَّ وقالوا لها: حافظي على رَشاقتِك، حافظي على قَوامِك، حافظي على صحتِك، نحن في خدمتك، نقوم بدلًا عنك في إعداد الوَجَباتِ في ثوان.. وصدّقت المرأةُ كلَّ هذه الدعايات، حتى جفَّ صدرُها من اللبن، وخلا قلبُها من الرحمة، وبَعُدَت الشُّقّةُ بينها وبين أولادها، وعمّ العقوق، وانتشرت الأمراض الخبيثة، والعياذ بالله!

ولا شك أن منزلة الطعام من البدن كمنزلة الأساس من البنيان،

فإذا ثبت الأساس وقَوِيَ، استقام البنيان وارتفع، وإذا ضَعُفَ الأساس واعوجَّ، انهار البنيانُ ووقع، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة].

وإذا كان للطعام هذه المنزلةُ من الجسد، وأنه أساس بنيانه، وكان اللَّبَنُ هو الطعامَ الوحيدَ للطفل، وأنه هو الذي يُنشِزُ العظمَ، ويُنبِتُ اللحم، كان من الواجب أن يكون لَبَنًا خالصًا سائغًا للشاربين، هنيئًا لذيذًا لا يَغَصُّ به شاربُه، وأن يكون طاهرًا نظيفًا مُعقّمًا، يحمل جميع العناصر اللازمة للجسم، ولا تتوفر هذه الشروط كلُّها إلا في لبن الأم، لأنه من صنع الله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، وقدَّر له منذ الأزل رزقه وأجله، وشقيٌّ أو سعيد.

وإذا كان هذا اللَّبَنُ ثمرةً من ثمرات الطعام، وجب أن يَحرِصَ الآباء والأمهات على أن يكون طعامُهم حلالًا، لأن الحرام لا خير فيه، ولا يدْخُلُ في شيء إلا أفسَدَه.. يُفسدُ العقلَ والقلبَ والدِّين، وبالحرام تُظلِمُ النفسُ، ويقسُو القلب، وتفْسُدُ العبادة، ورسول الله ﷺ يقول: «**إنّ الله طَيِّبٌ لا يَقبَلُ إلا طَيِّبًا**» رواه مسلم.(١) ويقول ﷺ: «**لا يدخُل الجنةَ لحمٌ نَبَتَ من سُحْتٍ، النار أولى به**». رواه أحمد.(٢)

---

(١) صحيح مسلم (١٠١٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) مسند أحمد (١٤٤٤١)، ابن حبان (١٧٢٣)، مستدرك الحاكم وصححه (٧١٦٣) (٨٣٠٢) عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما.
ورواه الترمذي وحسنه (٦١٤) عن كعب بن عُجرة رضي الله عنه.

من هنا كان على الآباء والأمهات أن يتورعوا، لا عن الحرام فحسبُ، ولكن عما فيه شبهة، حرصًا على أنفسهم وعلى أولادهم، وإرضاءً للدِّين والعِرْض، ورحمةً بجِيلٍ نرجو له العفوَ والعافية في الدنيا والآخرة، «**فمن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حولَ الحِمَى يُوشك أن يَرْتَعَ فيه، ألا وإنّ لكل مَلِكٍ حِمًى، ألا وإنّ حِمَى الله في أرضه محارمُه**».(١)

ذكر ابنُ خَلِّكان رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه وَفَيَاتِ الأَعْيان ٣/ ١٦٩ أن الشيخ أبا محمدٍ الجُوَينيّ رَحِمَهُ اللَّهُ كان في أول أمره يَنْسَخُ بالأُجرة، فاجتمع له من كسب يده شيءٌ اشترى به جاريةً موصوفةً بالخير والصلاح، ولم يزلْ يُطعمها من كسب يده إلى أن حملتْ بولده - الذي صار فيما بعد إمامَ الحَرَمَيْن -، وهو مستمِرٌّ على تربيتها بكسب الحلال.

فلما وَضَعَتْه أوصاها ألّا تُمكِّنَ أحدًا من إرضاعه، فاتفق أنه دخل عليها يومًا وهي متألمةٌ والصغير يبكي، وقد أخذتْه امرأةٌ من جيرانها، وشاغَلَتْه بثديها، فرَضِعَ منها قليلًا، فلما رآه والدُه شقَّ عليه، وأخذه إليه، ونكَّس رأسه، ومسح على بطنه، وأدخل إِصْبَعَه في فيه، ولم يزل يفعل به ذلك حتى قاء جميع ما شربه، وهو يقول: يسهُلُ عليَّ أن يموتَ ولا يَفْسُدُ طبعُه بشربِ لبنِ غيرِ أمِّه.

هذا رجلٌ لم يأكل إلا من عمل يده، من كسبٍ طيب، واشترى جاريةً من عمل يده، ولما وَلَدت جاريتُه أمَرَها أن تُرضعه من عمل يده، ثم حدث

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) عن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ما حدث من قيام جارةٍ لها بإرضاع طفله في حالةٍ من حالات الضرورة، ومن يدري فربما كانت هي الأخرى تتحرى الحلال، ثم ماذا؟

قُدر لهذا الطفل أن يكبَرَ، ويترعرع في ظل هذه التربية، في ظل هذا الورع، قُدّر له أن يكبَرَ ويتعلمَ ويتدرَّجَ في مراحل العلم حتى صار شيخًا يُشار إليه بالبنان، ويَجلِس العلماء إليه في عصره ليأخذوا عنه، وارتفع شأنه حتى لُقِّب إمامَ الحرمين.

وكلُّ إنسان يُخطئ ويصيب، وكلُّ إنسان يعتريه النسيان والخطأ، ولو كان أعلمَ الناس، ولا عاصم من ذلك إلا الله، ولكن انظروا إلى ما قاله ابن خلكان عن إمام الحرمين: أنه كانت تلحقه بعضَ الأحيان فَتْرةٌ في مجلس المناظرة، أي فَتْرةُ ضعفٍ أو نسيان، فيقول: هذا من بقايا تلك الرضعة! اهـ من وَفَيَات الأعيان.

فلم ينسُبْ إمام الحرمين الخطأَ إلى طبيعة الإنسان وتكوينه، وإنما إلى هذه الرَّضْعة التي خلا جسمه منها تمامًا!

❊ ❊ ❊

١٥ - الصفحة البيضاء

ما أسعدَ الوالدَينِ وهما يسمعان أولَ كلمةٍ ينطق بها طفلهما، إنها كلمةٌ تُدخل في نفوسهما البهجة والسرور، ويَشعُرانِ كأن السعادة ترفرف عليهما من كل جانبٍ، ومن هذه النقطة ينطلقان في تعليمه اللغة حرفًا حرفًا، وكلمةً كلمة، وكلما تقدم شيئًا فشيئًا شجعهما ذلك على تعليمه الأسماء كلها، وتعريفِه بالأقارب والمحبين، وبالمشاهد التي تحيط به..

ولا شكَّ أن الطفل في هذه المرحلة في شوقٍ إلى أن يعرف ويتعلم ويُبديَ مهارته، التي تنعكس على وجوههم بِشرًا وبشاشة، والطفل في هذا الوقت كالصفحة البيضاء التي تَقْبل كلَّ ما يُكتبُ فيها، ويظلُّ يحتفظ به أمدًا بعيدًا.. ومن هذه اللحظة تبدأ مسؤوليةٌ أخرى تُضافُ إلى مسؤوليات الأب والأم أولًا، وإلى بقية الأسرة ثانيًا.

وما دمنا في مجال التربية التي ينبغي أن ينشأُ الشابُّ عليها، في عبادة ربه، كان علينا أن نتوخَّى الكلمات التي تضيء جوانب هذه الصفحة، والتي تعين على الوصول إلى هذه الغاية، والتي تُوصله إلى ظل عرش الله يوم لا ظل إلا ظله.

بعض المسلمين من بني جلدتنا! الذين لا يعرفون إلا لغتنا! يحلو لهم أن يُجنِّبوا الطفل اللغةَ العربية، لغةَ القرآن! ويحلو لهم أن يعلّموه الفرنسية أو الإنجليزية يرطُنُ بها، وينحرفُ لسانُه إليها حين لا يعرف من العربية حرفًا واحدًا! ويَنشُدون من وراء ذلك الفخرَ والذكر! مع أن هذه كارثةٌ

يتلظى بها أحفادنا في الخارج، الذين أصبحوا لا يعرفون عن الإسلام شيئًا!

ماذا علينا لو عاش الطفلُ في بيتٍ إسلاميّ لا يَرى ولا يسمع إلا ما يُرضي الله ورسوله، وما ينير قلبه بالخير والهداية؟!

ماذا على الأم لو علمته أولًا **اسمَ الله؟! لفظَ الجلالة الذي لم يُسمَّ** به غيره، والذي لا تسكُنُ العقول إلا إلى ذكره، ولا تفرح الأرواحُ إلا بمعرفته، الذي له الكمال المطلق دون غيره، قال تعالى: ﴿**أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ [الرعد].

ماذا على الأم لو علمته أولًا كيف ينطق اسمَ الله؟! ليكون أول كلمةٍ تُشرقُ في قلبه؟! فالله هو الأول الذي ليس قبله شيء، فيجب أن يكون الأولَ في حياة كل حي، واسمُه أولَ كلمةٍ تُطبع على هذه الصفحة البيضاء..

ماذا عليها بعد ذلك لو علمته **اسمَ رسول الله** ﷺ: **محمد؟!** الذي منَّ الله به على المؤمنين، يتلُو عليهم آياتِه ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة..

ماذا عليها لو علمته **اسم الكتاب الذي أُنزلَ على رسوله** نورًا وهدًى وذكرى للمؤمنين؟! هذه كلمات ثلاث (الله، ثم محمد، ثم الكتاب)، لا يستقيم الإيمان إلا بها، ولا يقوم الإسلام إلا عليها.

فإذا استوعب الطفل الكلمات انتقلنا إلى الجمل: (باسم الله، سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله)،

جملٌ صغيرةٌ، ولكنها تعمّق جذور الإيمان في الأرض الخِصبة، وهل هناك أخصب من قلب الطفل؟! فَبِاسمِ الله نبدأُ كلَّ شيء.. والحمد لله ننطق بها بعد كل نعمة، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل ٥٣].. وسبحان الله ننزهُه بها عن كل شريك.. ولا حول ولا قوة إلا بالله نتبرّأُ بها من قوتنا إلى قوته، ومن حَوْلنا إلى حوله.

والرسول ﷺ يقول: «**كلمتانِ خفيفتان على اللسان، ثقيلتانِ في الميزان، حبيبتانِ إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**» رواه البخاري[١]

فإذا استقام لسانه، وكَمَلَتْ حروفه، فلْتعلّمْه قِصارَ السور، لِتعلِّمْه ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، هذه السورة التي قال عنها سيد الخلق ﷺ: «**والذي نفسي بيده! إنها لَتَعْدِلُ ثُلُثَ القرآن**»،[٢] نعم، لأنها تضمنتْ توجيهَ الاعتقاد، وصدقَ المعرفة، وما يجب إثباتُه لله، من الأَحَديّة المنافيةِ لمطلق الشرك، والصَّمَديّة المثبِتة له جميعَ صفات الكمال، ونفيِ الولد والوالد المُقرِّرِ لكمال المعنى، ونفيِ الكُفْءِ المتضمِّنِ لنفي الشبيه والنظير، وهذه مجامع التوحيد، بهذا كانت هذه السورة تعدل ثلث القرآن، ومن العلماء من جعل المثلية في تحقيق الثواب، وهو رأيٌ ضعيف.

لِتُعلِّمْه المعوِّذات، تقول عائشة رضي الله عنها: (إن رسول الله ﷺ كان إذا

---

(١) صحيح البخاري (٦٤٠٦) (٦٦٨٢) (٧٥٦٣)، صحيح مسلم (٢٦٩٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح البخاري (٥٠١٣) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

اشتكى يقرأُ على نفسه بالمعوِّذاتِ وينفُثُ، فلما اشتدّ وَجَعُه كنتُ أقرأُ عليه وأمسحُ بيده رجاء بركتها).[١]

وعنها رضي الله عنها (أنَّ النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كلَّ ليلة جمع كفيه، ثم نَفَثَ فيهما، فقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ثم يمسحُ بهما ما استطاع من جسده، يبدأُ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبَلَ من جسدِه، يفعلُ ذلك ثلاث مرات) رواه البخاري.[٢]

نفعل ذلك أمام الطفل وهو يسمع ويحفظ ويقلد، ويتربى في ظل كتاب الله وسنةِ رسولِه ﷺ.

لِتُعلِّمْه فاتحةَ الكتاب التي قال فيها رسول الله ﷺ لأبي سعيد بن المُعلَّى رضي الله عنه: «**لأُعلّمنَّك سورةً هي أعظمُ سورةٍ في القرآن**»، قال: فما هي؟ قال: «**الحمد لله رب العالمين، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أُوتيته**» رواه البخاري.[٣]

هذه السورة رَقَى بها رجلٌ من صحابة رسول الله ﷺ في سفرٍ رجلًا لَدِيغًا، فبرأ، فأمَر له بثلاثين شاةً، وخَشِيَ أصحابُه أن تكون هذه الرقية ليست في موضعها، فقالوا: لا تُحْدِثُوا شيئًا حتى نأتي رسول الله ﷺ، قال

---

(١) رواه البخاري (٤٤٣٩) (٥٠١٦) ومسلم (٢١٩٢).

(٢) صحيح البخاري (٥٠١٧).

(٣) صحيح البخاري (٤٤٧٤) عن أبي سعيد بن المعلَّى رضي الله عنه.

أبو سعيدٍ الخدري رضي الله عنه: فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبي ﷺ فقال: «**وما كان يُدريه أنها رقية؟ اقْسِموا واضربوا لي بسهمٍ**» رواه البخاري.(١)

لِتُعلِّم الطفلَ آيةَ الكرسيّ، ولْنَقرَأْها لأنفسنا إذا أَوَينا إلى الفراش، وسيَسمعُ ويحفظ، لنكون في حفظ الله، وفي مأمنٍ من الشيطان، وقد روى البخاري قصة أبي هريرة رضي الله عنه، قال: وَكَّلَني رسولُ الله ﷺ بحفظِ زكاةِ رمضان، فأَتاني آتٍ، فجعلَ يَحثُو من الطعام، فأخذتُه فقلتُ: والله لأَرْفَعَنَّك إلى رسول الله ﷺ، فقال: دَعْني فإني محتاجٌ، وعليَّ عِيال، ولي حاجة شديدة، قال: فخَلَّيتُ عنه، فأصبحتُ، فقال النبي ﷺ: «**يا أبا هريرة، ما فعلَ أسيرُك البارحةَ**»؟ قلت: يا رسول الله، شكا حاجةً شديدةً وعِيالًا، فرَحِمْتُه فخَلَّيتُ سبيلَه، قال: «**أَمَا إنه قد كَذَبَك، وسيَعود**». فعرفت أنه سيعود، لقول رسول الله ﷺ: «**إنه سيعود**».

فرَصَدتُه، فجاء يحثو من الطعام، فأخذتُه فقلت: لأرفعَنَّك إلى رسول الله ﷺ، قال: دَعْني، فإني محتاج، وعليَّ عِيالٌ، لا أعود، فرَحِمْتُه فخَلَّيتُ سبيلَه، فأصبحتُ، فقال لي رسول الله ﷺ: «**يا أبا هريرة، ما فعلَ أسيرُك**»؟ قلت: يا رسول الله، شكا حاجةً شديدةً وعِيالًا، فرَحِمْتُه فخَلَّيتُ سبيلَه، قال: «**أَمَا إنه كَذَبَك، وسيَعود**».

فرَصَدتُه الثالثةَ، فجاء يحثو من الطعام، فأخذتُه فقلت: لأرفَعَنَّك إلى

---

(١) صحيح البخاري (٢٢٧٦) (٥٠٠٧)، صحيح مسلم (٢٢٠١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. ورواه الترمذي وصحّحه (٢٠٦٣)، وابن ماجه (٢١٥٦) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أيضًا، وفيه التصريحُ بأنّ الرّاقيَ هو أبو سعيد الخدري نفسُه.

رسول الله ﷺ، وهذا آخِرُ ثلاثِ مرات أنك تزعُمُ لا تعود ثم تعود! قال: دَعْني أُعلِّمْك كلماتٍ ينفعُك اللهُ بها. قلت: ما هو؟ قال: إذا أَوَيْتَ إلى فراشِك فاقرأ آيةَ الكرسيّ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ حتى تَختِمَ الآيةَ، فإنك لن يَزالَ عليك من الله حافظٌ، ولا يَقْربَنَّك شيطانٌ حتى تُصبحَ.

فخَلَّيتُ سبيلَه، فأصبحتُ، فقال لي رسول الله ﷺ: «**ما فعلَ أسيرُك البارحةَ**»؟ قلت: يا رسول الله، زعم أنه يُعلِّمُني كلماتٍ ينفعُني اللهُ بها، فخَلَّيتُ سبيلَه، قال: «**ما هي**»؟ قلت: قال لي: إذا أويتَ إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، وقال لي: لن يزالَ عليك من الله حافظٌ، ولا يَقْرَبَك شيطانٌ حتى تصبح - وكانوا [أي الصحابةُ] أحرَصَ شيء على الخير - فقال النبي ﷺ: «**أمَا إنه قد صَدَقَك وهو كَذُوب! تَعْلَمُ مَن تُخاطِبُ منذُ ثلاثِ ليالٍ يا أبا هريرة**»؟ قال: لا! قال: «**ذاك شيطان**»![1]

❊ ❊ ❊

(١) صحيح البخاري (٢٣١١).

١٦- ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾

إنّ هذه الكلمات اليسيرة يمكن للطفل أن يحفظها بسرعة، وأن يحتفظ بها في وجدانه، وأن يستعملها في مقاماتها المختلفة، لو وَجَدَتْ مَن يُعلّمُه إياها عِلمًا وعملًا: (باسم الله، سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، حسبي الله، وأفوض أمري إلى الله)، كلماتٌ سهلةٌ، أشبهُ بوَمَضاتٍ مُشعة، أشبهُ بنَبَضاتِ قلبٍ يذكرُ الله.. وشتانَ بين إنسانٍ جامدٍ هامدٍ كأنه قطعةٌ من جماد، وبين إنسانٍ كلُّ شيء فيه يتحركُ بذكر الله.

ولذلك مثّل الرسول ﷺ الذي يذكرُ ربَّه بالحيّ، والذي لا يذكرهُ بالميت، فقال: «**مَثَلُ الذي يذكُرُ ربَّه والذي لا يَذكُرُ ربَّه مَثَلُ الحَيِّ والميت**» رواه البخاري.[١]

شبَّه الذَّاكِرَ بالحيّ الذي ظاهرُه مُتزيّنٌ بنور الحياة، وباطنُه بنور المعرفة، وغيرَ الذَّاكِرِ بالميّت الذي ظاهرُه عاطلٌ وباطنُه باطل، وقيل: موقعُ التشبيهِ بالحي والميتِ، لما في الحيّ من النفع لمن يُواليه، والضُرِّ لمن يُعاديه، وليس ذلك في الميت.[٢]

---

(١) صحيح البخاري (٦٤٠٧) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.
ورواه مسلم (٧٧٩) عن أبي موسى بلفظ: «**مَثَلُ البيتِ الذي يُذْكَرُ اللهُ فيه والبيتِ الذي لا يُذْكَرُ اللهُ فيه، مَثَلُ الحَيِّ والميّتِ**».

(٢) هذه الفقرة مقتبسة من فتح الباري للحافظ ابن حجر عند شرح حديث أبي موسى رضي الله عنه (٦٤٠٧).

وإذا كان ذكرُ الله حياةً فهو أيضًا حِصنٌ حصين، يأوي إليه المؤمن، فيحميه من هَمَزاتِ الشياطين، أخرج الترمذيُّ والنَّسائي وصححه الحاكم عن الحارثِ بن الحارثِ الأشعريّ رضي الله عنه في حديثٍ طويل، أن النبي ﷺ قال: «**إن الله أمر يحيى بنَ زكريا بخمس كلمات، أن يَعمَلَ بها، ويأمُرَ بني إسرائيل أن يعملوا بها..**».

وفيه: «**قال يحيى بن زكريا: وآمُرُكم أن تذكروا الله، فإنّ مَثَلَ ذلك كمَثَلِ رجلٍ خرَجَ العدوُّ في أَثَرِه سِراعًا، حتى أتَى على حِصنٍ حَصين، فأَحْرَزَ نفسَه منهم، كذلك العبدُ لا يُحرِزُ نفسَه من الشيطان إلا بِذِكرِ الله**».[1]

وذكرُ الله - إلى جانب ذلك - خيرٌ من كل ما يفكّر فيه الإنسان من مكاسبِ الحياة، أخرج الترمذيُّ وابن ماجه وصححه الحاكم من حديث أبي الدرداءِ رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**ألا أُخبِرُكُم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مَلِيكِكُم، وأرفَعِها في درجاتكم، وخيرٌ لكم من إنفاقِ الذهب والوَرِق، وخيرٌ لكم من أن تَلْقَوْا عدوَّكم فتَضرِبوا أعناقَهم ويَضرِبوا أعناقَكم**»؟! قالوا: بلى يا رسول الله! قال: «**ذكرُ الله عز وجل**».[2]

فإذا حَرَصَتِ الأمُّ على أن تُلقِّنَ طفلَها هذه الكلماتِ السهلةَ من ذكرِ الله

---

(١) جامع الترمذي وقال: حديث حسن صحيح غريب (٢٨٦٣)، سنن النسائي الكبرى (١١٣٤٩)، مسند أحمد (١٧١٧٠) (١٧٨٠٠)، صحيح ابن خزيمة (١٨٩٥)، صحيح ابن حبان (٦٢٣٣)، مستدرك الحاكم (١٥٣٤).

(٢) جامع الترمذي (٣٣٧٧)، سنن ابن ماجه (٣٧٩٠)، مسند أحمد (٢١٧٠٢)، مستدرك الحاكم (١٨٢٥). وأخرجه مالك في الموطأ موقوفًا (٥٦٤).

تكونُ قد أَمَدَّتْه بالحياة والنور، وحصَّنَتْه من اللّغوِ والعَبَث، ودَلَّتْه على خير الأعمال عند الله وعند العباد.. بل لو لم تُلقِّنْه إياها، ورآها حريصةً على استعمالها في مناسباتها المختلفة، تنطقُ بها بين الحينِ والحين لنفسِها أمامَه، ستستقرُّ في ذهنِه ويحاولُ أن يُحاكِيَها، لأنه يريدُ أن يتعلم، وسبيلُه إلى التعلمِ التلقينُ والمحاكاة، وهذا كلُّ ما يملكه في هذه السِّنّ.

كم تكون هذه الأمُّ المسلمةُ مُوفَّقةً مأجورةً، وهي تجعلُ ولَدَها يعيشُ في جوٍّ إسلاميّ خالص، وتُحصِّنُه ضدَّ كلِّ التيارات الدخيلةِ التي تضغطُ على بيوتنا من كلِّ جانب.

كم تكونُ موفَّقةً لو علّمَتْه أن يبدأ كلَّ شيء باسم الله، وأن يختمه بالحمد لله... لو علّمَتْه تحيةَ الإسلام، كيف يُحيِّي بها، وكيف يُجيبُ عليها بأحسنَ منها، كما يقولُ المولى سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النساء ٨٦]... لو علَّمَتْه أن يَحمَدَ اللهَ إذا عَطَس، ويقول لمن دعا له بالرحمة: يَهديكُم اللهُ ويُصلِحُ بالَكم.

وبمرورِ الأيام تُعلّمُه الصدقَ والأمانة، والعفوَ والتسامحَ، والرِّفقَ واللِّينَ، والعِفّةَ والأدبَ، والوفاءَ والكرمَ، فلا يجوزُ للمسلمِ أن يكذبَ، لأن الكَذِبَ يَهدي إلى الفجور، ولا يجوز له أن يخونَ، لأنه لا إيمانَ لمن لا أمانةَ له، ولا أن يَظلِمَ، لأن الظُّلْمَ ظُلُماتٌ يومَ القيامة، ولا أن يَعتَدِيَ على أحد، لأن الله لا يُحبُّ المعتدين، ولا أن يَطمَعَ في مالِ أحد، لأنه لا يَقبَلُ أن يَطمَعَ في مالِه أحدٌ.

أهذا خيرٌ؟ أم تَعلِيمُه السِّبَابَ والشتائم، وتَلقِينُه أقبَحَ الألفاظِ وأحَطَّ

الأساليب؟ وتقولُ له: اشتُمْ أباك، العَنْ أخاك، اضرِب أختَك، وغيَر ذلك من أساليبِ السُّوقةِ وأهلِ السفاهةِ والجهل؟ على أقلِّ تقديرٍ لا يلومه أحدٌ إذا كَبِرَ وعَقَّ والِدَيْه، لأنهما علّمَاهُ العقوقَ، ولا يلومُه أحدٌ إذا طغَى وبغَى واستبَدّ.

أَعْرِفُ ناسًا كبارًا في عيونِ الناس، وحصلوا على أعلى الشهادات، وتقلّدُوا أرفعَ المناصب، ولكنْ بكلِّ أسفٍ لا يعرفون من أدب الإسلام شيئًا: إذا عَطَس أحدُهم لا يعرف ماذا يقول، وإذا شَمَّتَه أحدٌ لا يعرفُ كيف يردّ، وإنما يُتَمْتِمُ بكلماتٍ غامضةٍ ويَحمَرُّ وجهُه، وإذا عَزَّى أحدًا حرَّك رأسَه! وإذا عادَ مريضًا قال: بهذا المرضِ مات فلانٌ ومات فلانٌ! وإذا صلى لا يُحسِنُ ما يقرأ، لأنه لا يحفظ من كلام الله شيئًا، ولا يعلمُ من أمورِ الإسلامِ شيئًا، وهو أعلَمُ بشؤونِ الدنيا!

وفي مثلِ هؤلاء يقولُ الله سبحانه وتعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم].. هذا وأمثالُه كثيرون، لو طُبعتْ هذه الكلماتُ في ذهنه منذُ الصغر ما احمرَّ له وجهٌ، ولا ارتجفت له شَفَةٌ، ولا جَفَّ له رِيق، ولا وقَعَ في حرجٍ، فهي أمورٌ أصبحت معلومةً للصغير والكبير من المسلمين.

وإذا كنا نُنبِّهُ الأمَّ المسلمةَ إلى وجوبِ حمايةِ السمعِ والنطقِ لأبنائها في هذه الفترةِ، فإن من الواجبِ أن نُنبِّهَها إلى خطورةِ ما يَرَى بالبصر، فبعضُ الأمهاتِ يحلُو لهن أن يتركْنَ أولادَهن الصغارَ أمام الشاشةِ الصغيرةِ لِتَشْغَلَهم عن نفسها بما يشاهدون من أفلامٍ ورسومٍ وإعلاناتٍ، سواءٌ عن

طريقِ التلفاز أم عن طريقِ الفيديو، فيلتصقُ الطفلُ بهذا الجهازِ، ويجلسُ أمَامَه وجهًا لوجه، لا يفارقُه ليلًا ولا نهارًا، ولا شكَّ أن لهذه الإشعاعاتِ آثارًا خطيرةً على صحته، إن لم تَظهَرِ الآنَ فستظهرُ على المَدَى البعيد، ناهيك عمّا تَهدِمُ ما نَبنِيهِ من فضائلَ، وما وَرِثْناهُ من تقاليد.

لقد درسَ الأجانبُ نفسيّةَ الطفل، وعرفُوا كيف يَسلُبُونه إرادتَه، ويَسرِقُونه من أمّهِ برسومٍ تُربّي فيه نوازعَ الشر، وتُنمِّي فيه بواعثَ الحقد، وتُعلّمُه السَّلْبَ والنَّهْبَ، والعدوانَ والبغي، اقتحمتْ هذه الرسوم كلَّ بيت، وفَرَضتْ نفسها على كلِّ أسرة، واحتَضَنَتْها شركاتٌ عالمية، يهوديةٌ وغيرُ يهودية، لا تخلو مقاصدُها من اللؤم، ولا تبرأُ نواياها من الهدم، يجلسُ الطفل أمامها أسيرًا، فاقدَ الوعي، والأمُّ سعيدةٌ كلَّ السعادةِ بما ترى، لأن ابنها مشغولٌ عنها، وهي لا تدري أيَّ خطرٍ يهددُه في بصره، وفي نفسيته، وفي تفكيره.(١)

ومن العجيبِ أن كثيراتٍ ممن احتَرَفْنَ الغِناءَ والتمثيلَ دخلْنَ ميدانَ الوعظ، وقدّمْنَ للطفل أدوارًا تشُدُّ انتباهه، طبَعَتْها على آلافٍ من أشرطةِ الفيديو والكاسيت طمعًا في ثراءٍ سهل، أدوارًا تدعو إلى النظامِ والعمل، والنظافةِ والأدب، والحياءِ والحبّ، ولكن بطريقةٍ مثيرةٍ، يختلطُ فيها الغناءُ بالرَّقْص، ويَلتَبِسُ فيها الحقُّ بالباطل، فبالله هل يستطيعُ الطفلُ أن

(١) لم يدرك الشيخ المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ ما قذفته إلينا الحضارة بعد ذلك من وسائل التواصل، والهواتف النقالة، والأجهزة التي صارت بيد كل طفل! وفيها النفع، وفيها كثير من الضرر! وإلى الله المشتكى!

يفرقَ بين ما يسمعُ وبين ما يرى، بينَ الحلالِ والحرام؟!

أَعَجَزَ علماؤُنا وأدباؤُنا أن يُقدّموا لأبنائنا وَجَباتٍ شهيةً، خاليةً من السَّمّ، ووسائلَ تربويةً مجرَّدةً من الإثم، وحَلَقاتٍ نظيفةً بريئةً، تُحْيِي فيهم الفضائلَ، وتُعمِّقُ فيهم المكارم؟!

أيّتُها الأم: إن الطفلَ بين يَدَيْكِ أمانة، وأنتِ مسؤولةٌ عن هذه الأمانة، مسؤولةٌ عن سمعِه وبصرِه وفؤادِه، فاذكري قولَ الحقِّ تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء].

❊ ❊ ❊

١٧ - الأمّ البديلة

الخدمةُ في البيتِ عملٌ شريف، إذا رُوعيَ فيها حقُّ الله وحقُّ العباد، كَسْبُها طيّب، وعملُها حلال، خيرٌ ألفَ مرة من سؤالِ الناس، فالسؤالُ مَذَلّةٌ ومَهَانة، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود]، فمنهم الغنيُّ ومنهم الفقير، ومنهم القويُّ ومنهم العليل، لِيَستقيمَ أمرُ الكون، وتدورَ حركة الحياة الدنيا، وسبحان من قسّمَ الأرزاقَ، ووزع الأخلاق: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف].

والإسلام الذي أباحَ هذا العملَ، وضعَ له من الضماناتِ والحقوقِ ما يحقّقُ لصاحبِهِ الكرامةَ والعِزّة، فلا يجوزُ لأحدٍ أن ينظرَ إليه بعينِ الكِبْرِ والازدراء، ولا أن يُكلّفَه ما لا يُطيق، ولا أن يَحْرِمَه الطعامَ والشراب..

ومن يتأمل سيرةَ المصطفى ﷺ مع خَدَمِه لَيَعجَبُ لهذه المعاملةِ الرقيقة المهذّبة، ويَعجَبُ لِتنزيهِ لسانِه ﷺ عن الزجرِ والذمّ، واستئلافِ خاطرِهم وتركِ معاتبتهم، فيما يتعلقُ بحظوظِ النفس، حتى قال أنس بن مالك رضي الله عنه: (خَدَمْتُ النبيَّ ﷺ عشرَ سنين، فما قال لي: أُفٍّ، ولا: لِمَ صنعتَ؟ ولا: أَلَّا صنعتَ)؟ رواه البخاري.[١]

(١) صحيح البخاري (٦٠٣٨) (٦٩١١)، صحيح مسلم (٢٣٠٩).

ليس معنى هذا أن أنسًا لم يُخطئْ، أو لم يَنْسَ قطّ، أو لم يفعلْ شيئًا يستحقُّ الإنكارَ أو التوبيخ، ولكنَّ الرسولَ ﷺ لصفاءِ نفسِه، وعلوِّ مقامِه، ورقّةِ شعورِهِ ووجدانِه يلتمسُ له المعاذير، ويتغاضى عن الهفواتِ، ويُخفِي على أنسٍ عيوبَ أنس.. حتى كلمة أفّ التي حرمها الله على الابنِ أن يقولها لأبيه، لم يقلْها الرسولُ ﷺ لخادمِه عشرَ سنين! ما هذا الخُلُقُ الرفيعُ! وصَدَق الله رب العالمين إذ يقول، مؤكِّدًا ما يقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم].

هذه طبيعة الرسول ﷺ، وهذه فطرتُه التي فطره اللهُ عليها، ومع ذلك كان لا يَمَلُّ الوصيةَ بالخدم، ولا بمِلْكِ اليمين، يأمرُ أصحابه وأُمَّتَه أن يكونوا كُرماءَ معهم، رُحماءَ بهم.. وإنّ ضعفَهم وحاجتَهم لا ذنبَ لهم فيها، وإن الله مَلّكَنا إياهم، ولو شاء لَمَلَّكَهم إيانا..[1] ومن يدري؟ فربما تغيّرتِ الأحوالُ، واستدار الزمانُ، وصارَ الخادمُ مخدومًا، والمخدومُ خادمًا، وليس ذلك على الله بعزيز..

وكأنَّ أمرَ هؤلاءِ الخدمِ شُغلُه الشاغل ﷺ، فلم يَنْسَ أن يَذْكُرَهم، وأن يُوصِيَ بهم في آخِرِ لحظاتِه في الدنيا، روى أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه: كان آخِرُ وصيّةِ النبي ﷺ حين حضره الموت: «**الصلاةَ! الصلاةَ! وما مَلَكَتْ أيمانُكم**»![2]

---

(١) كان المؤلف أورد جملة (إن الله ملّكنا إياهم، ولو شاء لملّكهم إيانا) على أنه حديث نبوي! وهو في ذلك متابع للإمام أبي حامد الغزّالي في إحياء علوم الدين ٢/ ٢١٩، ولم أجد له أصلًا! فعدّلت عبارة المؤلف، وحذفت نسبة الحديث إلى النبي ﷺ.

(٢) مسند أحمد (١٢١٦٩)، سنن النسائي الكبرى (٧٠٩٤)، سنن ابن ماجه (٢٦٩٧)، صحيح ابن حبان (٦٦٠٥)، مستدرك الحاكم (٤٣٨٨). =

وإذا كان الرسول ﷺ لم يتأفَّفْ من أخطاءِ خادمِه، ولم يقُلْ له كلمةَ أفٍّ عشرَ سنين، فهل يُتصور أنه يعاقب؟! قالت عائشة رضي الله عنها: (ما ضرب رسول الله ﷺ شيئًا قطُّ بيده، ولا امرأةً ولا خادمًا، إلا أن يجاهدَ في سبيل الله) رواه مسلم.(١)

وفي مرةٍ من المراتِ غضب على جاريةٍ من جوارِيهِ، فانظروا ماذا فعل؟ عن أم سلمة رضي الله عنها قالتْ: كان رسول الله ﷺ في بيتي، وكان بيده سِواكٌ، فدعا وصيفةً له - أوْ لَها - فأبطأتْ حتى استبان الغضبُ في وجهه، فخرجتْ أمُّ سلمة إلى الحُجراتِ فوَجَدَت الوصيفةَ وهي تلعبُ بِبَهيمةٍ، فقالت: ألا أراكِ تلعبينَ بهذه البهيمة ورسولُ الله ﷺ يدعوكِ؟ فقال رسول الله ﷺ: «**لولا خشيةُ القَوَدِ يوم القيامة لأَوْجَعْتُكِ بهذا السِّواك**». فقالت: لا والذي بعثَك بالحقّ ما سَمِعْتُكَ. رواه البخاري في الأدب المفرد.(٢)

هذا كلّ ما بَلَغَه الغضبُ من رسول الله ﷺ، يخشى القِصاصَ يومَ التلاق، ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ [غافر ١٦]، يخشى القِصاصَ

= ورواه البخاري في الأدب المفرد (١٥٨)، وأحمد (٥٨٥)، وأبو داود (٥١٥٦)، وابن ماجه (٢٦٩٨) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ورواه أحمد (٢٦٤٨٣)، والنسائي في الكبرى (٧٠٩٨)، وابن ماجه (١٦٢٥) عن أم سلمة رضي الله عنها.

(١) صحيح مسلم (٢٣٢٨)، سنن أبي داود (٤٧٨٦)، سنن ابن ماجه (١٩٨٤)، مسند أحمد (٢٦٤٠٤).

(٢) الأدب المفرد للبخاري (١٨٤)، مسند أبي يعلى (٦٩٤٤) (٦٩٢٨)، المعجم الكبير للطبراني ٢٣/ ٣٧٦. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٦٤٠: (إسناده جيد). اهـ. لكن الحقّ أن سنده ضعيف، انظر تحقيق مسند أبي يعلى.

لو ضربها بماذا؟ بسواكٍ، هذا الخوفُ جعله يَكظِمُ غيظَه ويعفو ويصفح.

ولما سأله سائلٌ فقال: يا رسول الله، كم نعفو عن الخادم؟ فصمت عنه رسول الله ﷺ، ثم قال: «**اعفُ عنه في كلِّ يومٍ سبعين مرة**» رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن غريب.(١)

هذه المثالية في معاملة الخدمِ جعلت أصحابَ رسول الله ﷺ يقتدون به ويعاملون الخدمَ معاملةً خاصة، خوفًا من أن تَزِلَّ بهم قدم، فترتَدَّ بهم إلى الجاهليةِ ثم إلى النار..

عن المعرور بن سويدٍ قال: رأيتُ أبا ذرّ رضي الله عنه بالرَّبَذة وعليه بُرْدٌ غليظٌ، وعلى غلامه مثله، فقال القومُ: يا أبا ذرّ، لو كنتَ أخذتَ الذي على غلامكَ فجعلتَه مع هذا فكانتْ حُلّةً، وكسوتَ غلامَك ثوبًا غيره! فقال أبو ذرّ: سابَبْتُ رجلًا فعيّرْتُه بأُمِّه، فقال لي النبي ﷺ: «**يا أبا ذرّ، أَعَيَّرتَه بأمّه؟! إنك امرُؤٌ فيك جاهلية**»! فقلتُ: على حينِ ساعتي هذه مِن كِبَرِ السِّنّ؟! قال: «**نعم! هم إخوانُكم، جعَلَهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يدِه فلْيُطْعِمْه مما يأكُل، ولْيُلْبِسْه مما يَلْبَس، ولا تكلّفوهم ما يَغْلِبُهم، فإن كلّفتُموهم فأَعِينُوهم**». رواه البخاري وغيره.(٢)

وإذا كان الإسلام قد رفعَ من قدرِ الخادمِ إلى درجةِ الرُّعاةِ، حتى قال

---

(١) سنن أبي داود (٥١٦٤)، جامع الترمذي (١٩٤٩)، مسند أحمد (٥٦٣٥) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) صحيح البخاري (٣٠) (٦٠٥٠)، صحيح مسلم (١٦٦١)، سنن أبي داود (٥١٥٧).

سيدُ الخلق ﷺ: «.. **والخادمُ راعٍ في مالِ سيّدِه، ومسؤولٌ عن رَعِيّتِه**» متفق عليه،[١] وإذا كان الإسلامُ قد أمرَنا أن نعاملَه معاملةً خاصةً، بإحساس مُرهَفٍ، وخُلُقٍ كريمٍ، جبرًا لخاطره، وتقديرًا لعمله، وإعلاءً لشأنه، وتصحيحًا لمفاهيمَ خاطئةٍ، تظنُّ أنه خَلْقٌ آخَرُ من طبقةٍ أخرى، فليس معنى ذلك أن ندفعَ ثمارَ قلوبنا، وعِمادَ ظهورِنا، وأكبادَنا التي تمشي على الأرض.. إلى الخادمةِ ترعى كلَّ شؤونهم، وتصوغُهم كما تريد.. ليس معنى ذلك أن تَكِلَ الأمُّ تربيةَ أولادها إلى خادمةٍ على غيرِ ديننا، وبغيرِ لغتنا وتقاليدنا.

لقد اعتمدت الأمُّ اعتمادًا كليًّا على الخادمة، وأصبحتْ تقضي بياضَ نهارِها وسوادَ ليلِها في شُغْلٍ شاغلٍ عن أولادها! بحيثُ لا تراهم ولا يَرَوْنها إلا لحظاتٍ كلَّ أسبوع، أو كلَّ يوم، وهذا هو كلُّ نصيبِ أولادها منها!

الخادمةُ هي التي تنظّفُ وتنظّمُ، وتُرضِع وتُطعِم، وتُداعبُ وتُلاعب، وتُجفّفُ دموعَهم، وتخفّفُ أوجاعهم، وتَحمِلُهم على كَتِفِها.. وهي أيضًا التي تعلّمهم العربية وهي أعجمية! وتربِّيهم على الإسلام وهي وثنية! وتعذّبُهم ليعيشوا في رعب، وتعلّلهم لينام على جوع، وتهدّدُهم بآبائهم وأمهاتهم ليكرهوهم، وتفتحُ لهم الفيديو على أفلامِ الرعب والرقصِ والفسادِ لتُفسِدَ أخلاقهم!

---

(١) صحيح البخاري (٨٩٣)، صحيح مسلم (١٨٢٩) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

ومهما أحسنّا الظنَّ بالخادمة فهي لا ترحمُ إلا تكلّفًا، ولا تُحسنُ إلا تصنّعًا، ولا تحبُّ إلا رياءً، لأنها مجردةٌ من عاطفة الأمومةِ لأولاد غيرها، ولو كانتْ أمًّا فأُمومتُها لأولادها.. وهي تُعطي على قدرِ ما تأخذ: تُكرمُ إذا أُكرمتْ، وترحمُ إذا رُحمت، وتُحسنُ إلى غيرها إذا أُحسنَ إليها، ولكنها إذا أُسِيءَ إليها أكَلَ الحقدُ قلبها، وكشّرتْ عن أنيابها، وصبّتْ جامَ غضبها على أولاد مخدومها ظلمًا وعدوانًا، وبغيًا وانتقامًا.. وكم لها من ضحايا تقشعرُّ منها الجلود، وتَنفطِرُ لها القلوب، وتأسفُ لها الإنسانية.

ونحن لا نقول للأمِّ الفاضلة: استَغْنِي عن الخادمة، لأن الخادمة أصبحتْ ضرورةً للقادر عليها في عصرٍ تعقّدتْ فيه الحياة، وازدحمتْ فيه المشكلات، وخرجتْ فيه المرأة إلى العمل.. ولأن الخادمةَ أصبحتْ في هذا العصرِ عُملةً نادرة، تتقاضى في كثيرٍ من البلادِ أضعافَ ما تتقاضاه خريجة الجامعة! ولأن الحاجة إليها أصبحتْ ملحّة.

وأكثرُ البيوت تَحرِصُ على رضاها أكثرَ مما تَحرِصُ على أولادها! وتخافُ من انقطاعها وسفرِها وتهديدِها أكثرَ مما تخافُ على أفرادها إذا غابوا، لأنها إذا غابتْ غابَ عن البيت صفاؤُه وبهاؤُه ونِظامُه، وأظلمت الحياةُ في وجهِ المرأةِ التي اعتادتْ عليها، لأنها ستدفعُ وحدَها الثمنَ غاليًا لما تُخلِّفُه الخادمةُ وراءَها من همومٍ ومتاعب، وصراخِ الأطفالِ وأحزانِهم، لفراقِ أمِّهِمُ البديلة، التي لا يرضوْن بها بديلًا، حتى لو كان هذا البديلُ أمَّهُم الحقيقية!

نحن لا نقولُ للأمِّ الفاضلة: تَخَلَّيْ عن الخادمة، ولكن نقول: لكل عضو في المجتمع حدودُه وعملُه ووظيفتُه، ووظيفةُ الخادمة لا يجوزُ أن تتعدَّى النظامَ والنظافة، وترتيبَ البيت وقضاءَ مصالحه، وغيرَ ذلك من الأمورِ المنزلية.. أما أن تقومَ بمهامِّ التربيةِ لبراعمَ صغيرةٍ يُرجى أن تتفتح على نورِ الحق وجمالِ الحياة، فهذا هو الخطرُ بعينه: الخطرُ على العقيدةِ من الزيغ، وعلى الخُلُقِ من العبث، وعلى المستقبلِ من الضياع، وعلى اللغةِ من العُجمة، وعلى المرأةِ نفسها من أن تَفقِدَ مكانَها وتصبحَ خارجَ البيت.

فاستيقظي أيّتُها الأمُّ من غفلتِك، قبل أن يُسحبَ البِساطُ من تحتك، وتُسرَقَ الأضواءُ من وجهِك، وقبل أن تتحوَّلِي في نظرِ أولادِك من معنًى إلى لفظٍ، ومن أصلٍ إلى صورة، ومن حقيقةٍ إلى ذكرى!

❊ ❊ ❊

١٨ - سوء العِشْرة

تقومُ البيوتُ الإسلامية الشريفةُ على ركنين أساسيين: هما الزوجُ والزوجةُ، وقد وزَّع الإسلامُ عليهما من الاختصاصاتِ والحقوقِ ما لا يخفَى على أحد، وزوّدَهما من النصائح بما يجعلُ السعادةَ النفسيّةَ والبدنيّةَ ترفرفُ على هذه البيوت من كلِّ جانب، وبما يضمنُ لها الاستقرارَ والبقاءَ في معتركِ الحياة.

حسبُنا من هذه النصائح ما أمَرَ اللهُ به الأزواجَ، فقال عَزَّ مِن قائل: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء]، أي حتى لو تغيَّرَتِ النفوسُ وتحوَّلتْ، وتقلَّبَتِ القلوبُ وانقبضتْ، فإنّ على الزوج أن يتحمّلَ ويتحمّلَ، ويقاوِمَ ويُحسنَ الصحبة، ويعاشرَ بالمعروف.

إن البيوتَ لا تقومُ على الهوى وحدَه، لأن الهوى متقلِّب، وإنما تقومُ على الثوابت، تقومُ على البِرِّ والخيرِ والمكارم، على المودّةِ والرحمة، ورحم الله أميرَ المؤمنين عمرَ رضي الله عنه، جاءه رجل يريد أن يطلّقَ زوجتَه، لأنه لا يحبُّها، فقال له: ويحَك! ألم تُبْنَ البيوتُ إلا على الحبّ؟! فأين الرِّعايةُ والتَّذَمُّم؟[1]

---

(١) لم أجد القصة بهذا اللفظ إلا في بعض كتب الأدب بلا إسناد، كالبيان والتبيُّن للجاحظ ٢/ ٨٩، وعيون الأخبار لابن قتيبة ٣/ ١٨.

والتَّذَمُّم: هو الاستحياء ومجانبة ما يُذَمّ عليه. المُغْرِب في ترتيب المُعْرِب للمُطَرِّزيّ، والمعجم الوسيط (ذمم). =

والمعاشرةُ بالمعروف تكونُ بالكلمةِ الطيبة، والبسمةِ المضيئة، والوجهِ الطَّليق، والبراءةِ الصريحة، والمعاملةِ الحسنة، والأخلاقِ المهذبة.. تكونُ بحسنِ الرعاية، ولطفِ الإرادة، وتحمّلِ المسؤولية، واحترامِ الحقوق الزوجية.. تكون بالتسامحِ والتناصح، والتجاوبِ والتعاطف، والتحابِّ والإيثار.

لا بالهروبِ من الحقائق، ولا بالتخلص من الأعباء، ولا بمجاوزةِ الحد.. لا بالتحكمِ والتسلط، والغرورِ والأنانية.. لأن البيتَ هو السكنُ الذي تنتهي عنده الهمومُ، ويسودُ فيه الحب، وتسكن فيه القلوب، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا﴾ [النحل ٨٠]، لا سجنًا، ولا معتقَلًا، ولا ميدانَ صراع، ولا سوقًا تختلط فيه الأصوات.. وإنما هو ملاذُ كلِّ خائفٍ، وراحةُ كل مكدود، وبَرُّ الأمانِ في رحلة الحياة..

من أجل هذا كررَ الرسول ﷺ الوصيةَ بالنساءِ، قالها في مناسباتٍ

= لكن أخرج ابن جرير الطبري في تهذيب الآثار ٣/ ١٤٢ (٢٣٦) من طريق الزُّهْريّ، عن ابنِ عَزْرةَ، أنّه أخَذ بيَدِ ابنِ الأَرْقَم فأَدْخلَه على امْرأتِه فقال: أَتُبغِضِينَني؟ قالت: نعم. قال له ابْنُ الأرقم: ما حَمَلَكَ على ما فعلْتَ؟ قال: كَبُرَتْ علَيَّ مَقالةُ الناس.

فأَتَى ابنُ الأرقم عمرَ بنَ الخطّاب رضي الله عنه فأَخْبرَه، فأَرْسَلَ إلى ابْنِ عَزْرةَ فقال له: ما حَمَلَكَ على ما فعلْتَ؟ قال: كَبُرَتْ عليَّ مَقالةُ الناس.

فأَرسَلَ إلى امْرأتِه، فجاءَتْهُ ومعها عَمّةٌ لها مُنْكَرةٌ، فقالت: إنْ سَأَلَكِ فقُولي: إنّه اسْتَحْلَفني، فكَرِهْتُ أنْ أَكْذِبَ.

فقال لها عمرُ: ما حَمَلَكِ على ما قُلْتِ؟ قالت: إنّه اسْتَحْلَفني، فكَرِهْتُ أنْ أَكْذِبَ. فقال عمرُ: بلى! فلْتَكْذِبْ إحْداكُنَّ ولْتُجْمِلْ، فليس كلُّ البيوتِ يُبْنَى على الحبّ، ولكنْ مُعاشَرةٌ على الأَحْسابِ والإسلام. اهـ.

مختلفة، قالها في خطبةِ الوداع الجامعة،(١) وقالها في مناسبة أخرى: «**استوصُوا بالنساء خيرًا**»،(٢) وقال ﷺ: «**خيرُكم خيرُكم لأهله، وأنا خيرُكم لأهلي**»،(٣) وقال ﷺ: «**أكملُ المؤمنين إيمانًا أحسنُهم خُلُقًا، وخِيارُكم خِيارُكم لنسائهم**» رواه الترمذي.(٤) وقال ﷺ: «**لا يَفْرَكْ - أي لا يُبْغِضْ - مؤمنٌ مؤمنة، إنْ كَرِهَ منها خُلُقًا رَضِيَ منها آخَرَ**» أو قال: «**غيرَه**» رواه مسلم.(٥)

ومن يتأملْ حياةَ الرسول ﷺ في بيته ومعاملتَه لأزواجه يجدْه المثلَ الأعلى، وهو دائمًا المثل الأعلى الذي يجب الاقتداءُ به، عملًا بقولِ الحقِّ جل جلاله: ﴿**لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا**﴾ [الأحزاب].

---

(١) رواه الإمام مسلم (١٢١٨) عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما في حديث حِجة النبي ﷺ، ومما خطب به الناس يوم عرفة قال: «**فاتقوا الله في النساء، فإنكم أَخَذْتُموهنّ بأمان الله، واستَحْلَلْتُم فُروجَهُنّ بكلمة الله**..».

وروى الترمذي وقال: حسن صحيح (١١٦٣) (٣٠٨٧)، والنسائي في السنن الكبرى (٩١٢٤)، وابن ماجه (١٨٥١) عن عمرِو بن الأحوص الجُشَميّ رضي الله عنه، أنه شهد حِجة الوداع مع رسول الله ﷺ.. فذكر خطبتَه، وفيها: «**ألا واستَوْصُوا بالنساء خيرًا**..».

(٢) روى البخاري (٣٣٣١) (٥١٨٦) ومسلم (١٤٦٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**..واستَوْصُوا بالنساء خيرًا، فإنهنّ خُلِقْنَ مِن ضِلَعٍ، وإنّ أعوجَ شيءٍ في الضِّلَعِ أعلاهُ، فإنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُه كَسَرْتَه، وإنْ تركتَه لم يَزَلْ أعوجَ، فاستَوْصُوا بالنساء خيرًا**».

(٣) جامع الترمذي وصححه (٣٨٩٥)، صحيح ابن حبان (٤١٧٧) عن عائشة رضي الله عنها.

(٤) سنن أبي داود (٤٦٨٢)، جامع الترمذي وصححه (١١٦٢)، مسند أحمد (٧٤٠٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) صحيح مسلم (١٤٦٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

يقول الإمام ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره: (كان من أخلاقه ﷺ أنه جميلُ العِشْرة، دائمُ البِشر، يداعبُ أهلَه، ويَتلطّف بهم، ويُوسِعُهم نفقتَه، ويضاحكُ نساءَه، حتى إنه كان يسابقُ عائشة أمَّ المؤمنين رضي الله عنها، يتودّدُ إليها بذلك، قالت: سابَقَني رسول الله ﷺ، فسبقْتُه، وذلك قبل أن أَحمِلَ اللحم، ثم سابقْتُه بعد ما حملتُ اللحم، فسبَقَني، فقال: «**هذه بتلك**».[١]

ويجتمع نساؤُه كلَّ ليلةٍ في بيتِ التي يبيتُ عندها رسول الله ﷺ، فيأكلُ معهن العَشاء في بعض الأحيان، ثم تنصرفُ كلُّ واحدةٍ إلى منزلها، وكان إذا صلى العشاء يدخلُ منزلَه، يسمُرُ مع أهلِه قليلًا قبل أن ينامَ، يؤانسهُم بذلك).[٢] اهـ من تفسير ابن كثير ١/ ٤٦٦.

وإذا كانَ الرجلُ مطالبًا بحسنِ المعاشرة، فالمرأةُ مطالبةٌ كذلك بحسنِ المعاملة، مطالبةٌ بأن تملأ عينَه، حتى لا يتطلعَ إلى غيرها.. وأن تَشْغَلَ فراغَه، حتى لا يتهرب منها، وأن تخفّفَ همومَه حتى يسكنَ إليها، وأن ترضَى بما قسمَ اللهُ، لا أن تكونَ عِبئًا على أعبائِه، ووزرًا على أوزاره، وأن تُعينَه في دِينه ودنياه، لا أن تُشِيبه قبل وقت المشيب، وأن تطيعَ الله فيه فتربّيَ أولادَه، وتحبَّ أقاربَه، وترتّبَ بيتَه، وتستقبلَه استقبالَ الغائب الذي طالتْ غَيبتُه، وتدعُوَ له دعاءَ المضطرّ، وتجعلَ من بيته جنةً وارفةَ الظلال،

---

(١) مسند أحمد (٢٤١١٨)، سنن النسائي الكبرى (٨٩٤٢) (٨٩٤٣)، سنن ابن ماجه (١٩٧٩)، صحيح ابن حبان (٤٦٩١).

(٢) من ذلك ما رواه البخاري (٤٥٦٩) (٧٤٥٢) ومسلم (٧٦٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (بِتُّ في بيت خالتي ميمونةَ ليلةً، والنبي ﷺ عندها، لأنظرَ كيف صلاةُ رسول الله ﷺ بالليل، فتحدَّثَ رسولُ الله ﷺ مع أهله ساعةً، ثم رقد..).

وأن تكونَ على المستوى الذي اختارَه الله لها، وبالصفاتِ التي وصفها الله بها في قوله عز وجل: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء ٣٤].

قال العلامة سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ في ظلال القرآن، في تفسيره لكلمةِ ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾: (والقنوتُ: الطاعةُ عن إرادةٍ وتوجُّهٍ، ورغبةٍ ومحبة، لا عن قسرٍ وإرغامٍ وتفلُّت، ومن ثَمّ قال: ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾، ولم يقل: طائعاتٌ، لأن مدلولَ اللفظِ الأولِ نفسيٌّ، وظِلالُه رَخِيّةٌ نَدِيّة، وهذا هو الذي يليقُ بالسكنِ والمودةِ والسِّتر والصيانة بين شطْرَيِ النفس الواحدة). اهـ.

وبهذا الخُلُقِ من الزوجةِ وبغيره مما فيه صلاحُها تَحظَى برضا الله، لأنها حَظِيَتْ برضا الزوج، ورسول الله ﷺ يقول: «**أيُّما امرأةٍ ماتتْ وزوجها عنها راضٍ دخلت الجنة**» رواه الترمذي.(١)

ولا يَعِيبُ المرأةَ العاقلةَ أن تُطيعَ زوجَها، وليس في ذلك ما يجرحُ كرامتَها، وهذه الطاعةُ لا يُحوِّلُها من حُرّةٍ إلى أسيرة، ولا من سيّدةٍ إلى خادمة، ولا من راعيةٍ إلى رَعِيّة، ولكنَّ هذه الطاعةَ هي التي ستؤكدُ سيادتَها، وتُعمِّقُ سعادتَها، وترفعُ مقامَها، وتَظَلُّ ما شاءَ اللهُ سيدةَ القصر، وصانعةَ الرجال.

أتذكرين يا سيدتي ما قالته خديجة أمُّ المؤمنين رضي الله عنها حينما رجع النبي ﷺ من غارِ حِراءَ يرجُفُ فؤادُه، ويقول لها: «**لقد خَشِيتُ على**

---

(١) جامع الترمذي وحسنه (١١٦١)، سنن ابن ماجه (١٨٥٤)، مستدرك الحاكم وصححه (٧٣٢٨) عن أم سلمة رضي الله عنها.

نفسي»! أتذكرين ماذا قالتْ له؟ قالت: كَلّا! أَبشِرْ، فواللهِ لا يُخزِيكَ الله أبدًا، واللهِ إنك لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَصدُقُ الحديثَ، وتَحمِلُ الكَلَّ، وتَكسِبُ المعدومَ، وتَقْرِي الضيف، وتُعِينُ على نوائبِ الحقّ..[١] كلماتٌ طيبةٌ رقيقةٌ مضيئةٌ خالدةٌ على مر الزمان، لذلك ظلَّ الرسول ﷺ على وفائِه لها حتى بعدَ وفاتِها، ويفرِش رداءَه لصاحباتها، ويقول: هذه من صواحب خديجة![٢]

ومِثْلُ هذا البيتِ الذي يقومُ على زوجَيْنِ صالحَيْن، يستقيمانِ على منهج الإسلام، ويُخلِصُ كلٌّ منهما الوُدَّ لصاحبِه، ويُؤْثِرُه على نفسه،

---

(١) صحيح البخاري (٣)، صحيح مسلم (١٦٠) عن عائشة رضي الله عنها.
(**تَحمِلُ الكَلَّ**) أي تقومُ بشأنِ مَن لا يَستقِلُّ بأَمْرِه، لِيُتْمٍ ونحوِه.
(**تَكْسِبُ المَعْدومَ**) أي تتبرع بالمال لِمَن عَدِمَه، أو تُعطي الناسَ ما لا يجدونه عند غيرِك.
(**تَقْرِي الضيفَ**) أي تُهيِّئ له القِرَى، وهو ما يُقدَّم للضيف من طعام وشراب.
(**نوائب الحقّ**) النوائب جمعُ نائبة، وهي ما ينزل بالإنسان من المُهِمّات. اهـ من فتح الباري بتصرف.

(٢) روى البخاري (٣٨١٨) ومسلم (٢٤٣٥) عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما غِرْتُ على نساءِ النبي ﷺ إلّا على خديجةَ، وإنّي لم أُدْرِكْها، قالتْ: وكان رسول الله ﷺ إذا ذَبَحَ الشّاةَ فيقولُ: «**أَرْسِلُوا بها إلى أصدقاءِ خديجةَ**». قالتْ: فأَغْضَبْتُه يومًا فقلتُ: خديجة! فقال رسولُ الله ﷺ: «**إنّي قد رُزِقْتُ حُبَّها**». واللفظ لمسلم.
ولفظ البخاري: قالت: ولكن كان النبي ﷺ يُكثِرُ ذِكرَها، وربما ذبح الشاةَ ثم يقطعُها أعضاءً، ثم يبعثُها في صدائقِ خديجة، فربما قلتُ له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة! فيقول: «**إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد**».
وروى البخاري (٣٨٢١) ومسلم (٢٤٣٧) عن عائشة رضي الله عنها قالت: استأذَنَتْ هالةُ بنتُ خُوَيلِدٍ أختُ خديجة على رسول الله ﷺ، فعَرَف استئذانَ خديجةَ، فارتاعَ لذلك، [ولفظ مسلم: فارتاح لذلك]، فقال: «**اللهمّ هالةُ بنتُ خويلد**»! قالت عائشة: فغِرْتُ..

لا شكَّ أن هذا البيتَ يُباركُ الله فيه، وفي رِحابه تنشأُ الذريةُ الصالحة، المرشحةُ لأن تكون في ظلِّ عرشِ الله يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّه.

تنشأُ الذرية على براءةٍ وطُهر، لا تَعرفُ الحقدَ ولا الكراهيةَ، ولا اللُّؤْمَ ولا الخِسّة، ولا العُقَدَ النفسيّة، ولا المشكلاتِ الاجتماعيةَ، وإنما تربُو على الحب، وتنمُو على الفضيلة، وتَحيا على العلم، وتزدهرُ بالعبادة، وتَكبَرُ في عناية الله وحفظه، بصفاءِ نفسٍ ونقاءِ ضميرٍ، لأنها طولَ حياتِها لا ترى إلا خيرًا، ولا تسمعُ إلا حقًّا، ولا تعرفُ غيرَ الوفاءِ والحب، وتعيشُ في جوٍّ كلُّه عِفّةٌ واحترامٌ وأدب.

أما البيتُ الذي يقومُ على زوجَيْنِ غَرِيبَين بعيدَيْن عن التوافقِ والتفاهُم، لا تربِطُهما إلا غرائزُ هابطة، ومطامعُ فانية، وعواطفُ متقلّبة، ودنيا لا أمانَ لها، فهو بيتٌ ظاهرُه رحمة، وباطنُه عذاب، بيتٌ آيلٌ للسقوط.

وإلا فماذا تقولُ في زوجةٍ لا يَعنِيها إلا الجسدُ، ولا يَشْغَلُها إلا المظاهر، ولا تكُفُّ عن مطاردةِ زوجِها بالمطالب، ولا عن إغراقِه في الديون؟!

وماذا تقولُ في زوجٍ هاربٍ يبحثُ عن المتعةِ المحرمة، والحبِّ الكاذب، والأمنِ المفقود، ويُسلّي نفسَه بالسفرِ والسهرِ والخمور؟!

ماذا تقولُ عن زوجةٍ سليطةِ اللسان، وزوجٍ سيّئِ الخلق؟! ما تقول في زوجةٍ حادةِ الطبع، وزوجٍ مفقودِ الإرادة؟! في زوجةٍ حمقاءَ وزوجٍ شرِس؟! في زوجةٍ لا ترعى ذمةً، ولا تحفظُ سرًّا، وزوجٍ لا يعرفُ إلا المعايبَ والمثالبَ وسوءَ الظن؟! بين زوجةٍ تتحدى، وزوجٍ يهدّدُ بالطلاق؟!

أيمكن أن يعيشَ هذا البيتُ طويلًا؟! كَلّا ولا شماتة.. ولكنْ لَهْفَ نفسِي

على أطفالٍ أطهارٍ كالعصافير الجميلة، كُتِبَ عليهم أن يعيشوا في هذا الجوِّ الخانق، يتنفّسون الهمومَ، ويَجْتَرُّون الأحزانَ، ويَلْعقون المخاوف، ينامون على طَوًى،(١) ويستيقظون في جوفِ الليلِ مذعورين، على صياحٍ وعويلٍ، وأصواتِ استغاثة، وعُواءٍ كعُواء الذئاب، وتواثُبٍ كَتَوَاثُبِ الدِّيَكة، يتبادلون الشتائمَ، ويتقاذفون بما تناله أيدِيهِم، ويُعيّرُ بعضُهم بعضًا، هي تُعيِّرُه بأمِّه، وهو يُعيِّرُها بأبيها! أهذا بيتٌ أم دارُ حرب؟!

وسواءٌ تمّ الطلاقُ أم لم يَتِمّ، استنفدوا عددَ الطَّلَقات أم عاشوا بلا مبالاةٍ في عقدةِ الزواج وبالميثاق الغليظ، سواءٌ كان هذا أم ذاك، فهل من الممكن أن يعيشَ هؤلاء الأطفالُ أسوياءَ؟!

أغلب ظني أنهم لا مكانَ لهم في المجتمع إلا في دار المعوَّقين، أو في سجن الأحداث! في دار المعوَّقين، لِمَا قاسَوْه من رعب! وفي سجن الأحداث، للانتقام من المجتمع! ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله! وصدق الله العظيم: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف ٥٨]، ويقول القائلون: إن السببَ في ضَياعهم هو الطلاقُ، كَلّا! ولكنَّ السببَ هو سوءُ المعاشرة، وسوءُ الأدب، وعدمُ الالتزامِ بمنهج الإسلام.

وقديمًا قال الشاعر زُهير:(٢)

وهل يُنْبِتُ الخَطّيَّ إلا وَشِيجُه؟ وتُغْرَسُ إلّا في مَنابِتِها النَّخْلُ؟

والخَطّيّ: **الرمح**، **والوَشِيجُ**: شجر الرِّماح، أي لا يَلِدُ الكِرامَ إلّا الكِرامُ.

❋ ❋ ❋

(١) **الطَّوَى**: الجُوع، طَوِيَ يَطْوَى طَوًى، فهو طاوٍ وطَيّانُ. الصَّحاح للجوهري.

(٢) ديوان زهير بن أبي سُلْمَى ص٨٧. والبيت من البحر الطويل.

١٩- الخلاف بين الزوجين

لا شيءَ يهُزُّ أركانَ البيت، ويُزلزلُ كِيَانَه، ويأتي على قواعدِه، ويجعلُه خاويًا على عروشِه، كالخلافِ بين الزوجَيْن، إلى الحدِّ الذي ينتهي بهما إلى التمرد والتوتر، وضَياعِ الحياءِ والأدب.. إن هذا الخلافَ لا يقضي على كلّ أملٍ في عودةِ الحياة إلى البيت فحسبُ، ولا على كلِّ أملٍ في إشراقةِ البَسَماتِ من جديد، وإنما يَعصِفُ بالأولادِ الصغارِ وبمستقبلِهم، كما عَصَفتْ ريحُ السَّمومِ بقومِ عاد، ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف ٢٥].

ولو لم يكنْ للزوجَيْن أولادٌ لَهَانَ الأمر، ولَذَهب كلٌّ إلى سبيله.. ولكنْ إذا كان للزوجَيْن أولادٌ فالخَطْبُ جَلَل، والخسارةُ فادحة.. كلما اشتدَّ الخلافُ اكْفَهَرَّتْ وجوهُهم، وجَمَدَ الدمُ في عروقهم، وضاقتْ صدورُهم كأنما يَصَّعَّدُون في السماء! أو كأنما يتنفّسون من سَمِّ الخياط! وتراهم ينظرون إليك وهم لا يُبصرون!

يموتون مع كلِّ خلاف، وينتفضونَ مع كلِّ صيحة، وترتفعُ درجةُ كآبتهم وتعاستِهم بقَدْرِ ما ترتفعُ درجةُ الشِّقاق.. وإذا كان هذا هو حالَهم ولا تزالُ أعمدةُ البيت قائمةً، فكيف لو خرَّ عليهم السقفُ من فوقهم، وانحلَّتِ العروةُ الوثقى، ورُدَّتِ الأبوابُ في وجوههم، وارتعدتْ فرائصُهم، وخارَتْ قُوَاهُم، أمامَ زوجةِ الأبِ بكلّ ما فيها من لؤمٍ وخِسّةٍ، وزوجِ الأمّ بكلّ ما فيه من غِلظةٍ وشراسة؟!

البيتُ الإسلاميُّ الذي يَحرِصُ عليه الإسلام، ويُحيطهُ بالرعايةِ والبركة، والذي يُرجى له طُولُ الحياة، يقومُ أولَ ما يقومُ على أسسٍ قويةٍ من السكينةِ والمودةِ والرحمة، وهذه المعاني تمنحهُ المناعةَ من داخله، والحَصانةَ من خارجه، وهي ينابيعُ ثَرّةٌ، تغسلُ النفوسَ أولًا بأول، وتجعل البيتَ كأنه مرآةٌ صافيةٌ، لا يُرى فيها إلا الجمالُ والحقّ، وتقضي على عواملِ الفسادِ والشرّ، التي تتربصُ بالبيتِ من خارجه كي تَهدِمَه على أصحابه.. وفي هذا يقول الحق جل جلاله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم ٦].

وفي تفسير هذه الآية يقولُ سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ: (إن المؤمنَ مكلَّفٌ هِدايةَ أهلِه، وإصلاحَ بيتِه، كما هو مكلَّفٌ هِدايةَ نفسِه وإصلاحَ قلبِه.

إن الإسلامَ دينُ أُسرة، ومِن ثَمَّ يقررُ تبعةَ المؤمن في أسرته، وواجبَه في بيته، والبيتُ المسلمُ هو نَواةُ الجماعةِ المسلمة، وهو الخليةُ التي يتألفُ منها ومن الخلايا الأخرى ذلك الجسمُ الحيُّ: المجتمعُ الإسلامي.

إن البيت الواحدَ قلعةٌ من قلاع هذه العقيدة، ولا بدَّ أن تكونَ القلعةُ متماسكةً من داخلها، حصينةً في ذاتها، كلُّ فردٍ فيها يقفُ على ثُغْرةٍ لا يُنفَذُ إليها، وإلّا تَكُنْ كذلك سَهُلَ اقتحامُ المعسكر من داخل قِلاعِه، فلا يصعُبُ على طارقٍ، ولا يَستعصي على مُهاجِم! وواجبُ المؤمنِ أن يتجه بالدعوةِ أولَ ما يتجهُ إلى بيتِه وأهلِه، وواجبُه أن يُؤمِّنَ هذه القلعةَ من داخلها، وواجبُه أن يَسُدَّ الثُّغراتِ فيها قبل أن يذهبَ عنها بدعوته بعيدًا). في ظلال القرآن ٨/ ١٧٠.

ليس معنى هذا أنَّ البيتَ الإسلاميَّ يعيشُ في جوٍّ من الإرهاب والأحكام العُرفية.. وليس معنى هذا أن البيتَ الإسلاميَّ يقومُ على الصَّرامةِ والجِدّ، ولا مكانَ فيه للابتسامةِ الحلوةِ، والطُّرفة البريئة، والمُزاح الحقّ..

وليس معنى ذلك أن البيتَ الإسلاميَّ كلَّه خالٍ من الخلاف، كَلّا! فلا يخلُو بيتٌ من الخلاف، لأن الناسَ يختلفون في كثيرٍ، ولكنه خلافٌ يُجدّدُ الحُبّ، ويُلهبُ المشاعر، ويعمّقُ العلاقةَ الزوجية، خلافٌ مهذَّب، خلافٌ معقَّم، خلافٌ خالٍ من النيّةِ السيئة، والنظرةِ الخبيثة، واللفظ الجارح.. وهذا النوعُ من الخلافاتِ لا يتنافى مع السكينةِ التي تعبرُ عن الميلِ القلبي، والمودةِ التي تفجّرُ ينابيعَ الحبِ، والرحمةِ التي تسيلُ رِقّةً وعذوبة.

والأولادُ الصغارُ أحوجُ ما يكونون إلى هذه الرحمة، مَثَلُهم مَثَلُ الزهورِ اليانعة، أو الخامة من الزرع، تُحرِقُها الحرارةُ اللافحة، ويَخنُقُها البردُ القارس، ولا حياةَ لها إلا في جوٍّ من القصدِ والاعتدال.

ولنا في رسول الله ﷺ أسوةٌ حسنة، فماذا كان هديُه في بيته؟ عن الأسودِ بن يزيدَ قال: سألتُ عائشة رضي الله عنها: ما كان النبيُّ ﷺ يصنعُ في بيته؟ قالت: (كان يكونُ في مَهْنةِ أهله - تعني خدمةَ أهله - فإذا حَضَرَتِ الصلاةُ خرجَ إلى الصلاة) رواه البخاري.[1] أي أنه كان يساعدُ أهله في

---

(١) صحيح البخاري (٦٧٦).

و«**المَهنة**» بفتح الميم، وحُكي الكسر، وأنكره الأصمعي. انظر الصَّحاح للجوهري، الفائق في غريب الحديث للزمخشري، المصباح المنير للفيومي، فتح الباري للحافظ ابن حجر.

أعمالِ البيت.[١]

وفي روايةٍ لها رضي الله عنها: (كان رسول الله ﷺ يَخِيطُ ثوبَه، ويَخصِفُ نعلَه، ويعملُ ما يعملُ الرجالُ في بيوتهم).[٢]

وفي روايةٍ أخرى لعائشة رضي الله عنها: (كان ألينَ الناس، وأكرمَ الناس، وكان رجلًا من رجالكم، إلا أنه كان ضَحّاكًا بَسّامًا).[٣] أي أنه كان رجلًا كسائرِ الرجال، يبدُو بَشَرًا مِثلَهم، ولكنه كان سيدَ الرجالِ، كاملَ الرجولة، موفورَ الهيبة، ومع هيبته كان بسّامًا، بهذه الصيغة: صيغة المبالغة، ولم تقل باسمًا، لأن البسمةَ الواحدةَ قد تكونُ عارضةً، وقد تكونُ عن تكلفٍ، وقد تكون غامضة، يُخفي وراءها سرًّا دَفينًا، أما من طبيعته الابتسامُ وطَلَاقةُ الوجه، فليس وراءَه إلا صفاءُ النفس ونقاءُ السريرة، وهذا لا يتنافى مع الرجولةِ ومع مظاهرها الصادقة.

---

(١) قال ولي الدين أبو زرعة العراقي في طرح التثريب ٨/ ١٨١: المَهنةُ المذكورة في رواية البخاري مفسَّرةٌ بما في رواية أحمد مِن خَصْفِ نعلِه وخِياطةِ ثوبِه، وبما في رواية الترمذي في الشمائل مِن فَلْيِ ثوبِه وحلبِ شاتِه وخِدمةِ نفسِه، أما خدمةُ أهله في الحاجات المختصة بهن فهو غير مراد في الحديث فيما يظهر، ولا يمكن لأمهات المؤمنين رضي الله عنهن السكوتُ عن ذلك والموافقةُ عليه. اهـ.

(٢) مسند أحمد (٢٤٩٠٣)، صحيح ابن حبان (٥٦٧٧).

(٣) رواه إسحاق بن راهَوَيْهِ في مسنده (١٧٥٠)، وابن سعد في الطبقات الكبرى ٢/ ٣٦٥، وابن شَبّةَ في تاريخ المدينة ٢/ ٦٣٧، وفي سنده حارثة بن أبي الرِّجال، ضعيف، كما في تقريب التهذيب.
وأحاديث تبسُّمِه ﷺ كثيرة مشهورة.

إن بعضَ الناس يظنون أن الرجولةَ تتجلَّى في تقطيب الجبين، وعُبوس الوجه، وسلاطةِ اللسان، وضخامةِ الصوت، وتكلّفِ الوقار.. ولكنَّ هذه المظاهرَ قد تُخفي وراءها نُفوسًا هزيلةً، أو جروحًا غائرة، أو ضعفًا يُشبه العجز، أو عُقَدًا تستعصي على الحلّ، أو سحابةً تحجُبُ عنه الرؤية، فيميلُ صاحبها إلى العنفِ المصطنَع، وإلى الحماقة - والحماقة أَعْيَتْ مَن يُداوِيها[1] - وإلى أسبابِ الندمِ حيثُ لا ينفعُ الندم.

ورسول الله ﷺ يقولُ فيما روتْه عائشة رضي الله عنها: «**إن الله يحبُّ الرِّفْقَ في الأمر كلِّه**» متفق عليه،[2] ويقولُ فيما روته أيضًا: «**إن الرِّفْقَ لا يكونُ في شيء إلا زانَه، ولا يُنزَعُ من شيء إلا شانَه**» رواه مسلم.[3]

ويقولُ ﷺ فيما رواه أبو أُمامةَ الباهليّ رضي الله عنه: «**أنا زعيمٌ ببيتٍ في رَبَضِ الجنة لمن تركَ المِراءَ وإن كان مُحِقًّا، وببَيتٍ في وسطِ الجنة لمن تركَ الكذبَ وإن كان مازحًا، وببَيتٍ في أعلى الجنة لمن حَسَّنَ خُلُقَه**» رواه أبو داود.[4]

ويقولُ ﷺ فيما رواه الترمذيُّ - وقال: حسن صحيح - عن أبي الدرداء رضي الله عنه: «**ما شيءٌ أثقلَ في ميزانِ المؤمنِ يومَ القيامة من خُلُقٍ حَسَن، وإن اللهَ**

---

(١) جزء من بيت مشهور من البحر البسيط:

لِكُلِّ داءٍ دواءٌ يُسْتَطَبُّ بِهِ إلّا الحماقةَ أَعْيَتْ مَن يُداوِيها

(٢) صحيح البخاري (٦٠٢٤)، صحيح مسلم (٢١٦٥).

(٣) صحيح مسلم (٢٥٩٤).

(٤) سنن أبي داود (٤٨٠٠). وروى نحوَه الترمذي وحسّنه (١٩٩٣)، وابن ماجه (٥١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه. و«**رَبَضُ الجنة**»: أسفلُها، أو نواحِيها وجوانبُها من الداخل.

يُبغِضُ الفاحشَ البذيء».[١] والبذيء الذي يتكلم بالفُحش ورديء الكلام.

ويقولُ ﷺ: «.. **ألا أُخبِرُكم بأهلِ النار»؟ قالوا: بلى! قال: «كلُّ عُتُلٍّ جَوّاظٍ مُستكْبِر»** متفق عليه.[٢]

ويقولُ ﷺ فيما رواه أبو داود عن عبد الله بن عمرِو بن العاص رضي الله عنهما: «**مَن لم يَرحَمْ صغيرَنا، ويَعرِفْ حقَّ كبيرِنا، فليس منا»**.[٣]

وإذا كانَ هذا هو هَدْيَ الرسولِ ﷺ لأمّتِه، فكيفَ كانت سياستُه العملية لأحفاده؟

روى البخاريُّ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قبّلَ رسولُ الله ﷺ الحسنَ بن عليّ رضي الله عنهما، وعنده الأقرعُ بن حابسٍ التميميّ جالسًا، فقال الأقرع: إن لي عَشَرةً من الولدِ، ما قبّلتُ منهم أحدًا! فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: «**مَن لا يَرحَمْ لا يُرحَمْ»**.[٤] وفي رواية عائشة رضي الله عنها عند الإمام البخاري: «**أَوَأَمْلِكُ لك أنْ نزَعَ اللهُ من قلبِكَ الرحمة»!**[٥]

كان هذا إنكارًا من الرسول ﷺ لهذه الخشونة التي تحلَّى بها الأقرع

---

(١) جامع الترمذي (٢٠٠٢)، سنن أبي داود (٤٧٩٩)، مسند أحمد (٢٧٤٩٦).

(٢) صحيح البخاري (٤٩١٨)، صحيح مسلم (٢٨٥٣) عن حارثةَ بن وَهْب الخُزاعي رضي الله عنه.
و«**العُتُلُّ**»: هو الغليظ الجافي الشديد الخصومة بالباطل، و«**الجَوّاظ**»: الجَمُوع المَنُوع، وقيل: الكثير اللحم المُختالُ في مِشيتِه. انتهى باختصار من فتح الباري.

(٣) سنن أبي داود (٤٩٤٣)، جامع الترمذي وقال: حسن صحيح (١٩٢٠)، مسند أحمد (٦٧٣٣).

(٤) صحيح البخاري (٥٩٩٧)، صحيح مسلم (٢٣١٨).

(٥) صحيح البخاري (٥٩٩٨)، صحيح مسلم (٢٣١٧).

ﷺ، وتوبيخًا له على هذه المعاملةِ القاسيةِ التي يعامل بها أبناءه، وتعليمًا له بأن الإسلامَ غيرُ ذلك.. إن الإسلامَ يَنْبوعُ الرحمةِ التي تَخْصِبُ به القلوبُ، وينمو به الحب.

وروى البخاري عن أبي قَتَادةَ الأنصاري ﷺ قال: (رأيتُ النبيَّ ﷺ يَؤُمُّ الناسَ وأُمامةُ بنتُ أبي العاص - وهي ابنةُ زينبَ بنتِ النبيِّ ﷺ - على عاتِقِه، فإذا ركَعَ وضَعَها، وإذا رفَعَ من السجود أعادَها).(١)

وأخرج النسائي والحاكم على شرط الشيخيْن من حديث شدّادِ بن الهادِ ﷺ قال: خرَجَ علينا رسولُ الله ﷺ في إحدَى صلاتَي العِشاء وهو حاملٌ حَسَنًا أو حُسينًا، فتقدَّم رسولُ الله ﷺ فوضَعَه، ثم كبَّر للصلاة فصلّى، فسجَدَ بين ظهرانَيْ صلاتِه سجدةً أَطَالَها، فرفعتُ رأسي وإذا الصبيُّ على ظهرِ رسولِ الله ﷺ وهو ساجد، فرجعتُ إلى سجودي.

فلمّا قضى رسولُ الله ﷺ الصلاةَ قال الناس: يا رسولَ الله، إنك سجدتَ بين ظهرانَيْ صلاتِك سجدةً أَطَلْتَها حتى ظنَنّا أنه قد حدَثَ أمرٌ، أوْ أنه يُوحَى إليك. فقال النبي ﷺ: «**كلُّ ذلك لم يكن، ولكنّ ابني ارتَحَلَني، فكرهتُ أنْ أُعجِّلَه حتى يقضيَ حاجتَه**».(٢)

«ارتَحَلَني»: أي اتَّخذَني راحلةً، فركبَ على عُنقه، وظلَّ الرسول ﷺ ساجدًا صابرًا حتى نزلَ سِبْطُه وحدَه.

---

(١) صحيح البخاري (٥١٦) (٥٩٩٦)، صحيح مسلم (٥٤٣).

(٢) سنن النسائي (١١٤١)، مسند أحمد (١٦٠٣٣)، مستدرك الحاكم (٤٧٧٥) (٦٦١٣).

وعن بُريدةَ بن الحُصيب رضي الله عنه قال: بينا رسولُ الله ﷺ على المنبر يخطبُ، إذ أقبَلَ الحسنُ والحسينُ عليهما قميصانِ أحمرانِ، يَمشِيانِ ويَعْثُران، فنزلَ وحَمَلَهما، فصَعِدَ بهما المنبرَ، ثم قال: «**صدقَ الله: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾** [التغابن ١٥]، **رأيتُ هذَينِ يمشيانِ ويَعْثُرانِ في قَميصَيْهِما، فلم أصبِرْ حتى نزلتُ فحملتُهما**» رواه النسائي.(١)

وروى الجماعة عن أنسٍ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**إني لَأَدخُلُ في الصلاة وأنا أُريدُ إطالتَها، فأسمعُ بكاءَ الصبيّ، فأَتجوَّزُ في صلاتي، مما أَعلَمُ مِن شدّةِ وَجْدِ أُمِّه مِن بكائه**».(٢)

فصلاةُ الله وسلامه عليك يا مَنْ أرسلَكَ اللهُ رحمةً للعالمين، وصَدَق مَن سَمّاك الرؤوفَ الرحيم.

❊ ❊ ❊

(١) سنن النسائي (١٤١٣) (١٥٨٥)، سنن أبي داود (١١٠٩)، جامع الترمذي وحسّنه (٣٧٧٤)، سنن ابن ماجه (٣٦٠٠)، مسند أحمد (٢٢٩٩٥).

(٢) صحيح البخاري (٧٠٩)، صحيح مسلم (٤٧٠).
ورواه البخاري أيضًا (٧٠٧) عن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه.

٢٠- الْزَمُوا أولادَكم

عندما يبلغُ الطفلُ سنَّ التمييز، ويدركُ الفرقَ بين ما يجوز وما لا يجوز، بين ما يضرُّ وما ينفعُ، ويصبح مطلوبًا من نفسه أن يعتمدَ على نفسِه، وأن يحميَ نفسَه بنفسِه، سيُفاجَأُ خارجَ البيتِ بأشياءَ كثيرةٍ ليست في البيت.. سيرى كبارًا غيرَ والدَيْه، وصغارًا غيرَ إخوتِه، وشوارعَ مكتظّةً بخليطٍ من الناس والمرْكبات، ومدارسَ مزدحمةً بكثير من التلاميذ من مُختلِفِ البيئاتِ واللَّهَجاتِ والأخلاق، كأنه سائحٌ نزلَ في بلدٍ غيرِ بلدِه لأول مرة، أو كأنه في وطنٍ غيرِ وطنه.. لا شكَّ أنه سيشعرُ بالغربة، ولكنْ سرعانَ ما تزولُ هذه الغربةُ من شعورِه، وينسجمُ مع ما يوافقُ ميوله وهواه.

من هذا الوقت لا تنتهي مسؤوليةُ البيت، وإنما ستبدأ، ولا تَخِفُّ، وإنما ستتضاعف.. لقد كان في مكانٍ لا يغيبُ فيه عن عيونهم، فأصبح في مكانٍ لا يجوزُ أن يغيبَ عن وجدانهم.. لقد كان في مكانٍ يغمُرُه الحبُّ والحنان، فأصبح الآن في مكانٍ تختلطُ فيه الدموعُ بالبَسَمات.. لقد كان يَنعَمُ بالإكرامِ والإعزاز، فأصبح الآن موضعَ المؤاخذة والحساب.

(١)فالولد إذن يحتاجُ إلى ملازمةٍ تامة، لا إلى سؤالٍ عابر، ولا إلى

---

(١) كان المؤلف ذكر هنا حديثًا فقال: ومن هنا نجد الرسول ﷺ يقول: «**الْزَموا أولادَكم، وأحسنوا أدبهم**». (كتاب إسلامنا لسيد قطب). اهـ. والحديث المذكور لا أصل له بهذا اللفظ! وروى ابن ماجه (٣٦٧١) بسند ضعيف جدًّا، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أَكرِمُوا أولادَكم، وأَحسِنوا أدبَهم**».

نصيحةٍ فاترة، وإنما إلى عقلٍ لا يغفُل، وشعورٍ لا يهدأ، وضميرٍ لا ينام، لا على أنها حراسةٌ فيثورَ ويغضب، ولا على أنها وِصايةٌ فتأخُذَه العزةُ بالإثم ويتمرد، ولكنْ على أنها ملازمةُ الحبيب لحبيبه وقرةِ عينه، فيعاشرُه والدُه برِفقٍ في البيت، ويسألُ عنه بدقّةٍ في المدرسة، ويعرفُ كلَّ شيء عن أصدقائه بلباقة، فكم من أولادٍ كرهوا العلمَ بفضل معلِّميهم! وكم من أولادٍ تعمَّدوا الفشلَ انتقامًا من آبائهم! وكم من صديقٍ أودى بصديقه حسدًا وغيظًا!

وملازمة الأب لابنه تقتضي منه أن يُعلّمَه الصلاة، فقد قال رسول الله ﷺ: «**مُرُوا أولادَكم بالصلاة وهم أبناءُ سبعِ سنين، واضربوهم عليها وهم أبناءُ عشرٍ، وفَرِّقُوا بينهم في المضاجع**» حديث حسن رواه أبو داود.(١)

وتقتضي منه أن يَصحَبَه إلى المسجد، وأن يصلّيَ إلى جِواره في جماعة، يقول النبي ﷺ: «**صلاة الجماعة تفضُلُ صلاة الفَذّ بخمسٍ وعشرين درجة**» متفق عليه.(٢)

---

(١) سنن أبي داود (٤٩٥)، مسند أحمد (٦٦٨٩)، مستدرك الحاكم (٧٠٨) عن عبد الله بن عمرِو بن العاص رضي الله عنهما.

وروى نحوَه أبو داود (٤٩٤)، والترمذي وحسنه (٤٠٧)، وأحمد (١٥٣٣٩) عن سَبْرةَ بن مَعْبَدٍ الجُهَني رضي الله عنه.

(٢) صحيح البخاري (٤٧٧)، صحيح مسلم (٦٤٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ورواه البخاري (٦٤٦) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

ورواه النسائي (٨٣٩) ومسند أحمد (٢٤٢٢١) عن عائشة رضي الله عنها.

هذا، وقد رواه البخاري (٦٤٥)، ومسلم (٦٥٠)، والترمذي (٢١٥) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، بلفظ: «.. **بسبع وعشرين درجة**». قال الترمذي: (وفي الباب عن عبد الله بن مسعود، =

وأن يُرغّبه في انتظار الصلاة بعد الصلاة، قال النبي ﷺ: «**ألا أدُلُّكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات**»؟ قالوا: بلى يا رسول الله! قال: «**إسباغُ الوضوء على المكارِه، وكثرةُ الخُطا إلى المساجد، وانتظارُ الصلاة بعد الصلاة، فذلِكُم الرِّباط، فذلكم الرباط**» رواه مسلم،[1] فيألفَ هذا الجوَّ الذي يعيشُ فيه الصالحون.

والمسلمُ في الوقت الذي ينتظرُ فيه الصلاة تستغفرُ له الملائكة، وتدعو له، يقول الرسول ﷺ: «**الملائكةُ تصلي على أحدكم ما دام في مُصَلّاهُ - ما لم يُحْدِثْ-: اللهم اغفِرْ له، اللهم ارحَمْه. لا يزال أحدُكم في صلاةٍ ما دامت الصلاةُ تَحبِسُه، لا يمنعه أن ينقلبَ إلى أهله إلا الصلاة**» متفق عليه.[2]

ويكون الانتظارُ أبهى وأكملَ وأعظمَ أجرًا إذا شَغَلَ الوقتَ في حضورِ حَلَقاتِ القرآن ومجالسِ العلم، ليكون من خيارِ الناس، كما قال المصطفى ﷺ: «**خيرُكم من تعلَّم القرآن وعلَّمَه**» رواه البخاري.[3]

إن المسجدَ دارُ تربيةٍ روحية، تصفو فيها النفوسُ من السَّخَائم، وتَجِلُّ فيها القلوبُ عن الصغائر، وتَنعَمُ فيها الأرواحُ بأنوار الله وفُيوضاتِه وبركاته ورَحَماتِه، يقول الرسول صلوات الله عليه: «**ما اجتمع قومٌ في بيتٍ من**

= وأُبَيِّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وأبي سعيد، وأبي هريرة، وأنس بن مالك.. وعامةُ من روى عن النبي ﷺ إنما قالوا: «**خمسٍ وعشرين**»، إلا ابنَ عمر فإنه قال: «**بسبع وعشرين**». اهـ.

(١) صحيح مسلم (٢٥١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح البخاري (٦٥٩)، صحيح مسلم (٦٤٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) صحيح البخاري (٥٠٢٧) عن عثمان بن عفان رضي الله عنه.

بيوت الله، يتلون كتابَ الله ويَتَدَارَسُونه بينهم إلا نزلتْ عليهم السَّكِينة، وغَشِيَتْهم الرحمة، وحَفَّتْهم الملائكة، وذَكَرَهم الله فيمن عندَه» رواه مسلم وأبو داود.(١)

أيُّ إكرامٍ أعظمُ من هذا الإكرام؟! وأيُّ فضلٍ أكبرُ من هذا الفضل؟! والله ذو الفضل العظيم، إن الطفلَ إذا أُشرِبَ قلبُه حُبَّ المساجد، سيجدُ نفسه بعد حينٍ منجذِبًا إليها، لا يُطيقُ البعدَ عنها، لأنَّ من عاش في النورِ يكره أن يعيشَ في الظلام، ومن جرّبَ حلاوةَ الطاعة لا تقبلُ نفسُه مرارةَ المعصية.

وهذه الملازمة للولد تدعو الأبَ أن تكون عينُه على ابنه في المدرسة، يَعرفُ موعدَ ذهابِه وإيابِه، وأوقاتَ حضورِه وغِيابِه، وأسبابَ تقدّمِه وتأخّرِه، وصِلَتَه بمُدرِّسِيه، وعَلاقتَه بإخوانِه، وسلوكَه في المدرسة، وفي خارج المدرسة، كلُّ هذا وغيرُه مطلوبٌ من الأب أن يقف عليه أولًا بأول.

فليس كلُّ تلميذٍ خرجَ من البيتِ ذهبَ إلى المدرسة، فكثيرٌ من التلاميذ الكبار يقضُون يومهم الدراسيَّ في دُورِ الملاهي، أو في الحدائق العامة! ثم يعودون إلى بيوتهم في الوقتِ المناسب، ويتظاهرون بالعَناء والتعب من طولِ الدروس، وصُعوبةِ الامتحانات! وهم يُخادعون أَهْلِيهِم، وما يَخدعون إلا أنفسَهم!

وليس كلُّ من دخل الامتحانات النهائية خرجَ منها ناجحًا مُظفَّرًا، بل كثيرٌ من التلاميذِ الكبار يقضُون السنواتِ في رسوبٍ مستمرّ، ولا يعلمُ

(١) صحيح مسلم (٢٦٩٩)، سنن أبي داود (١٤٥٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

آباؤهم من أحوالهم شيئًا! حتى يُفاجَؤُوا بفَصْلهم من المدرسة لانتهاءِ مدةِ رسوبهم! وهؤلاء التلاميذُ يتظاهرون بالنجاح في كلِّ عام، ويتسلّمون الهدايا الثمينة، والمكافآتِ الضخمة، والتهانيَ الحارّة، وآباؤهم من شدةِ جهلهم غافلون، وصدق الله العظيم: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج].

وليس كلُّ من جلس أمامَ الأستاذ، عقلُه وتفكيرُه مع الأستاذ، فمن التلاميذ الكبار من يكونُ عقلُه قد خرجَ في رحلةٍ غراميّة، أو قصةٍ بوليسية، أو كيفَ يحتالُ على الأستاذِ ليهرُبَ، أو كيف يَكذِبُ على أهله ليَنهَبَ، أو كيفَ يَبرَعُ في إلقاءِ طُرفةٍ سخيفة يُضحِكُ بها أمثالَه! ليَهدُرَ بها كرامةَ الأستاذ، وهيبةَ العِلم، وحُرمةَ الفَصْل، وحُسنَ الخُلُق! هذا وأمثالُه كما قال الحق جل جلاله: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف].

وهذه الملازمةُ تقتضي من الأبِ أن يَشغَلَ أوقاتَ فراغِ ولدِه فيما يُفيد، وفيما يحركُ ذكاءه، ويُبرِزُ مَواهبَه، ويصونُ إيمانَه، ويُوجِّهُه وِجْهةَ الخير والصلاح، فإن المسلم إذا لم تَشْغَلْه الطاعةُ شَغَلَتْه المعصية، ومن لم يَشْغَلْه الذكرُ شَغَلَتْه الغفلة، ومن ضلَّ به طريقُ الحقِّ الْتَوَتْ به دُروبُ الباطل، ومن ترك زرعَه في الطريقِ حُطِّم، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور]، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد].

ومَن رَعَى غَنَمًا في أرضِ مَسْبَعةٍ ونام عنها، تَوَلَّى رَعْيَها الأسَدُ[1]

(١) البيت من البحر البسيط من قصيدة لابن الرومي في ديوانه ١/ ٤٩٩.

لقد ابتدأ العالَمُ يهتمُّ بأمورِ الطفولة، ويجعلُ لها يومًا عالميًّا، وكلُّ دولةٍ من الدول تجعلُ للطفولة أسبوعًا، تشتركُ فيه جميعُ أجهزةِ الإعلام، لنشرِ الوعي الصحي والثقافي والرياضي والنفسي لعالَمِ الطفل، حتى ينشأَ الطفلُ سليمَ البدنِ، صافيَ الذهنِ، كريمَ الخُلُق.

إن الطفولة هي الأساسُ الذي سيرتفعُ عليه البناء، بناءُ الشخصية، ولا شكَّ أن أبناءَ اليوم هم رجالُ المستقبل، ورجالُ الغد، وحُماةُ الوطن، وأُباةُ الضَّيْم، وإذا كان الأساسُ قويًّا، كان البناءُ قويًّا يقاومُ كلَّ عوامل التَّعْرية.

إن الإسلامَ لا يرضى أن يكونَ نصيبُ الطفلِ كلَّ عام أسبوعًا واحدًا، ثم بعد ذلك يُهمَل.. ولا يرضى أن يكون كلُّ نصيبه في العام نَشَراتٍ تُعَلَّق، ونصائحَ تُكرَّر، ونَدَواتٍ تَنْفَضّ، ثم بعد ذلك يُنسَى.. ولا يرضى أن يكونَ كلُّ نصيبه من حبِّ والدَيْه هدايا تُقدَّم، ولُعَبًا لا تُحصى، ومَطالبَ لا تُرَدّ، وترفيهًا لا يَنقطِع.

وإنما يريدُ الإسلامُ أن تحيطَ به العيونُ ولا تغفُل، وأن تُراقبَه الأفهامُ ولا تَنخدِع، وأن نتعاونَ جميعًا على تربية جيلٍ قويٍّ ليس فيه مُعوَّق، جيلٍ غنيٍّ ليس فيه سائلٌ محترف، جيلٍ لا يرضى بالدَّنِيّة، جيلٍ مثقّفٍ ليس فيه أمّيّ، جيلٍ مستقيمٍ ليس فيه مُنحرف، جيلٍ يعتزُّ بدِينِه، ولا يركعُ إلا لله، ويقولُ أينما كان: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام].

❊ ❊ ❊

٢١- القدوة الحسنة

كلُّ طفل يتلمَّسُ قُدوتَه في الحياة، فلا يجدُ خيرًا من أبيه ومُعلّمه.. وكلُّ طفلةٍ تتلمَّسُ قُدوتَها في الحياة، فلا تجد خيرًا من أُمّها ومُعلِّمتها.. فالآباءُ والأمهاتُ، والمعلّمون والمعلّمات، خيرُ مَن يراهم الأطفالُ في طفولتهم، ولذلك يُقلّدونهم في حركاتهم وسَكَناتهم، وقيامِهم وقُعودهم، ومَشيِهم ودَبيبِهم، وجِدِّهم وهَزْلِهم، في عُبوسِ وجوهِهم وطَلاقتِها، في قسوةِ قلوبهم ورَحمتِها، في كلِّ ما يميزهم عن غيرهم.

وهؤلاء إذا صَلَحُوا صَلَحَ الأطفال، واستقامتْ على الهُدى أعوادُهم، واشتدتْ على الحقِّ عظامُهم، وسَرَى في دمائهم حبُّ الخيرِ والبِرِّ والمعروف.. أما إذا دَبَّ فيهم الخَلَلُ ولو تظاهروا بالعِفّة، أو كان عنْ غيرِ قصد، فإن هذا الخَلَلَ سوف يسري في نفوسهم كما يسري الداءُ في الأجسام السليمة، أو كما تسري النارُ في الهَشِيم اليابس، فإذا لم تُدرِكْهم رحمةُ الله جَمَحَت نفوسُهم، وغَلُظت أكبادُهم، واستعصَتْ على الهدى قلوبُهم، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون ٤].

من هنا نرى في المساجدِ أطفالًا صغارًا كأنهم زهورٌ يانِعة، أو فَرَاشاتٌ جميلة، يعرفون أدبَ المساجد، وحلاوةَ التلاوة، وجمالَ الذكر، وكرامةَ العلماء، كأنهم ملائكةٌ في صورةِ بشر، أو رجالٌ في هيئةِ أطفال..

بينما ترى غيرَهم خارجَ المساجدِ يتناطحون تَنَاطُحَ الكِباش! وينطلقون انطلاقَ القِرَدة! لا يحترمون الكبيرَ، ولا يرحمون الصغير! ولا يَسْلَمُ من أذاهُم أحد! تفوحُ من أفواهِهم رائحةُ السجائر وهم صغار! ويسقطُ من ألسنتهم سَقَطُ الكلام وهم تلاميذ! كيفَ حدث هذا وذاك، وكلُّهم وُلِدوا على الفطرة التي فطر اللهُ الناسَ عليها، وتَرَبَّوْا في رعايةِ آباءٍ وأمهات - وكلُّ راعٍ مسؤولٌ عن رعيته - وأعادَ صياغتَهم من جديدٍ مُدرِّسون ومدرِّسات، يكادُ كلٌّ منهم أن يكونَ رسولًا؟!

وبينما ترى صغيرةً من الصغيراتِ في ملابسِ الحجاب، تستَحْيي أن تظهرَ منها شعرةٌ واحدة، فتقفُ أمامَها مبهورًا مما يعلوها من وَقَار، مأخوذًا مما يكسوها من أدب.. إذا بك ترى غيرَها لا تستوقفُ منك الفِكرَ إلا رِثاءً لها، ولا تستلفِتُ منك النظرَ إلا إشفاقًا عليها، لماذا؟!

لأن الأولى وجَدتْ أُمًّا أو معلّمةً تحافظُ على نفسها، وتستجيبُ لأوامرِ ربها، وتؤمنُ بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب ٥٩]، وبقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [الأحزاب ٣٣]، وبقوله تعالى: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَا﴾ [النور ٣١].

وأما الثانية فوجَدتْ أمًّا ومعلّمة لا تُعنَى إلا بالمظاهر، ولا تؤمنُ إلا بالموضة، ولا تستجيبُ إلا لمصفِّفي الشعر، ومصمِّمي الأزياء، ولا تخافُ إلا من الناس أن يتّهموها بالتخلّف، أو يَرْمُوها بالرجعية.

من هنا كان دَورُ الآباءِ والأمهات، والمعلّمين والمعلّمات، دَورًا مُهمًّا

وبارزًا، خصوصًا في سِنِّ التمييز وما بعده، لأن التربيةَ بالعمل أجدى منها بالقول.

وهذا الدورُ يتطلبُ من كلٍّ منهم أن يكونَ الصلاحُ فيه طبيعةً لا تكلفًا.. وأن يكونَ التديّنُ فيه سجيةً لا تمثيلًا.. وأن يكونَ الأدبُ عنده حقيقةً لا رياءً، لأنه:

ثوبُ الرياء يَشِفُّ عما تحتَه ... فإذا الْتَحَفْتَ به فإنك عاري[1]

هذا الدور يتطلبُ من كلٍّ منهم أن يُصلحَ نفسَه أولًا قبلَ أن يُصلحَ غيرَه، وأن يحافظَ على دِينِه قبلَ أن يُطالِبَ به سِواه، وأن يَنهَى نفسَه عن المحرَّماتِ قبل أن ينهى غيرَه، وأن يُطابِقَ فِعلُه قولَه.. فإذا تكلّمَ صَدَق، وإذا وَعَدَ وَفَى، وإلا سقط من العيون التي كانت تُغْمَضُ أمامَه احترامًا، واهتزّتْ صورتُه في النفوسِ التي اتخذَتْه مِثالًا، وانطفأتْ هيبتُه حتى يُغرِيَ الأطفالَ بالتَّجرُّؤِ عليه، وعدم الاهتمامِ به.

عن عبد الله بن عامرٍ رضي الله عنه قال: أتانا رسولُ الله ﷺ في بيتنا وأنا صبيّ، فذهبتُ أخرجُ لألعَبَ، فقالت أمّي: يا عبدَ الله! تَعَالَ أُعطِك، فقال لها رسول الله ﷺ: «**وما أَرَدْتِ أن تُعطِيهِ**»؟ قالت: أُعطِيهِ تمرًا، فقال لها رسول الله ﷺ: «**أَمَا إنّكِ لو لم تُعطِيهِ شيئًا كُتِبَتْ عليكِ كَذْبَةٌ**» رواه أبو داود والبيهقي.[2]

---

(١) البيت من البحر الكامل من قصيدة لمحمد علي التهامي (ت٤١٦هـ)، في ديوانه ص٣١١.

(٢) سنن أبي داود (٤٩٩١)، مسند أحمد (١٥٧٠٢)، السنن الكبرى للبيهقي ٢١/ ٥٥ (٢٠٨٧٨)، شعب الإيمان للبيهقي ٤/ ٢١٠ (٤٨٢٢).

كم يقع في هذا الخطأ كثيرٌ من المربِّين، ويقولون عنه: كذبٌ أبيضُ! وليس في الإسلام كذب أصلًا، لا كذبٌ أبيضُ، ولا كذبٌ أسودُ، وإنما الكذبُ في الإسلام كلُّه أسودُ، وأَمارةٌ من أَمارات النفاق، ولا يغيبُ عن الله، وإنما يُحاسبُ عليه، صغيرًا كان أو كبيرًا: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت]. (١)

أخي المسلم: في السنة النبوية الشريفة درسٌ مُضيء، ينفع العالِمَ

---

(١) لا شك بأن الكذب من قبائح الذنوب، وفواحش العيوب، روى البخاري (٦٠٩٤) ومسلم (٢٦٠٧) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**عليكم بالصدق، فإن الصدقَ يَهدي إلى البِرّ، وإن البِر يَهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدُق ويتحرَّى الصدقَ حتى يُكتَب عند الله صِدّيقًا، وإياكم والكذب! فإن الكذبَ يَهدي إلى الفُجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرّى الكذب حتى يُكتَب عند الله كذابًا**».

لكن هناك مواضع أباح الشرع فيها الكذب، روى مسلم (٢٦٠٥) عن أمّ كُلثُوم بنتِ عُقبةَ ابنِ أبي مُعَيطٍ رضي الله عنها، وكانت من المُهاجرات الأُوَلِ اللاتي بايعْنَ النبي ﷺ، أنها سمعت رسول الله ﷺ وهو يقول: «**ليس الكذّابُ الذي يُصلح بين الناس ويقولُ خيرًا ويَنمِي خيرًا**» قال ابن شهاب الزهري: ولم أَسمَعْ يُرخَّصُ في شيء مما يقول الناسُ كذبٌ إلا في ثلاثٍ: الحربُ، والإصلاحُ بين الناس، وحديثُ الرجلِ امرأتَه وحديثُ المرأةِ زوجَها. اهـ.

فحديث الرجل لامرأته، وحديث المرأة لزوجها، في الأمور التي تشد أواصر الوفاق والمودة بينهما، أو أن يصلح بين الضَّرّات من نسائه بأن يظهر لكل واحدة أنها أحب إليه، أو كانت امرأته لا تطاوعه إلا بوعد لا يقدر عليه، فيعدها في الحال تطييبًا لقلبها، وكذلك حديث المرأة لزوجها.

وقاس العلماء على هذه الثلاث ما هو مثلها، بل هناك بعض الصور يجب فيها الكذب، كما لو اختفى إنسان من ظالم يريد سفك دمه، فسألك عن مكانه، وأنت تعلمه، فلا يجوز إخباره.

والمتعلّم، درسٌ من رسول الله ﷺ، سيدِ الخلق، ومربي العالَم، مِنْ قدوتنا وأسوتنا، ممن أمرنا الله تبارك وتعالى باتباعه، فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب٢١].

هذا الدرسُ يُلقِّنُه الرسولُ ﷺ لابن عمِّه عبدِ الله بن عباس رضي الله عنهما، وكان حينئذٍ حديثَ السِّنّ، ولْنَتْرُكِ المقامَ لأبي العباس عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: كنتُ خلفَ النبي ﷺ يومًا، فقال لي: «**يا غلام، إني أعلّمُك كلمات: احفَظِ اللهَ يحفَظْك، احفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجاهَك، إذا سألْتَ فاسألِ الله، وإذا استعنْتَ فاستعِنْ بالله، واعلَمْ أن الأمّة لو اجتمَعَتْ على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضُرُّوك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفِعَتِ الأقلامُ وجَفَّتِ الصُّحُف**» رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.(١)

وفي رواية لغير الترمذي:(٢) «**احفَظِ اللهَ تَجِدْهُ أَمَامَك، تَعَرَّفْ إلى الله في الرَّخاء، يَعْرِفْك في الشّدّة، واعلَمْ أنّ ما أَخْطَأَك لم يكُن لِيُصِيبَك، وأنّ ما أَصَابَك لم يكن لِيُخْطِئَك، واعلَمْ أنّ النصرَ مع الصبر، وأنّ الفَرَجَ مع الكَرْب، وأنّ مع العسرِ يُسرًا**».

هذه كلماتٌ، كلُّ كلمةٍ منها قلعةٌ حصينةٌ، لا تَقدِرُ شياطينُ الإنس والجن على اقتحامها، وهذه جُرعاتٌ من الهدْي النبوي يتجرعها هذا الغلامُ

(١) جامع الترمذي (٢٥١٦)، مسند أحمد (٢٦٦٩).

(٢) مسند أحمد (٢٨٠٣)، مستدرك الحاكم (٦٣٠٣) (٦٣٠٤).

الصغير من سيدِ الخلق ﷺ، لِتَحمِيَه من جميعِ المهلِكات التي تترصدُ دِينَه وخُلُقَه، كما تحمي الجُرعاتُ الطبّية الأطفالَ من شللِ الأطفال.

هذه الجُرعاتُ يقدّمها الرسول ﷺ لابن عباس الذي كان في ذلك الوقت دون العاشرةِ من عُمُرِه، كما روى عنه سعيدُ بن جبير في إحدى الروايات قوله: (قُبِضَ النبيُّ ﷺ وأنا ابنُ عَشْرِ سِنين)،[1] وقيل: ابنُ ثلاثَ عَشْرةَ سنة.

فلا تستغربْ أن تقدَّم هذه الجُرعةُ الدَّسِمةُ لغلامٍ صغير، لأنه ابن عباس.. صغيرٌ ولكنّ قلبَه كبير.. وحديثُ السِّنّ، ولكنه صار - فيما بعدُ - حَبْرَ هذه الأمّة، وتَرْجُمانَ القرآن.

إن الله تبارك وتعالى اختارَ رسوله ﷺ من بين ملايين الملايين ليختم به رسالة السماء، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ٤٦﴾ [الأحزاب].. وما رفعه الله إلى هذه المكانة إلا بعد أن هذّبَه وأدّبه، وهيّأهُ لهذه الأسوة الحسنة، وجعلَه مثلًا أعلى في كلِّ خير، فهدى الله به الخلقَ من الضلالة، وأنقذَهم به من

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٣١٢٥) (٣٣٥٧)، والبخاري في التاريخ الأوسط (٥٤٨). لكن حكم الإمام أحمد بضعف هذه الرواية ووهائها، كما في العلل ومعرفة الرجال لأحمد رواية ابنه عبد الله (١٧١١).

وتنظر ترجمة ابن عباس رضي الله عنهما في سِيَر أعلام النبلاء للذهبي ٣/ ٣٣٥، والإصابة في تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر ٤/ ١٤١. وفيهما وفي غيرهما أن الراجح أنه كان ابنَ ثلاثَ عَشْرةَ سنة حين توفي النبي ﷺ.

الجَهالة، وأخرجَهم به من الظلمات إلى النور، ورفعهم إلى أعلى مستوًى في الإنسانية.

ونحن مأمورون باتباعه: في الفِعل والترك، والقولِ والعمل، والحبّ والبُغض، والرضا والغضب.. والذين وُكِلَ إليهم أمرُ التربية يجبُ أن يكونوا على مستوى الأسوة من رسولهم ﷺ، وإلا كانت الحُجة عليهم، لا تنفكُّ عنهم، حجةُ الله الذي أولاهم هذه النعمة، وحَمّلَهم هذه الأمانة، وأناطَ بهم شؤونَ التربية، وصِياغةَ النَّشْء، وصِناعةَ الرجال، حجةُ الله على كلِّ من خالف قولَه فِعلُه بآياتٍ ثلاثٍ في كتاب الله، هي معالمُ على طريق الدعوة:

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف].

وقولُ الله على لسان العبد الصالح نبيِّ الله شعيب عليه السلام: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود].

❊ ❊ ❊

٢٢- دَورُ البيت والمدرسة

ما هو دور البيت والمدرسة في تربية الأولاد؟ هل دور البيت ينتهي عند حدِّ التربية الجسمية، وإعداد الطعام والشراب، والثياب والمسكن؟ وهل دور المدرسة ينتهي عند حد حشْو الذاكرة بالعلوم والمعارف؟ أم لا بدَّ أن يكون كلٌّ منهما مكمِّلًا للآخر، وأن يُعْلَمَ أن الرسالة واحدة، لتربية جيلٍ مسلمٍ مهذّبٍ، يعرف حقَّ الله والدِّين والوطن، ويؤدي واجبه، كما يجب أن يكون الواجب..

إن الانفصامَ بين البيت والمدرسة جعل كثيرًا من الجهود تَضيع سُدًى، وتذهب هَباءً، وجعل الكثير من أبنائنا يتخبّطون في طريقٍ مجهول، لا يعرفون أين يسيرون..

فقد يهدِم البيتُ ما تبنيه المدرسة، وقد تهدِم المدرسةُ ما يبنيه البيت، فكثيرٌ من الآباء لا يعرفون عن أبنائهم شيئًا، سوى ذهابِهم إلى المدرسة وعودتِهم منها.. بل إن بعضَهم لا يعرف المدرسة ولا الصفَّ الذي فيه ولدُه، ولا يُعنَى بمستواهُ العلميِّ ومراحلِه المختلفة، كأن هذه الأمور لا تعنيه بالمرة..

كما أن كثيرًا من المدارس لا يعنيها إلا الحضورُ والغياب، والمحافظةُ على مواعيد المدرسة ومَظهرِها العامّ، ومذاكرةِ الموادِّ التي فيها الامتحان، دونَ نظرٍ إلى دِينِ الطالب وخُلُقِه، واستقامتِه وأدبِه.. بل إن بعضَ السادة من المربِّين يظنون أن الإسلام ليس مطلوبًا منهم! وإنما هو

مطلوبٌ من إمام المسجد، ومدرّس التربية الإسلامية، أما غيرهما فليسوا مطالبينَ بالإسلام!

إن الإسلام الذي أعزَّنا الله به يُطالبُنا جميعًا بأن نكون على مستوى المسؤولية، وأن يكون الإسلامُ هو الأساسَ في التربية، وإن السنواتِ الأولى للطفل، وهو لا يزال غَضَّ الإهاب، لَيِّنَ العُود، أولى بأن تتضافر فيها الجهود، وأن تَخلُصَ فيها النيّات.

وقد أفاض علماء النفس والأخلاق والتربية في هذا المجال، وتناولوا الطفل من جميع جوانبه، كلٌّ في مجال تخصّصِه.. ولكن مما لا شكَّ فيه أن القدوةَ الحسنةَ هي العاملُ الأول في بناء الشخصية.. وهذا أمرٌ مطلوبٌ من الآباء والمربِّين على حدٍّ سواء، فليس معقولًا أن ننهاهم عن الكذب ونَكذِبَ! أو ننهاهم عن النفاق ونُنافِقَ! وأن نأمرهم بطاعة الله ونحن غارقون في المعاصي! فإذا فعلنا ذلك تبخّرَتْ نصائحُنا قبل أن تَصِلَ إلى آذانهم، ووقَعْنا تحت طائلة المقْتِ الذي حذرنا الله منه بقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف].

وهذا التناقض الذي نحن فيه يجعل الطفل في متاهةٍ لا يخرج منها سليمًا، ويجعله في حَيْرةٍ من أمرنا، بماذا يعمل؟ أيقتدي بأقوالنا؟ أم يقتدي بأعمالنا وأفعالنا؟ والعمل في نظرِه أصدقُ من القول، فيجب أن نكون صادقين مع أنفسنا، صادقين في ديننا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة].

إن العالَمَ مليءٌ بالمتناقِضات، فالذين يَدْعون إلى حقوق الإنسان، هم الذين يعملون على إذلال الإنسان! والذين يزعمون أنهم دعاة سلام، هم الذين يبحثون عن أقرب الوسائل إلى دمار العالَم! والذين يدعون إلى نشر الفضيلة، هم الذين يعملون على إشاعة الرذيلة!

والكفر كله مِلّةٌ واحدة، يعمل بشرقه وغربه على ضَياع الإسلام وإطفاءِ نورِه، ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة]، ويعمل بكل طاقاته على ضعف المسلمين، وتوهينِ قُوَاهُم، وذهابِ رِيحِهم، وإفسادِ أبنائهم، وتشويهِ دِينِهم: بالكلمة المقروءة والمسموعة، بالأفلام الجنسية والروايات الخليعة، بالأغاني الرخيصة والقصص الساقطة، بإثارة الشبهات والشكوك، وشراءِ الضمائر والذِّمَم، مما يجعل المسلمين دائمًا في موقف الدفاع، والإسلام يحارب وحدَه في الميدان، وسهامُ الكفر كلُّها مسدَّدةٌ إلى صدرِه، والإسلامُ يقاوم وحدَه أمواجَ البلاء، والواقعُ أنه لا عاصم اليوم من أمر الله إلا مَن رَحِم.

وإذا كان الرسول ﷺ قد قال: «**كُلُّكم راعٍ، وكُلُّكم مسؤولٌ عن رَعِيّتِه**» متفق عليه،[1] وقال: «**إن الله سائلٌ كلَّ راعٍ عما استَرْعاهُ، أحَفِظَ ذلك أم ضيَّع؟ حتى يُسأل الرجلُ عن أهل بيته**». رواه النسائي وابن حبان في صحيحه،[2] فما هي حدود مسؤوليتنا عن تربية أولادنا؟ هل تقف

---

(١) صحيح البخاري (٨٩٣)، صحيح مسلم (١٨٢٩) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) سنن النسائي الكبرى (٩١٧٤)، صحيح ابن حبان (٤٤٩٢)، مستخرج أبي عوانة على صحيح مسلم (٧٤٧٧) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

مسؤوليتنا أمامَ الله عند حدِّ إحضار الطعام والشراب والثياب لهم؟ هل تنتهي مُهِمّتُنا عند إدخالهم المدارسَ والجامعات؟ لو كان الأمر كذلك لكان هَيّنًا والحسابُ يسيرًا.

ولكن أَلَسْنا مطالَبين بتربيتهم تربيةً إسلامية؟ ألسنا مطالَبين بأن نحافظ عليهم من كل سوء؟ فمن الذي يشتري لهم القصص الغرامية والمجلات الخليعة؟ من الذي يدفع ثمنَ تذاكرِ السينما لمشاهدة أفلام الجنس؟ من الذي يشتري لهم ملابسَ الإغراء والفتنة؟ من الذي ترك لهم الحبلَ على الغارب بَنِينَ وبناتٍ؟ من الذي سمح لهم أن يُصاحبوا قُرَناءَ السوء، والرسولُ ﷺ يقول: «**الرجل على دِينِ خَليلِه، فلْيَنظُرْ أحدُكم مَن يُخالِل**» رواه أبو داود والترمذي.(١)

إذا كنتَ تخاف على أولادك من لَفْحة الشمس، أفلا تخاف عليهم من فَيْح جهنم؟! والله تعالى يقول: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ**﴾ [التحريم].

وإذا كنت تخاف عليهم يومَ الامتحان، أفلا تخاف عليهم وعلى نفسك من يوم الحساب؟! ﴿**يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖ**﴾ [غافر ٣٣].

وإذا كنت تخاف عليهم من عَدْوَى الأمراض، أفلا تخاف عليهم من

---

(١) سنن أبي داود (٤٨٣٥)، جامع الترمذي وقال: حسن غريب (٢٣٧٨)، مسند أحمد (٨٠٢٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

عدوَى الفُسوق والعصيان، وهي أشدُّ سَرَيانًا من السَّمّ في الجسد، ومن النار في الهَشِيم؟!

لماذا نُلقي بالتَّبِعة على غيرنا؟ لماذا نتهرّب من المسؤولية؟ لماذا لا نعترف بأخطائنا؟ لماذا لا نقولها بصراحة: إننا أسهَمْنا إلى حدٍّ كبير في ضَياع أبنائنا: نشتري لهم من حُرِّ أموالنا الفستانَ القصير، والثوبَ العاريَ، والشعرَ المستعار، وأدواتِ اللّهو، ونحن سابحون في الدُّيون.. ونغُضُّ الطَّرْفَ عن السفر البعيد، والسهرِ الطويل، والصحبةِ المشبوهة، والأفكارِ الشاذة، والآراءِ الضالة، والطريقِ المِعْوَجّ!

ومن الغريب أن الشيطان يسلك إلى عقولنا سبيلَ الواعظ، ويخدَعُنا بحسن الظن، ويقول: الولدُ ساذَجُ، والبنتُ صغيرة، والطفولةُ بريئة، والناسُ بخير، لا تُضيّقوا عليهم، دَعُوهم يتمتّعوا بطفولتهم، ويَسْعَدُوا بحداثتهم! ثم ماذا؟

نتركهم.. فإذا بالصغير يَكبَر، والغريزةُ تتحرك، والفسادُ يَدِبّ، والشرّ يسري، والنبي ﷺ يقول: «**ألا لا يَخْلُوَنَّ رجلٌ بامرأة لا تَحِلُّ له، فإن الشيطانَ ثالثُهما**».(١) وإذا بالشيطان الذي برَع في تأليف الرواية يُبدع في إخراجها، ويُذيعها على الملأ، وينشرها في الصحف: مصيبةً تَهُدُّ الجبال، وفضيحةً تُذِلّ الرجال، وعارًا يجعل الموت خيرًا من الحياة.

---

(١) مسند أحمد (١١٤)، السنن الكبرى للنسائي (٩٢١٩) (٩٢٢١) (٩٢٢٤)، صحيح ابن حبان (٤٥٧٦) (٦٧٢٨) (٧٢٥٤)، مستدرك الحاكم وصححه (٣٨٧) (٣٩٠) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

هل الإسلام غفلة؟! هل الإسلام سذاجة؟! أهذه هي التربية المثالية، المبنية على أحدث الوسائل والأساليب؟! أم هذه جناية المدنيّة الحديثة، والحضارة المزيفة، التي نأخذها على أنها دِين، بينما الجناةُ الطغاة ينظرون إلى الإسلام على أنه نظريةٌ لا تناسب العصر!

الإسلام في نظرهم لا يناسب العصر، لأنه يريد أن تكون رؤوسنا مرفوعةً إلى السماء، والمدنيّة تناسب العصر لأنها تدفن رؤوسنا في الرمال!

الإسلام في نظرهم لا يناسب العصر لأنه يريد أن نعيش في كرامةٍ وشرفٍ وإباء، بينما الإلحاد في نظرهم يناسب العصر لأنه يريد أن نعيش في الوَحَل والعار والهوان!

الإسلام لا يناسب العصر لأنه لا يسمح للمرأة أن تسافر وحدَها ولو إلى الحج، إلا ومعها مَحْرَم، أما المدنيّة في نظرهم فهي تناسب العصر لأنها تنادي بالسفور والاختلاط والتبذّل، وتدعو المرأة إلى أن تسافر وحدَها إلى آخر الدنيا ولو إلى إلحاد الشرق وفساد الغرب!

الإسلام لا يناسب العصر في نظرهم لأنه يربي الأولاد قبل ولادتهم: «**فاظفَرْ بذاتِ الدِّين، تَرِبَتْ يداك**» رواه البخاري ومسلم.[1] ويقول النبي ﷺ: «**إذا جاءكم مَن تَرضَوْن دِينَه وخُلُقَه فزَوِّجوه، إلّا تفعلوا تكنْ فتنةٌ في الأرض وفسادٌ كبير**»، وفي رواية أخرى: «**إذا خَطَبَ إليكم مَن**

(١) صحيح البخاري (٥٠٩٠)، صحيح مسلم (١٤٦٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

تَرضَوْن دِينَه وخُلُقَه فزوِّجوه» رواه الترمذي وابن ماجه.(١)

والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة].

هذا الإسلام لا يصلح في نظرهم للعصر، بينما المدنيّة تناسب العصر لأنها تضع الزيتَ على النار، وتُلقي بالإنسان الآمِنِ في البحر! وتقول له: إياك إياك أن تَبتَلَّ بالماء.(٢)

نريد من كلٍّ منا أن يكون مسلمًا في بيته أولًا.. نريد من كلٍّ منا أن يطالب نفسَه بالإسلام قبل أن يطالبَ به غيرَه.. نريد من كلٍّ منا أن يربّيَ نفسَه على الإسلام قبل أن يربّيَ ولدَه.. نريد من كل مسلم أن يكون صورةً صادقةً عن الإسلام، لا صورةً مهتزّةً ولا مشوهّةً ولا منفِّرةً من الإسلام.. أن يكون قدوةً حسنةً لأولاده.. أن يكون صادقًا مع نفسه.. أن يكون على مستوى المسؤولية، فإذا صلَح الرجل صَلَحَتِ المرأة، وإذا صلَح الرجل والمرأة صلَحَتِ الأسرة، وإذا صلَحَتِ الأسرةُ صلَح المجتمع وصلَحَتِ

---

(١) جامع الترمذي (١٠٨٤)، سنن ابن ماجه (١٨٥٩)، مستدرك الحاكم (٢٦٩٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه، وتعقبه الذهبي.
ورواه الترمذي وحسنه (١٠٨٥) عن أبي حاتِم المُزَني رضي الله عنه.

(٢) هذا عَجُزُ بيت مشهور من البحر البسيط:
ألقاهُ في اليَمِّ مكتوفًا وقال له إياك إياك أن تبتلَّ بالماءِ

الأمّة، وكنا كما يقول الله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران ١١٠].

وإذا كنا جادِّينَ في الأمر، وفي بناء جيلٍ قويٍّ لا يَميل مع الريح، ولا ينهار أمامَ الشدائد، ولا ينهزمُ أمام الفِتن، فلْنَعملْ جميعًا على تربية أولادنا تربيةً كريمة: نربّي بها عقولَهم على العلم النافع، لا على الإلحاد.. ونربّي قلوبَهم على الحقّ الثابت، لا على الفساد.. ونربّي ضمائرَهم على مراقبةِ الله وحدَه، لا على الركوع لغيره.

ولن يكون ذلك إلا بالإسلام الذي يجب أن يرفرفَ على البيت، وأن يُهيمِنَ على المدرسة، وأن يرتفع فوق أجهزة الإعلام، وأن يَصبُغَ أعمالَ الناس ونواياهم بصبغة الله: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة].

❊ ❊ ❊

٢٣- المساواة بين الأولاد

من حقّ أبنائنا علينا أن نُعينهم على بِرِّنا، والإحسانِ إلينا، ورحم الله امرَأً أعانَ ولدَه على بِرِّه.. ومن حقّهم علينا أن نُحسن إليهم صغارًا، كي يحسنوا إلينا كبارًا، وأن نُسوِّيَ بينهم في كلّ شيء، حتى في النَّظَرات الرحيمة، والكلماتِ الكريمة، والابتساماتِ الحلوة، والهدايا الجميلة.. وما من شيء يُفسِدُ على الأولاد تربيتَهم، ويحرّك فيهم نوازعَ الحقد والكراهيَة، كإحساسهم بالظلم والتمييز من أحد الآباء..

فالأولاد جميعًا يُولَدُون على الفطرة أطهارًا أبرارًا، صحائفُهم بِيض، ونفوسُهم بريئة، وأيدِيهِم نظيفة، لا يعرفون البُغضَ ولا العقوق ولا الإيذاء، وإنما يحبّون الناس جميعًا، ويَرجُون الخيرَ لكلّ الناس، فما لهم في الحياة جَرِيرةٌ ولا ذنب، ولا عَلاقةَ لهم بما يدورُ حولَهم من أهواءٍ ومشكلات.

فما ذنبُ الأولاد الصغار إذا تزوّج أبوهم بامرأة غيرِ أمِّهم، فاستولتْ على قلبِه وهواه، واستأثرت هي وأولادُها بكلّ ما فيه من حنانٍ ورحمة، وبكلّ ما لديه من مالٍ وثروة، وحرَّمتْ عليه أن يزورَ أولادَه من غيرها، وأن يَصِلَهم ويُنفِقَ عليهم، كأنه لا يعرفُهم ولا يعرفونه! ما ذنب هؤلاء؟ وكيف نطلب منهم أن تستقيمَ أعوادُهم على عِوَج، وأن تَصلُحَ نفوسُهم على فساد، وأن تَطِيبَ حياتُهم على هذا النعيم؟!

وما جزاء هذا الذي لم يكتفِ بمجاوزة العدل الذي أمر الله به في

كتابه، فقال جل شأنه: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء ٣]، ولم يَرْعَوِ بما قاله الرسول ﷺ في سنته، إذ قال فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «**إذا كان عند الرجل امرأتانِ، فلم يَعدِلْ بينهما، جاء يوم القيامة وشِقُّه ساقط**» رواه الترمذي والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين،(١) أي نصفه مائلٌ، ليكون هذا زيادةً في التعذيب.

ما جزاء من أصبح أسيرَ نَزَواتِه، وعَبْدَ شهواتِه، وفقَدَ كلَّ مقوِّماتِ رُجولتِه، وترك عِنَانَه لامرأةٍ تأمرُه وتنهاه، وتجرُّه إلى مخالفة الله، وينتقلُ بها من ظلمٍ إلى ظلمٍ أشدَّ، ومن إثمٍ إلى إثمٍ أفظَعَ، كأنما لم يسمع بقول المصطفى صلوات الله عليه: «**كَفَى بالمرء إثمًا أن يُضيِّعَ مَن يَقُوتُ**» صحيح رواه أبو داود.(٢)

وما ذنب البنات إذا ابتُلِينَ بأبٍ لا يعرف لهنّ فضلًا، ولا يرحم لهنّ ضعفًا، ويفضِّل البنينَ عليهن، مع أنه لو أحسنَ إليهنّ كُنَّ له سِترًا من النار.. وما ذنبُهن إذا رآهُنّ تَجَهَّم، وإذا طلبْنَ منه شيئًا تَبَرَّم، هل اقتَحَمْنَ عليه الحياةَ دون إذن؟! هل انتسبْنَ إليه دون حقّ؟! هل كان لهنّ اختيارٌ في هذا الأمر؟! والله تعالى يقول: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا

---

(١) جامع الترمذي (١١٤١)، سنن أبي داود (٢١٣٣)، سنن النسائي (٣٩٤٢)، مسند أحمد (٧٩٣٦)، صحيح ابن حبان (٤٢٠٧)، مستدرك الحاكم (٢٧٥٩).

(٢) سنن أبي داود (١٦٩٢) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.
ورواه مسلم (٩٩٦) بلفظ: «**كَفَى بالمرء إثمًا أن يَحبِسَ عمّن يَمْلِكُ قُوتَه**».

﴿وَإِنَ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ۝ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ۝ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ۝ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ۝ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ۝ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ۝ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُمْ مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ۝ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ۝ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ۝ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى].

مع أنه لو عرَف لأدرك أن الإحسانَ إليهنّ يُؤدي إلى رضا الله ومغفرتِه، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من مسلمٍ تُدْرِكُ له ابنتانِ، فيُحسِنُ إليهما ما صَحِبَتاهُ - أوْ صَحِبَهُما - إلّا أَدْخَلَتاهُ الجنة**» رواه أحمد في مسنده والبخاري في الأدب وابن حبان في صحيحه.(١)

وعن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**من عال جاريتَين حتى تَبْلُغَا، جاء يومَ القيامة أنا وهو**»، **وضَمَّ أصابعَه**. رواه مسلم،(٢) أي دخل مصاحبًا للرسول ﷺ، قريبًا منه، أي أنّ ذلك الفعل مما يقرّب فاعلَه إلى درجةٍ قريبة من درجات المصطفى ﷺ..

ومما يدل على حب الرسول ﷺ للبنات قولُه فيما رفعه إليه ابن عباس رضي الله عنهما: «**سَوُّوا بين أولادكم في العطية، فلو كنت مُفضِّلًا أحدًا لَفَضلّتُ النساء**» أخرجه البيهقي بإسناد حسن.(٣)

---

(١) مسند أحمد (٢١٠٤) (٣٤٢٤)، الأدب المفرد (٧٧)، سنن ابن ماجه (٣٦٧٠)، صحيح ابن حبان (٢٩٤٥)، مستدرك الحاكم وصححه (٧٣٥١).

(٢) صحيح مسلم (٢٦٣١)، ولفظ الترمذي (١٩١٤): «**دخلتُ أنا وهو الجنةَ كهاتين**»، وأشار بإصبَعَيْه.

(٣) السنن الكبرى للبيهقي ٦/ ١٧٧، المعجم الكبير للطبراني ١١/ ٣٥٤، قال الحافظ في فتح الباري عند شرح الحديث (٢٥٨٦): (وإسناده حسن). اهـ. لكن ضعّفه الحافظ نفسه في التلخيص الحبير (١٣٢٤).

والشطر الأول من الحديث صحيح، ورد معناه في صحيح البخاري (٢٥٨٧) وصحيح مسلم (١٦٢٣) عن النعمان بن بَشِير رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «.. **فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم**».

وإذا كان الوالِد يحب الولَدَ الجميلَ لجماله، والنَّجيبَ لنجابته، فما ذنبُ المحروم من هذه النعمة؟! هل للأولاد فضلٌ في جمالهم ونجابتهم؟! أم للآخَرِينَ ذنبٌ في دَمامَتِهم وغباوتِهم؟! كَلّا! فالمصوِّر واحد: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران]، وكل هذه الأمور ليس للإنسان اختيارٌ فيها ولا كسب، ولو كان بيد الإنسان شيءٌ منها لكان الناس جميعًا أذكياءَ، ولكنها إرادةٌ عُليا فوق إرادة البشر، ومشيئةٌ كبرى فوق أفهام العباد: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود].

فتفضيل بعض الأولاد على بعض لسببٍ من هذه الأسباب ظلمٌ بَيّن، وخطأٌ في التربية، وانحرافٌ عن القصد، ومدعاةٌ للعقوق..

أمّا لو كان التفضيل لعجزِ أحدِ الأولادِ عن الكسب، أو لمساعدته على طلب العلم، أو لأنه شارك أباه في بناء الثروة، وتحمُّلِ أعباء الحياة، فأعتقد أن هذه المبرِّراتِ لا اعتراضَ عليها من أحد، وإنما الاعتراض على التفضيل من دون سبب، والتحكم في مصائر الناس بالهوى.

ما الذي دفع إخوةَ يوسف عليه السلام إلى أن يَكيدوا له ويتآمروا عليه، مع أنهم أبناء نبيّ؟! السبب أنهم يُريدون أن يَخْلُوَ لهم وجهُ أبيهم، وقالوها بصراحة: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ۚ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾ [يوسف].

إن يعقوب عليه السلام لم يتجاوَزِ الحدَّ، ولم يفرِّقْ بين ولَدٍ وولَد، وحاشا لنبيٍّ من أنبياء الله أن يَزِلَّ.. كلُّ ذنبه - في نظر الأولاد - أنه أحبَّ يوسف، والحبُّ ميلٌ قلبيّ لا يملكه العبد، ولا يؤاخذه الله عليه، وإنما نزَغ الشيطان بين يوسف وإخوته، فضخَّم لهم أمورًا، وهوَّن عليهم غيرَها.. ضخَّم لهم إيثارَ أبيهم ليوسف بالحب، وهوَّن عليهم في مقابِل ذلك ارتكابَ جريمة وإزهاقَ روحٍ، روحِ غلامٍ لا يملكُ دفعًا عن نفسه! وهو أخوهم! وهم أبناءُ نبي! حتى أصبح هذا الحب في نظرهم يُوازي القتلَ الذي هو أكبر جرائم الأرض قاطبةً بعد الإشراك بالله، ليقولوا: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾.

وبعدَ هذا فهل استأثر إخوةُ يوسف بوجه أبيهم؟ وهل نجحوا في الانتقام من يوسف؟ كَلّا! ولكنهم وجدوا أنفسهم يومًا مّا على بابه، وقد مكّن الله له، وجعله على خزائن الأرض، وقال لهم: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾ [يوسف].

ويقول الإمام السيوطي رحمه الله: (قال بعضهم: وقد زَوَى هارونُ الرشيدُ الخلافةَ عن ابنِه المعتصم، لكونه أُمِّيًّا، فساقها الله إليه، وجعل الخلفاء بعده كلهم من ذريته، ولم يجعل من نسل غيره من أولاد الرشيد خليفةً).[1]

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٢١٤، وكذا في نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري ٢٣/ ٢٦٠، وفي الإشارة إلى سيرة المصطفى وتاريخ مَن بعدَه من الخُلفا، لعلاء الدين مغلطاي ص٥١١.

إن الإنسان أحيانًا قد يرى بنظرته الضيّقة، ويظنّ أنه قادرٌ على المنع والعطاء، فيمنح هذا، ويَحرُمُ ذاك، فتأتي المقاديرُ تُحبِطُ كلَّ ما فعل الإنسان، وتُثبتُ أن الأمر كله لله، وهو وحدَه الذي يعطي ويمنع، ويُعِزُّ ويُـذِلّ، وأنّ الإنسان لا يرى أكثرَ مِن مدِّ البصر، ولا يعرف أكثرَ من مُحْدَثاتِ الأمور، وأن الحقّ هو ما قاله الله: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء ١١].

وكم من أولادٍ وَرِثُـوا كلَّ شيء، ورثـوا عن آبائهم الحبَّ والثروةَ والقُصور، ولهم إخوةٌ ضعفاءُ لم يَرِثوا إلا الكراهيةَ والمقتَ والحرمان، فاضطُرُّوا - لكي يعيشوا ويحصُلُوا على قوت يومهم - أن يخدُموا في البيوت، وأن يتقلّبوا في المِهَن البسيطة، ولكنهم كانوا شرفاءَ، لم يَمُدُّوا يدًا، ولم يقْبَلوا صدقة، وعاشوا كرامًا مستورين بسِتر الله.

ودار الزمن دَورتَه، فإذا بالمترَفِينَ المحظوظين يُسلّطُ الله على أموالهم هَلَكَتَها، ويُصبحون فقراءَ يطلبون الكَفاف.. وإذا بالمحرومين يتحوّلون إلى أغنياءَ بعَرَقِ جبينِهم وكَدِّ أيديهم، ويشترون بحُرِّ مالِهم الحقوقَ التي سُلِبُوها، ويسكنون القصور التي كانوا لا يجترئون على الوقوف بأبوابها، وسبحان من يرثُ الأرض ومن عليها! سبحان من يبسُطُ الرزق لمن يشاء ويقدر! سبحان من قال في كتابه: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الزخرف ٣٢].

وهذه سُنّة الله في خلقه، أفرادًا وجماعاتٍ ودُوَلًا، قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن

نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [القصص].

ثم ماذا؟.. عن النعمان بن بَشير رضي الله عنهما أن أباه أَتَى إلى رسول الله ﷺ فقال: إني نَحَلْتُ ابني هذا غلامًا كان لي، فقال رسول الله ﷺ: «**أَكُلَّ وَلَدِك نَحَلْتَه مثلَ هذا**»؟ قال: لا، فقال رسول الله ﷺ: «**فارْجِعْه**». وفي رواية: «**فلا تُشْهِدْني إذَنْ، فإني لا أشهَدُ على جَوْرٍ**»، وفي رواية: «**أَيَسُرُّك أن يكونوا إليك في البِرِّ سواءً**»؟ قال: بلى! قال: «**فلا إذن**» متفق عليه.(١)

❊ ❊ ❊

(١) صحيح البخاري (٢٥٨٦) (٢٥٨٧) (٥٦٥٠)، صحيح مسلم (١٦٢٣).

٢٤- قُرَناء السوء

قد يكون البيت سليمًا بكلّ ما في هذه الكلمة من معنًى، فلا يرى الطفل منه إلّا كلَّ خير، وقد تكون المدرسةُ مُسلمةً، تعمل بكل طاقاتها على تربية الطلاب تربيةً إسلامية، فلا يرى الطفل منها إلا كل نور.. ومع ذلك نرى أولادًا تعمَّق الشر في نفوسهم، وفقدوا المناعة الإسلامية المكتسبة من دِينهم وبيوتهم ومدارسهم، فمن أين جاءهم هذا الشر وتأصل فيهم؟ وكيف فسدتْ عقولهم رغم كل ما بُذل في إصلاحهم؟ وكيف ضلُّوا بعد هداية؟ وكيف تمردوا على كل وسائل الإصلاح والتهذيب؟!

لا بد أن هناك عواملَ أخرى غيرَ البيت والمدرسة تدخّلتْ في حياتهم، فاستوقفَتْهم وتلقّفَتْهم، وحادتْ بهم عن الطريق، وتعهَّدَتْهم بالإفساد والتغرير، ثم أطلقَتْها على المجتمع ذئابًا جائعة، أو طيورًا جارحة، أو مَرَدةً من الشياطين!

من هذه العوامل قُرَناءُ السوء، أولادٌ مثلُهم، في سِنِّهم، أو أكبرُ منهم، ولكنهم لم يجدوا الأيديَ الرحيمة التي تحميهِم، ولا القلوبَ الكريمة التي تحتويهِم، ولا العيونَ الباسمة التي تراقبهم، ولا النفوسَ الكبيرة التي تنتظرهم وتسأل عنهم.. وإنما خرجوا من بيوتهم محرومين أو مهزومين، أو مطرودين أو مُدلَّلين، تُرك لهم الحبلُ على الغارب.. فانقطعوا عن الدراسة، واحترفوا الفساد، وتحولوا إلى شياطين، يسكنون الخرائب كالبوم، ويظهرون بالليل كالخفافيش، وأصبحوا بُؤَرًا للفساد وقواقعَ

للشرّ.. يُلقون شِباكَهم على الأغرار والسُّذّج، ويجذِبونهم بالخداع والحيلة، ويُغْرُونهم بالغنى السريع، حتى يَفتِنوهم، فإذا فُتنوا سَقطوا وفَقدوا حياءَهم، وانقطعت أخبارُهم عن آبائهم وذَوِيهم، ومدارسِهم ومُدرِّسيهم، وهوَتْ بهم الريح في مكان سحيق!

ومن هنا يبتدئ الشرُّ في التدريج، شيئًا فشيئًا، ويكبُرُ يومًا بعدَ يوم: من سرقة بيوتهم، إلى سرقة بيوت الناس! إلى سرقة الجيوب! إلى سرقة المحلات! إلى سرقة السيارات! إلى فتح الخزائن! إلى قطع الطريق! ومِن سَقَطِ الكلام، إلى المُزاح المُريب! إلى الانحراف الجنسي! إلى التدخين! إلى شرب الخمر! ومِن إدمان المخدِّرات إلى التجارة فيها! ومن تجارة التجزئة إلى تجارة الجملة! إلى التهريب!

وهكذا يكبَرُون ويكبُرُ الشرُّ معهم، وينتشرون وينتشر بهم الفساد، ونتساءل جميعًا، كيف حدث هذا؟! والجواب: من غفلة الأهل إلى حد الإهمال، ومن فقد الحصانة الإسلامية إلى حد الكفر، ومن قرناء السوء الذين هم أَلَدُّ الأعداء.

ولقد رغّبنا رسول الله ﷺ في الجليس الصالح، وحذّرنا من جليس السوء، وضرب لنا مثلًا في غاية الواقعية والوضوح، فقال عليه الصلاة والسلام: «**إنّما مَثَلُ الجليس الصالح والجليسِ السوء، كحامل المسك ونافخ الكِير،**[1] **فحامل المسك: إمّا أن يُحذِيَك، وإمّا أن تبتاعَ منه، وإما**

(١) **الكِيرُ**: هو آلة الحدّاد التي ينفخ بها. هُدَى الساري لابن حجر.

أن تجدَ منه ريحًا طيّبة، ونافخ الكِير: إمّا أن يُحرقَ ثيابَك، وإمّا أن تجد منه ريحًا خبيثة» متفق عليه.(١)

والمسك والرفيقُ الصالح قرينان، كأنما يخرجان من مشكاةٍ واحدة، هذا يملأ الجوَّ هُدًى، وذاك يملأ الجوَّ عِطرًا، ومَن يقترنْ بهما لا يَحرِمْه الأولُ مِن شَذَاه، ولا يَحرِمْه الآخَرُ مِن هُدَاه.. وكذلك النار والرفيقُ الطالح قرينان، كأنما قُذِفا من شُواظٍ واحد، هذا يملأ الجوَّ نارًا، وذاك يملأ الجوَّ شرًّا، ومن يقترنْ بهما لا يَرحمْه الأولُ مِن لَظَاه، ولا يرحمْه الآخَرُ مِن أَذَاه..

وحسبُك من الصالح أن يَعرِفَ الناس أنك من جلسائه، فيُحيطوك بالتَّجِلّة والاحترام، وحسبُك من الطالح أن يعرف الناس أنك من قرنائه، فتَسقُطَ من عيونهم، ولا يأتمنوك على عِرضٍ ولا مال..

يقول العلامة المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ تعليقًا على هذا الحديث: (قال الراغِبُ الأصفهانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:(٢) نبَّه بهذا الحديث على أن حقَّ الإنسان أن يتحرى بغاية جُهده مصاحبةَ الأخيار ومجالستَهم، فهي قد تجعل الشِّرِّيرَ خَيِّرًا، كما أن صحبةَ الأشرار قد تجعل الخَيِّرَ شِرِّيرًا، فأولياء الله لا يشقى جليسهم، وليست عَدْوَى الجليس لجليسه بمقاله وفعاله فقط، بل بالنظر إليه، والنظر في الصورة يُورث النفوسَ أخلاقًا مناسِبةً لخُلُق المنظور إليه، فإنّ مَن دامتْ رؤيته للمسرور سُرّ، أو للمحزون حَزِن.

---

(١) صحيح البخاري (٢١٠١) (٥٥٣٤)، صحيح مسلم (٢٦٢٨) عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني ص٢٥٨.

وليس ذلك في الإنسان فقط، بل في الحيوان والنبات، فالجَمَل الصَّعْب يصير ذَلُـولًا بمقارنة الجمل الذلول، والذَّلُولُ ينقلب صعبًا بمقارنة الصِّعاب، والريحانة الغَضّة تذبُلُ بمجاورة الذابلة، ومن المشاهَد أن الماء والهواء يفسُدانِ بمجاورة الجِيفة، فما الظنُّ بالنفوس البشرية التي موضعُها لِقَبول الأشياء خيرها وشرها؟! فقد قيل: سُمّيَ الإنسَ لأنه يأنَسُ بما يراه، خيرًا أو شرًّا). انتهى من فيض القدير بشرح الجامع الصغير ٥/٥٠٦.

ويقول الله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف]، فالمتقون وحدَهم صداقتُهم دائمةٌ في الدنيا والآخرة، لأنها قائمة على الحبّ في الله، والبُغض في الله، ألا يقول الرسول ﷺ في حديث السبعة الذين يُظِلُّهم الله في ظِلّهِ يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّه: «**ورجلان تحابّا في الله، اجتمَعَا عليه، وتفرَّقَا عليه**»؟! متفق عليه.(١)

أمّا الذين جمعَتْهُم المعاصي، وألّفتْ بينهم الغرائزُ الدنيا، وعبادةُ المال والشهواتُ والإضرارُ بالناس، فصداقتُهم يوم القيامة تتحول إلى عداوة، كلٌّ منهم يُلقي بالتَّبعة على أخيه، كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا﴾ [البقرة].

وكما قال تعالى: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا

(١) صحيح البخاري (٦٦٠)، صحيح مسلم (١٠٣١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأعراف].

وكما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُم بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [سبأ].

وكما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر].

وكما يُلقي بعضُهم بالتَّبعة على بعضٍ، ويُلقي باللائمة على الآخر، يتحسَّرُ كلٌّ منهم ويندم حيث لا ينفع الندم، وفي هذا يقول المولى عز وجل: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴿٢٨﴾ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان].

يومئذ يعترف أهل النار في اليوم الذي تظهر فيه السرائر: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ ﴿١٠١﴾﴾ [الشعراء]، ويقول الله تعالى للملائكة: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ [الصافات]، عن النعمان

ابن بشير رضي الله عنهما، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ قال: أمثالَهم الذين هم مثلُهم).[١] يعني يجيء أصحاب الزنى مع أصحاب الزنى، وأصحابُ الربا مع أصحاب الربا، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر..[٢]

ويقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (خليلانِ مؤمنان، وخليلان كافران، فتُوفيَ أحدُ المؤمنَيْنِ، وبُشر بالجنة، فذكر خليله فقال: اللهم إن فلانًا خليلي، كان يأمرني بطاعتك وطاعةِ رسولك، ويأمرني بالخير وينهاني عن الشر، وينبئُني أني ملاقِيك، اللهم فلا تُضِلَّه بعدي حتى تُرِيَه ما أريتَني، وترضَى عنه كما رَضِيتَ عني، فيقال له: اذهبْ، فلو تعلمُ ما له عندي لَضَحِكتَ كثيرًا وبَكَيتَ قليلًا، قال: ثم يموتُ الآخَر، فتجتمع أرواحُهما، فيُقال: لِيُثْنِ أحدُكما على صاحبه، فيقول كلٌّ منهما لصاحبه: نِعمَ الأخ، ونعم الصاحب، ونعم الخليل!

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك وصححه (٣٦٠٩). ورواه ابن جرير الطبري في تفسيره ١٩/ ٥١٩ بلفظ: ﴿وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ يقول: ضُرَباءَهم.

ورواه أحمد بن منيع في مسنده، كما في المطالب العالية لابن حجر ١٥/ ١٤٧ (٣٦٩٣)، وإتحاف الخيرة المهرة للبوصيري ٦/ ٢٦٠ (٥٧٩٩) بلفظ: ﴿وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾: وأشباهَهم. قال الحافظ: إسناد صحيح. اهـ. وقال البوصيري: إسناد رجاله ثقات. اهـ.

وعلقه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، في سورة التكوير، فقال: وقال عمر رضي الله عنه: ﴿ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾ يُزوَّجُ نظيرَه من أهل الجنة والنار، ثم قرأ: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾.

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره (سورة الصافات) في إحدى الروايات عن النعمان عن عمر رضي الله عنهما، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٧/ ٨٣ وجمع الجوامع ١٤/ ٧٧٠، لعدد من المخرِّجين، منهم الحاكم وابن جرير وعبد الرزاق وابن أبي شيبة، لكن لم أجده عندهم!

وإذا مات أحدُ الكافرَيْنِ، وبُشر بالنار، ذكر خليلَه فيقول: اللهم إن خليلي فلانًا كان يأمرني بمعصيتك ومعصيةِ رسولك، ويأمرني بالشر وينهاني عن الخير، وينبئُني أني غير ملاقِيك، اللهم فلا تَهْدِه بعدي، حتى تُرِيَه مثلَ ما أريتَني، وتسخَطَ عليه كما سَخِطتَ عليّ، قال: فيموت الكافر الآخَر، فيُجمَعُ بين أرواحهما، فيقال: لِيُثْنِ كلٌّ منكما على صاحبه، فيقول كلٌّ منهما: بئس الأخ، وبئس الصاحب)![1]

وكان التابعي قتادة بن دِعامة رَحِمَهُ اللَّهُ إذا قرأ: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشعراء] قال: (يعلمون - والله - أن الصَّدِيقَ إذا كان صالحًا نَفَع، وأن الحميم إذا كان صالحًا شفع).[2]

وما أجملَ ما وصَّى به علقمةُ بن لَبيدٍ العطارديُّ ابنَه عند الوفاة، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (يا بني! إذا عَرَضَتْ لك إلى صحبة الرجال حاجة، فاصحبْ مَن إذا خدمتَه صانَك، وإن صَحِبْتَه زانَك، وإن قَعَدَتْ بك مَؤونةٌ مانَك.. اصحَبْ من إذا مددتَ يديك بالخير مدَّها، وإن رأى منك حسنةً عدَّها، وإن رأى سيئةً سدَّها.. اصحب من إذا سألتَه أعطاك، وإن سكتَّ ابتداك، وإن نزلَتْ بك نازلةٌ واساك.. اصحب من إذا قلتَ صدَّق قولَك، وإن حاولتُما أمرًا آمَرَك،[3] وإن تنازعتُما آثَرَك).[4]

❊ ❊ ❊

(١) رواه عبد الرزاق الصنعاني في تفسيره ٣/ ١٧٤، وابن جرير في تفسيره ٢٠/ ٦٤٠، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٨٥١٩) والبيهقي في شعب الإيمان ٧/ ٥٦ (٩٤٤٣).

(٢) رواه ابن جرير في تفسيره ١٧/ ٦٠٠.

(٣) آمَرَك: أي شاوَرَك.

(٤) رواه ابن قتيبة في عيون الأخبار ٣/ ٦، وأبو عبد الرحمن السُّلَمي في آداب الصحبة (١٧٥).

٢٥- «وشابٌّ نشأ في عبادة ربه»

وثاني السبعةِ الذين يُظِلُّهم الله في ظِلِّه يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّه: «.. **وشابٌّ نشأ في عبادة ربه**» متفق عليه،(١) لأنه قويٌّ تقي، والله يحب من عباده الأقوياءَ الأتقياء.. فهو قويٌّ لأنه استطاع أن ينتصر في كل معاركه، معاركِه الداخلية والخارجية، تقيٌّ لأنه آثر رضا الله على كل ما في الحياة، وجعل هواه تبعًا لما جاء به رسول الله ومصطفاه ﷺ.. عاش لله، فلم تَزِلَّ له قَدَم، ولم تَجمَحْ به غريزة، ولم ينحرف له سلوك، ولم يَعْوَجَّ له فِكر، ولم تَفتِنْه دنيا، ولم يضعُفْ أمامَ ما في الدنيا من مُغرِيَات، ولم يُسلِمْ قِيادَه وزِمامَه إلا لله رب العالمين: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام].

فالخَوَاء الذي بداخله يَشغَلُه دائمًا بذكر الله، والعُوَاء الذي بخارجه يردّه بتقوى الله، ونفسُه الأمّارة بالسوء يغلبها بالعفة، وغرائزه الدنيا التي تناديه يُعْلِيها بالفضيلة، وأمواجُ الحرام التي تتقاذفه تتكسر كلُّها على صخرة الإيمان، أفلا يستحقّ هذا الذي عاش لله في الدنيا أن يكون في ظل الله يوم القيامة؟!

وإذا تأملنا حياةَ الإنسان منذ ولادته وجدْناه يمرُّ بمراحلَ مختلفة، وفتَراتٍ متعاقبة، فهو يولد طفلًا، وإذا طَرَّ شاربُه صار غلامًا، وإذا بلغ صار شابًّا، وإذا وَخَطَه الشيبُ صار كهلًا، وإذا جاوز الخمسين صار شيخًا،

(١) صحيح البخاري (٦٦٠)، صحيح مسلم (١٠٣١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

إلى أن يشاء الله.. ولقد أجمل الله هذه الفترات في إيجاز حين قال: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا﴾ [غافر ٦٧].

ففترة الشباب تُعدّ ثُلُثَ العُمُر تقريبًا، أما الثُّلُثانِ الآخَرانِ فالإنسان فيهما كَلٌّ على غيره: في طفولته كَلٌّ على أبويه، وفي شيخوخته كَلٌّ على أولاده.. في طفولته محتاجٌ إلى التربية، وفي شيخوخته محتاجٌ إلى الرحمة.. في طفولته يأخذ الدروس، وفي شيخوخته يُعطي العبرة..

ففترة الشباب قوةٌ بين ضعفين، الإنسان في الأول طفلٌ صغير، وفي الثاني طفل كبير، كثير المطالب، قليل الاحتمال، سريع النسيان، ضعيف السمع والبصر، يضحك بلا سبب، ويبكي بلا سبب.

في طفولته يجد نفسه في حاجة إلى اليد التي تحميه، والعينِ التي ترعاه، والقلبِ الذي يَنبِض بحبه، والبسمةِ التي تُشرق في وجهه، ولولا ذلك لَمَا سَلِمَ من الأذى، ولا نجا من الضياع.. وفي شيخوخته يجد نفسه أشدَّ حاجةً إلى من ينقُلُه على ثقل، ويقبِّلُه على مَضَض، ويَخدُمُه ولو باشمئزاز، ويَخفِض له جَناحَ الذُّلِّ من الرحمة، ولولا ذلك لَبَقِيَ في مكانه إلى أن يأذن الله كأنه قطعةٌ من الآثار!

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم].

وهذه القوة التي بين ضعفين هي الجانب المُشرِق في عُمر الإنسان،

وبهذه القوة يكون العطاء، ويكون البناء، عطاءُ الإنسان للحياة، وبناؤه للدنيا.

مَن الذين يقفون تحت قيظ الصيف ولفح الشتاء، يتعهدون الأرض بالحرث والسقي، حتى تُؤتِيَ أُكُلَها كلَّ حين بإذن ربها: ﴿حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾؟! [عبس].

مَن الذين يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله، ويمشون في مناكبها التماسًا للرزق الذي قدره الله، ويَصِلُون أطراف الدنيا بالسعي الحلال؟!

مَن الذين يقفون في المصانع وراء الآلات، وأمام الأفران، وتحت سطح الأرض لاستخراج الكنوز، وبين الحديد لصهر المعادن، وتحت سطح البحر لاستخراج اللآلئ؟!

مَن الذين يُقيمون في الخنادق، ويُرابطون على الثغور، ويخوضون غمار الحروب، دفاعًا عن البلاد، وذَوْدًا عن الوطن؟!

مَن هؤلاء وهؤلاء؟!..

إنهم الشباب الذين يحملون الأعباء، ويتحملون المسؤولية، ويدفعون أغلى ما يدفع الإنسان من مال وعَرَقٍ ودم.. إنهم ربيع الحياة، الذي يكسوها جمالًا وبهجة وسرورًا وحيويةً وقوة..

هل يمكن أن يقوم بهذه الأعباء كلِّها طفلٌ غِرير، أو شيخٌ كبير؟! كلا! لأنها أمورٌ تحتاج إلى صفاءٍ في الذهن، وقوةٍ في الجسم، وقدرةٍ على العمل، وسرعةٍ في الحركة، وفورةٍ في الدم، ووفرةٍ في العافية.

لذلك لما اعترض بنو إسرائيل من بعد موسى عليه السلام على نبيهم، حين قال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾، عند ذلك قال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة]. فلم يكن الاختيار مبنيًّا على المال والثروة، ولكنه مبنيٌّ على العلم والقوة، أي أن الله اختاره لأنه أعلمُ منكم، وأشدُّ قوةً وصبرًا في الحرب ومعرفةً بها، وأتمُّ علمًا وقامة..

ولما قالت ابنة الشيخ الكبير عن موسى عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ علّلت طلبها هذا بقولها: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص]، وسألها والدُها الشيخ عن علمها بذلك، كما قال كثير من المفسرين، فقالت عن قُوَّتِه: إنه رفعَ وحدَه الصخرةَ التي على البئر، والتي لا يُطيق حملَها إلا عشَرةُ رجال! وقالت عن أمانته: لما جئتُ معه تقدَّمتُ أمامَه، فقال لي: كوني من ورائي، فإذا اختَلَف عليّ الطريقُ فاحْذِفي بحصاةٍ أَعْلَمْ بها كيف الطريق لأهتدي إليه.(١)

---

(١) هذا التفسير ورد عن عمر بن الخطاب وابن عباس، وعن عدد من التابعين المفسرين، انظر تفسير الطبري ١٨/ ٢٢٢، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٦٦، وتفسير ابن كثير.
وممن رواه عن عمر رضي الله عنه أيضًا: ابن أبي شيبة في المصنف (٣٢٥٠٣)، والحاكم في المستدرك (٣٥٣٠) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.
وممن رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضًا: النسائي في السنن الكبرى ٦/ ٤٠٠ (١١٣٢٦)، وأبو يعلى في مسنده (٢٦١٨)، ضمنَ حديث الفُتون الطويل. =

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (أفرسُ الناس ثلاثة: أبو بكرٍ رضي الله عنه حين تفرَّس في عمر رضي الله عنه، وصاحب يوسف عليه السلام حين قال: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [يوسف ٢١]، وصاحبة موسى عليه السلام حين قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص]).[١]

والقوة أَمارةٌ من أَمارات الشباب، والأمانةُ ثمرةٌ من ثمار الإيمان، فإذا التَزم الشابّ بحدود إيمانه، لا يصدُرُ إلا عنه، ولا يتحرّكُ إلا به، كان حبيبًا إلى الله، قويًّا بالله، ورسول الله ﷺ يقول: «**المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحَبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كُلٍّ خيرٌ**» رواه مسلم.[٢]

وكان أمينًا في كل تصرفاته، فرسول الله ﷺ يقول: «**المسلمُ مَن سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده، والمؤمنُ مَن أَمِنَه الناسُ على دمائهم وأموالهم**» رواه الترمذي وصححه.[٣] وقال رسول الله ﷺ: «**المؤمنُ مَن أَمِنَه الناسُ**

= **تنبيه**: الشيخ الكبير من مَدين، والد المرأتين اللتين سقى لهما موسى عليه السلام، ثم تزوج إحداهما، اشتَهَر في بعض كتب التفسير والوعظ أنه النبي شعيب عليه السلام، وهذا لم يثبت في أي خبر صحيح، فليس هو شعيبًا عليه السلام، وعصر شعيب كان قبل موسى. نبه إلى ذلك الشيخ عبد الله الصدِّيق الغُماري في خواطر دينية ١٣/ ٥٥، والإحسان في تعقيب الإتقان ٤/ ١٣٣، المطبوعَينِ ضمن موسوعة مؤلفاته.

(١) رواه سعيد بن منصور في تفسيره (١٠٦٠)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣٨٢١٣)، والحاكم في المستدرك (٣٣٢٠) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، والطبري في تفسيره ١٣/ ٦٣، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٨٣٨).

(٢) صحيح مسلم (٢٦٦٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) جامع الترمذي (٢٦٢٧)، سنن النسائي (٤٩٩٥)، مسند أحمد (٨٩٣١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

على أموالهم وأنفسهم، والمهاجِرُ مَن هَجَرَ الخطايا والذنوب».[1]

وكان غَيُورًا، فرسول الله ﷺ يقول: «**المؤمن يَغارُ، والله أشدُّ غَيْرًا**» رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه،[2] وأشرفُ الناس وأعلاهم همةً أشدُّهم غَيْرةً، فالمؤمن الذي يغار في مواطن الغيرة قد وافق ربَّه في صفةٍ من صفاته، ومن وافقه في صفةٍ منها قادته تلك الصفة بزِمامه، وأدخلتْه عليه، وأَدْنَتْه منه، وقرّبَتْه من رحمته.. وكان كلّ ما يصدر عنه شابًّا: عبادته شابّة، لا واهنةٌ ولا متهالكة.. وذِكْرُه شابّ، لا خِداعَ فيه ولا مداهنة.. وأخلاقه شابة، لا يَهابُ ولا يَخاف، ولا تأخذه في الله لومة لائم.. كل ما يصدر عنه شابٌّ وقويٌّ، لأنه شابٌّ نشأ في عبادة ربه.

❊ ❊ ❊

(١) مسند أحمد (٢٣٩٥٨)، سنن ابن ماجه (٣٩٣٤) عن فَضَالةَ بن عُبيدٍ رضي الله عنه.

(٢) صحيح مسلم (٢٧٦١).

٢٦- أَمارات الشباب

ويَظَلُّ الطفل في حداثته منسجِمًا مع نفسه، مطبوعًا على سَجِيّته وفطرته، بريءَ النظرة، حَسَنَ النية، سليمَ الصدر، بعيدًا كلَّ البعد عن إيذاء الغير والإضرار بالناس.. ثم تظهر عليه أمارات الرجولة، وعلامات الشباب، فيمتلئُ وجهُه، ويقوَى صوتُه، وتشتدُّ عضلاته، وتختلج فيه غرائزُ، وتتحرك فيه قُوًى..

ثم يصبح خلقًا آخَرَ، غيرَ ما كان عليه في حداثته، ويبتدئ ينظر إلى المرأة، ويبحث عن المال، ويتطلع إلى السيطرة، ويجري وراء المُتَع، ويفكر في أشياءَ ما كان يفكر فيها من قبل، ويَشغَلُ فِكرَه بأمورٍ ما كانت تخطر على بال، ويقع تحت ضغطٍ شديدٍ من داخله، وإغراءٍ كبير من خارجه، ولا يدري ماذا يفعل..

فلو تُرك وشأنَه لَجَمَحَت به شهواتُه، وضعُف عن مقاومة هواه، وانطلق كما ينطلق الوحش في البرّية، لا يَلوي على شيء، فما هو موقف الإسلام منه؟

هل يقف الإسلام منه موقفَ المتفرِّج حتى يتحطّم، ويتركُه يصارع الموج وحده حتى يغرق، دون أن يقدّم له أطواق النجاة؟! أم يخفّفُ الإسلام هذه الغرائز في جسمه حتى تموت، ويُطفئُ جَذوتَها المتَّقِدةَ حتى تصيرَ رمادًا، وتتركَه يعيشُ إنسانًا بلا أمل، تمثالًا لا يُحِسّ، عابدًا في صومعته حتى يأتيه اليقين؟!

الإسلام لا يرضى بهذا ولا ذاك.. لا يرضى أن يتركه في جاهليةٍ جهلاء، وفوضَى قاتلة، فيَفقِدَ إنسانيّتَه، ويتمتّعَ ويأكُلَ كما تأكلُ الأنعام، ويعيشَ مع بني جنسه كأنه في غابةٍ كثيفة، لا يحكمُها قانون، ولا يجمعها كتاب.. ولا يرضى أن يُعطّلَ فيه قُوَاه، ويَحرِمَه كلَّ أسبابِ السعادة، فيُفقِدَه حيويّتَه ورُجولتَه، وتفوُّقَه وكرامتَه، فيُحِسَّ أنه لا شيء، قطعةٌ من جماد، قبضةٌ من رماد، سجينٌ لا يعرف إلا الشقاء، مريضٌ لا يُرجى له شفاء، حتى يُدركه الموت!

وإنما يريده الإسلام إنسانًا سعيدًا في دنياه، كريمًا على الله، خليفةً في الأرض، سيدًا لهذا الكون، تخدُمه الدنيا ولا تستخدمه، ويُسعده المال ولا يستعبده.. يريده الإسلام إنسانًا يتولى عمارةَ الأرض بالحق، وبناءَ الحضارة بالعقل، وسياسةَ الحُكم بالعدل.. يُريده الإسلام إنسانًا أقوى من نفسه، أملَكَ لأَرَبه، قوّتُه موجَّهةٌ إلى الخير، وقلبه مرتبط بالله، وغرائزه في حراسة دِينه، لا تُذِلُّه شهوة محرمة، ولا تتحكم فيه عادةٌ سيئة، ولا ينقاد لهوًى متّبَع، ولا لِشُحٍّ مطاع.

فالإسلام أمام قوة الشباب وفورته لا يقف موقفًا سلبيًّا ولا يتجاهلها، لا يهادنها ولا يحاربها، وإنما يستغلها، ويحسنُ توجيهَها، ويضبطُ صِمَامَها، حتى لا تتحول إلى قوّةٍ مدمِّرة، ويُمسك زمامها، حتى لا تجنح إلى فتنةٍ هوجاءَ، ونهايةٍ قاتلة.

والإنسان في الجاهلية - وكلِّ جاهلية - ما دام لم يعصمه دِين، ولم يَحكُمْه قرآن، لا بد أن يُفلِتَ من عِقاله، حتى كأنه ثورٌ هائج، أو شيطان مارد، لا يعرف الخير، ولا يأنف من الشر، وإنما كلُّ هَمِّه إشباعُ جَوْعتِه،

وإرضاءُ شهوته.. والإنسان إذا وصل إلى هذا الحد لا يُرضيه شيءٌ ولو كان معه مالُ قارون! بل يُسعده ما يُشقِي الناس: أن يعيشَ في غَيْبةٍ من عقله، وفي غَفلةٍ من ضميره، فيفعلَ ما يُضحك وما يُبكي، كأنما أصابه مَسٌّ من جنون!

ما الذي يمنع الناس في جاهليتهم من سفك الدماء بدون حق! وأكلِ الحرام بدون سبب! والإغارةِ على القبائل للسلْب والنهب! وبيعِ الأحرار والحرائر في سوق النِّخاسة! وإشعالِ نار الحرب لأتفه الأسباب! وتوارثِ الأحقاد والضغائن جيلًا بعد جيل؟!... لا يمنعهم من ذلك شيء ما دام حكمُ الجاهلية قائمًا على القوة الغاشمة، لا على الحق المبين!

وما الذي يمنع الناسَ في جاهليتهم من شرب الخمر حتى يَفقِدوا رؤوسهم! ومِن لعبِ الميسِر حتى يبيعوا أنفسَهم! ومِن ارتكابِ الفواحش ما ظهر منها وما بطن؟!... لا شيء يمنعهم من ذلك ما دام حكم الجاهلية قائمًا على أساس إرضاء الشهوات وإشباع الغرائز!

وما الذي دعاهم إلى أن يقتلوا أولادهم! وأن يَئِدُوا بناتِهم، وأن يُقْدِموا على هذه الجرائم التي يخجل منها التاريخ، ويستحْيي من ذكرها القلم؟!... دعاهم إلى ذلك خوفٌ من فقرٍ محتمَل، وعارٍ مظنون، ولكنه ظنٌّ يبلغ منهم حد اليقين، ما دام حكم الجاهلية قائمًا على الغضب والغصْب والانحراف!

ومن الغريب أنهم كانوا يعبدون ما يَنحِتُون: يُقدِّمون له القرابينَ، ويسوقون إليه الإبل، ويُوقِفون عليه البَحِيرةَ والسائبةَ والوَصِيلةَ

والحاميَ![1] لمَ كلُّ هذا؟! أفَقَدوا عقولهم؟! أم مبالغةً في إظهار السيطرة على كلّ ما حولهم، والإعجاب بأنفسهم حتى يُقنعوا أنفسهم أنهم يستطيعون كل شيء، ويقدرون على كل شيء، ويستطيعون أن يصنعوا الإله الذي يعبدون!

وإذا كان هذا الانحراف الفكري أمرًا عجيبًا لا يقبله عقل، فالأعجبُ أن يعيشَ هذا الانحرافُ أكبرَ فترة في التاريخ، وأن يستوعب معظم جهاد الأنبياء والمرسلين منذ نوح عليه السلام.. كل رسولٍ يحاول أن يردّ قومه إلى الصواب، ويقول: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

قالها نوحٌ عليه السلام، فكان جواب الملأ من قومه: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف].

وقالها هودٌ عليه السلام، فقالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف].

وقالها صالحٌ عليه السلام، فقالوا: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود].

---

(١) روى البخاري (٣٥٢١) (٤٦٢٣) عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه قال:

(**البَحيرة**: التي يُمنع دَرُّها، للطواغيت، فلا يحلُبُها أحد من الناس.

والسائبة: التي كانوا يُسَيِّبونها لآلهتهم فلا يُحملُ عليها شيء.

والوَصِيلة: الناقة البِكْر تُبكِّر في أول نِتاج الإبل بأنثى، ثم تُثنّي بعدُ بأنثى، وكانوا يسيّبونها لطواغيتهم أَنْ وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذَكَر.

والحاميْ: فحلُ الإبل يَضرب الضِّرابَ المعدودَ، فإذا قضى ضِرابَه تركوه للطواغيت وأعفَوْه من الحمل فلم يُحملْ عليه شيء، وسمَّوه الحاميَ).

وقالها شعيبٌ عليه السلام، فقالوا: ﴿يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾ [هود].

أرأيت إلى هذا الضلال المُوغِل في القِدَم، قد وَرِثَتْه الأممُ المتعاقبة، واتهمتْ فيه أنبياءَ الله ورسلَه بالضلال والسفاهة! وهددتْهم من أجله بالطرد والرجم! مع أنه ضلالٌ واضحٌ، وافتراءٌ بَيّن! ولكن الأعجب من ذلك أنهم يُدافعون عن هذه العقيدة الباطلة بحرارةٍ واستماتة، ولا يُطيقون الجدالَ فيها، كأنها قضيّةٌ مسلَّمة! والواقع أنهم يُدافعون عن قضيةٍ خاسرة، ولذلك يلجؤون إلى الإرهاب والبطش، وهذه لغة من يعتمد على جسمه لا على عقله، لغة القوة الغاشمة التي لا يضبطها فكرٌ حر.. لغة الحيوان الذي حرَمه الله من نعمة التمييز.

لَكَمْ عانى الرسل على أيدي أقوامهم من طيش وعربدة، وكم لاقَوْا من تكذيب وتعذيب، ولكن إذا وصل الأمر إلى حدّ التحدي، وانقطع الرجاء فيهم، وخِيفَ أن يتحول الحقُّ إلى باطل، فلا بد أن تتحقق سنة الله في عباده: مِن نصر أوليائه، وهلاكِ أعدائه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [يوسف].

ما مصير الذين قالوا: مَنْ أشدُّ منا قوة؟.. وما مصير ثمود الذين جابوا الصخرَ بالواد،[1] الذين كانوا يَنحِتون من الجبال بيوتًا فارهين؟.. ما مصير

(١) **جابوا الصخرَ**: أي خرقوا الصخر ودخلوه فاتخذوه بيوتًا. ابن جرير الطبري في تفسير سورة الفجر.

الذين بالغوا في إهانة نبيهم حتى دعا ربَّه: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر]..

ما مصير الذي ظنَّ المالَ كلَّ شيء، حتى كفر فقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص ٧٨].. ما مصير مَن كذَّب وعصى، ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات].

مصيرهم هو هذا المصير المحتوم، ليعلموا أن القوة لله جميعًا، وأن الله شديد العذاب.. مصيرهم ما أجمله الله تعالى في كتابه: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت].

هذه القُوَى المخلوقة في الإنسان استطاعت الجاهلية في كل عصرٍ أن تدفعَها إلى الحقد والكفر، والظلم والعدوان، وأن تجعل أهلَها مردةً من الشياطين تَعِيثُ في الأرض فسادًا.

أما الإسلام فلا يترك هذه القُوَى على عِلّاتها، ولا يطيب له منّا إماتتها، ولكن رحب بها، ودعا إليها، ووجهها إلى البناء، لا إلى الهدم.. إلى الخير، لا إلى الشر.. إلى الحب، لا إلى الكراهية.. إلى ما ينفع الإنسان، لا إلى ما يرده أسفل سافلين.. ولذلك قال الرسول ﷺ: «**المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحَبُّ إلى الله من المؤمنِ الضعيف، وفي كُلٍّ خيرٌ، احْرِصْ على ما ينفَعُك، واستَعِنْ بالله ولا تَعْجِزْ**» رواه مسلم.(١)

(١) صحيح مسلم (٢٦٦٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

حـرَّك الإسـلام هذه القُوَى، وسلك بها مسلكًا كريمًا طيّبًا، وغيَّر مَسارَها: من شهوة القتل إلى طلب الشهادة.. من الإغارة على القبائل إلى حمل الدعوة.. من التكالب على الشهوات إلى التنافس في المكرمات.. من عبادة المال إلى الزهد فيه.. من طلب الدنيا إلى طلب الآخرة.. من الاستعلاء بالباطل إلى التواضع في الحق.. من الأَثَرة إلى الإيثار.

استطاع الإسلام أن يجعل من القبائل المتنافرة المتفاخرةِ خيرَ أمّةٍ أُخرجت للناس: فالذين كانوا يعيشون على الغارات أصبحوا دعاةَ سِلْم، والذين كانوا يتاجرون في الحروب أصبحوا دعاةَ إصلاح، والذين كانوا يتخبطون في الضلال أصبحوا هداةَ حقّ، والذين كانوا يتكالبون على الدنيا أصبحوا أصحابَ زهد، والذين كانوا يعيشون على الحرام أصبحوا دعاةَ وَرَع، والذين كانت العصبيّةُ تمزّق صفوفَهم أصبحوا يُؤْثِرون على أنفسهم ولو كان بهم خَصَاصة، والذين كانوا على شَفَا حُفرةٍ من النار أصبحوا بنعمة الله إخوانًا.

❊ ❊ ❊

٢٧- فائدة الغرائز

إن الله سبحانه وتعالى لم يخلق الغرائز في الإنسان عبثًا، تعالى الله عن ذلك عُلوًّا كبيرًا، وهو القائل في كتابه الكريم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين]، وأحسنُ التقويم يقتضي أن يكون كلُّ شيء في الإنسان - بل في الكون كله - لحكمةٍ عظيمة، ومصلحةٍ عُليَا، وفائدةٍ مؤكَّدة، ولا يُعقل أن يكون الله قد خلق هذه الغرائزَ لتدمير الإنسان وتحطيمِه، أو إذلالِه وتعذيبِه، وهو سبحانه كرّمه وفضّله على كثيرٍ مِن خلقِه، واستخلفه في أرضه واستَعمره فيها.. وهذه وظائفُ كبرى تحتاج إلى صفاء الذهن، وسيادةِ العقل، وأصالةِ الفكر، وشَفافيَةِ النفس، وبُعدِ النظر.

ولا شك أن الغرائز ترتبط ارتباطًا وثيقًا بعمارة الأرض ونظام الحياة.. فلو لم يخلق الله في الإنسان غريزةَ حُبِّ التملّك لَكان الناس جميعًا في مستوًى واحدٍ من الفقر وسوء الحال، تكفيهم كِسرةُ الخبز الجافّة، والماءُ الآسن، ولَعاشوا يَدِبُّون على الأرض كما تَدِبُّ سائرُ المخلوقات بلا أملٍ ولا عمل، وما كان هناك داعٍ إلى التسابق والتنافس في رغد العيش وزينةِ الدنيا، وبناءِ العمارات الشاهقة، وزراعةِ الأراضي الشاسعة، ولا إلى رُقيِّ الحياة وتطويرِ أسباب العيش.

ولو لم يخلق الله في الإنسان غريزةَ الغضب لاستمرأَ الذُّلَّ، واستعذَبَ الهَوَانَ، ولَعاشَ كَلِيلَ الطَّرْف، ذليلَ النفس، يقبلُ الضَّيْم، ويرضى الدَّنِيّة، ولا يَغار على دِينٍ ولا عِرض، ولا يدافع عن حقٍّ ولا وطن.

وكذلك لو لم يُمكِّن الله في الإنسان غريزةَ حُبِّ البقاء، والغريزةَ الجنسية لما كان للإنسان من حاجةٍ إلى الزواج، ولا إلى تكاليفِه الباهظة، وتَبِعاتِه الثقيلة، ولا إلى تربيةِ الأولاد، والسهرِ على مصالحهم، والكفاحِ من أجلهم، والتضحيةِ بكل شيء في سبيلهم.. ومِن أين تكون المودة والرحمة في زواجٍ فقدَ بواعثَه الثائرة، ودوافعَه الجارفة؟! وكيف يكون الأولاد ثمارَ قلوبنا، وعِمادَ ظهورنا، وأكبادَنا التي تمشي على الأرض، وليس في الآباء عاطفةٌ مشبوبة، وحبٌّ ملتهب؟! والذين حُرِموا هذه الغريزةَ تراهم يعيشون في الأرض غُرَباءَ، أو عابِري سبيل، حتى تنتهي بهم رحلة الحياة.

الغريزة إذن هي السرّ الذي وضعه الله في الإنسان، لِيُتِمَّ به مسيرتَه في الأرض، ويُكمِلَ به نظامَ الحياة، بحبٍّ ورغبة واستقرار.. هل تستطيع أن تربّي ولدَ غيرك بالعاطفة التي تربي بها ولدك؟! هل تستطيع أن تَكُدَّ وتكدَحَ لتجمع ثروةً لغيرك بالحرص الذي تجمع به ثروةً لنفسك؟!

هل تقوم المرأة برعاية أولاد غيرها، وتعمل على نظافتهم، وهي سعيدةٌ، وبنفسٍ راضية، وصبرٍ جميل، كما تقوم على رعاية أولادها، وتشقى في سبيلهم ليسعدوا، وتسهر بجوارهم لينامو، وتقطع من عمرها ليعيشوا، وتحقق لهم كل مطالبهم ولو طلبوا منها نور عينيها، اللهم إلا بعاطفةٍ مستعارةٍ، وحبٍّ مصطنع؟! لماذا؟!

لأن هؤلاء جميعًا ليس لديهم الدوافعُ الذاتية، التي تتفجر داخل النفس، وليس لديهم الشرارة التي تولّد الطاقة في جميع أجزاء الجسم، وليس لديهم السر الذي يجعل من العذاب رحمة، ومن الشقاء سعادة،

ومن الدموع بسمات، تُشرق في وجوه الآخرين، ليس لديهم الغرائز التي تجعل الوُدّ مهجةَ القلب، وتجعل المالَ زينةَ الدنيا، وتجعل الدفاع عن الدين والنفس والوطن فريضةً.

وهذه الغرائز بما تَغرِزُه من عواطفَ نبيلة، ومُعطَياتٍ خيّرة، تنعم بها البشرية، ويسعد بها المجتمع، وتصان بها الحقوق، تحتاج إلى من يضبط صِمَامَها، ويُمسك زِمامها، ويعاملها برفق، ويصاحبها بمعروف.. وإلّا تحولّتْ إلى قُوًى مدمِّرة، تهدد أصحابَها بانفجارٍ مروّع، وخرجت عن مسارها المشروع، كما تخرج القاطرة عن مسارها المحدد، ثم تنقلب بمن فيها رأسًا على عقب!

وكم من أناسٍ استعبدهم الهَوَى فعَبَدُوه! ومَلَكَهم المالُ قبل أن يَملِكُوه! وابتُلوا بالأزواج والأولاد حتى فُتنوا! لماذا؟ لأنهم انحرفوا عن الطريق، وتركوا لأنفسهم الحبل على الغارب، وسلّموها عجلة القيادة، حتى هَوَتْ بهم في مكانٍ سَحيق، والله تبارك وتعالى يحذرنا من هذا المصير فيقول: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية].

ويقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن].

ويقول سبحانه: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف].

والرسول ﷺ يقول: «**تَعِسَ عبدُ الدينارِ والدرهمِ، والقَطِيفةِ والخَمِيصة، إنْ أُعطِيَ رَضِيَ، وإنْ لم يُعطَ لم يرضَ**» رواه البخاري.(١)

والإسلام يعرف هذه الغرائز، ويَقدِر لها قدرَها، ويفهم تمام الفهم دورها في الحياة، وما يُمكِنُ أن تلعبه على مسرح الأحداث، فأضاء لها النورَ الأخضر، لتنطلق باعتدالٍ وأَنَاةٍ على طريق الخير والأمان، وجعل منها أداةَ بناءٍ، لا مِعوَلَ هدم، ومنحها فرصة التعبير عن نفسها بأدب ورَوِيّة، لا أن تَعوِيَ كما تَعوِي الذئاب.. والغريزة الجنسية أشدُّ هذه الغرائزِ وَطْأَةً، وأكثرُها شُغلًا لأذهان الناس وأفكارهم، وأعظمُها أثرًا في حياتهم، وأكبرُها قابليةً للاشتعال، وأعنفُها جُموحًا وميلًا إلى الطيش والانحراف.

والـزواج هو النظام الوحيد الذي يلبّي نـداءَ هذه الغريزة، ويحقق رَغَباتِها، بعَقدٍ حلال، يجعلها تؤدّي وظيفتَها في استمرار الحياة بأمانة الله، وحِكمةِ الله، بعَقدٍ مشهود، يُقابله الأهل والمحبون بالسرور والارتياح، ويتبادلون من أجله أخلصَ التّهاني وأطيبَ الأماني..

ولقد وضع الله في الـزواج من أسـراره وآياته ما يحقق به السعادةَ والسكينة، وما يمزج به المودةَ والرحمة، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم].

فالزواج هو النظام الوحيد الذي أمر الله به، ليُعرَفَ به الآباءُ والأمهات، وتتميّزَ به الأنسابُ والأرحام، وتَتِمَّ به الخليّة الحيّة التي سُرْعانَ ما تتفتَّتُ

(١) صحيح البخاري (٢٨٨٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

إلى خلايا تكوّن مجتمعًا، وشعوبًا وقبائل.. ثم ماذا؟.. ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم].. وما الناس جميعًا إلا من آدمَ وحَوّاءَ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء].

وأيُّ تعبيرٍ آخَرَ للجنس بغير الزواج إنما هو تعبيرٌ آثِمٌ، يُقابَلُ بالغضب واللعنة، لأنه عدوانٌ على الشرف والفضيلة، واتباعٌ لغير سبيل المؤمنين.. والله تبارك وتعالى يمتدح المؤمنين، ويؤكد فوزهم وفلاحَهم، ومنهم الذين يتعففون عن الحرام، فيقول سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾ [المؤمنون].

والرسول ﷺ يَصِفُ الزواجَ للشباب ويقول: «**يا معشر الشباب! مَن استطاع منكم الباءةَ فليتزوَّجْ، فإنه أَغَضُّ للبصر، وأحصَنُ للفَرْج، ومَن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وِجاء**» متفق عليه.(١)

فالرسول ﷺ يخاطب الشباب، ليحفظ عليهم حياءَهم وطهارتَهم، ويحفظَهم من أنفسهم.. يخاطبُهم لأنهم يَئِنُّون تحت وَطْأةِ هذه الغريزة، ويشعرون بشدتها وقسوتها، ويقَعون معها في صراعٍ عنيف.. وشيطانُها الفاجر يزيّن لهم كلَّ رذيلة، ويأمرهم بالفحشاء، وعُواؤها المخيف، يُلبِّس أمامَهم كل السبل، وعلى كل سبيلٍ منها شيطان، وبريقها يَخطَفُ

(١) صحيح البخاري (١٩٠٥)، صحيح مسلم (١٤٠٠) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

أبصارَهم، ويُغرِيهم بالسقوط في النار، والرسول ﷺ آخِذٌ بحُجَزِهِم، ويريدون أن يتفلّتوا من يده.

الرسول ﷺ يُحِسُّ بما فيهم من حَيْرة، وما يقاسونه من عذاب.. وهذه حالةٌ لا يفيد معها علاجٌ مؤقَّتٌ، ولا عِظَةٌ عابرة، ولا نصيحةٌ في السر.. فالعلاج المؤقت كثيرًا ما يغلبه الألم، والعظة العابرة كثيرًا ما تغفُلُ عنها القلوب، والنصيحة قد يزول أثرها بعد وقت.

فإذا اختص الرسول ﷺ الشباب بهذا النطق النبوي، وأمرهم بالزواج، فإنما يريد بذلك أن يضع الحلَّ النهائي للمشكلة بكل أبعادها، وأن يضع الغريزةَ الجنسية في مسارها الصحيح، فإذا أطفأ الزواج ظمأَ الشباب غَضُّوا أبصارهم عن المحارم، وعَفَّتْ نفوسُهم عن السوء.. لأنه أغضُّ للبصر، وأحصن للفرج.

❊ ❊ ❊

٢٨- موقف الإسلام من عوامل الإثارة

قلتُ: إن الرسول ﷺ اختصَّ الشباب بهذا النطق النبوي، وأمرهم بالزواج لأنه أغضُّ للبصر، وأحصن للفرج.. قد تقول: إن بعض المتزوجين لم يغضُّوا أبصارهم، فأقول: نعم، قد تُفلت من أحدهم نظرةٌ محرمةٌ إلى امرأةٍ أجنبية، ويرى فيها مَسْحةً من جمالٍ لا يراه في امرأته، ويُعجَبُ بها، ولكن الرسول ﷺ يبادرهم بقوله: «**إن المرأة تُقبل في صورة شيطان، وتُدْبر في صورة شيطان، فإذا أبصَر أحدكم امرأةً فليأتِ أهلَه، فإن ذلك يردُّ ما في نفسه**» رواه مسلم.(١)

يُشبّه الرسول ﷺ المرأةَ المتبرّجة بالشيطان، لأنها إذا خرجت متعطرةً متزينةً، مُقبِلةً مُدْبرةً، كاسيةً عارية، مائلةً مُمِيلة، فإنها تقوم بالدور الذي يقوم به الشيطان في الدعوة إلى الشر، والإغراء بالرذيلة، وإثارة الغريزة، وإشعال الفتنة، وتخريب البيوت.. فإذا رجع الرجل إلى بيته، وجد المرأةَ هي المرأة، فتسكُن نفسُه، ويرجع إلى ضميره، ويردّ كيد الشيطان إلى نحره.. وهذا من الطب النبوي.

ولا شك أن أية امرأةٍ تحترم نفسها لا ترضى لنفسها أن تكون شيطانة، وأن تقبل وتدبر في صورة شيطان، إنما يجب أن تُلزِمَ نفسَها جانبَ الوقار والحشمة، وأن تعمل بكل طاقاتها على أن تكون بعيدةً عن أعين الرجال، فالطَّرْف رائد القلب، والنظرة بَريد الزنى، وسهمٌ مسموم من سهام إبليس،

(١) صحيح مسلم (١٤٠٣) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

والرسول ﷺ يقول: «**ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرجال من النساء**» متفق عليه،[١] وليس في هذا تحاملٌ على المرأة، بل فيه حرصٌ على كرامة البيوت، وصيانة الأسر، وتكريم الإنسان.

فالزواج إذن حصنٌ حصين لكل من الرجل والمرأة، يحميهما من السقوط والعثرات.. ولا شك أن الرجل الذي ينظر إلى غير زوجته بِريبةٍ، والمرأةَ التي تنظر إلى غير زوجها بسوءٍ، لا بد أن كُلًّا منهما سيُفيق على لَذْع الضمير، وسيعود إلى صوابه، لِيُذكّرَ الرجلَ أن امرأتَه في انتظاره، ويذكّر المرأةَ أن زوجَها أجدرُ بها، وأن كُلًّا منهما أولى بالآخر، ويجب أن يكون وفيًّا للآخر..

فإذا ما تجرّأ أحدُهما بعد ذلك على الحصن الحصين، والميثاقِ الغليظ، وخان أمانةَ الله وكلمتَه التي ربط بها بينهما، وتعدَّى على القداسة الزوجية بالخيانة، وترك الحلالَ إلى الحرام، فلا بد أن يَلقَى في النار الجزاءَ الذي تهبط القلوبُ من هوله، ويُقامَ عليه حدُّ الرجم، لأنه لئيم الطبع، دَنيء النفس، ليس جديرًا بكلمة إنسان، فقد غلبت عليه حَيَوانيّتُه، ائتمَنَه الله فخان، وأنعم عليه فجَحَد، وأعطاه العهدَ والميثاقَ الغليظَ، فغدر![٢]

---

(١) صحيح البخاري (٥٠٩٦)، صحيح مسلم (٢٧٤٠) عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

(٢) عقوبة الرجم في الشرع خاصةٌ بالزاني (أو الزانية) المُحصَن (وهو الرجل الذي سَبَق أَن وَطِئَ في نكاح صحيح، أو المرأةُ التي سَبَق أَن وُطِئَتْ في نكاح صحيح)، فيُقيم القاضي حدَّ الرجم بعد ثبوت الزنى لديه: إما بالبيّنة الكاملة الصحيحة، وهي شهادة أربعة رجال عُدول، يشهدون أنهم رأوا الفاحشة بأعينهم، وإما باعتراف الزاني وإقراره.

أما إذا كان الزاني (أو الزانية) غيرَ محصن، فعقوبته مئةُ جَلدة. وتفصيل شروط إقامة حدّ الرجم في الموسوعة الفقهية الكويتية، مادة (رجم) ومادة (شهادة).

فما عذرُه حتى يترك الحلال إلى الحرام، والطيّبَ إلى الخبيث، والشرفَ إلى العار، ومن تَمُدُّه بالحياة إلى من تَسُوقه إلى الرجم! فلا يصح لمثله أن يعيش، لأنه لا يُشرِّفُ الإنسانيةَ أن يكون من بينها، بل هو وصمةُ عار.. من هنا يَحِلُّ دَمُه، وللناس حُرمة، ويُرجَم، وغيرُه يُرحَم.. قال رسول الله ﷺ: «**لا يحلُّ دم امرئٍ مسلمٍ يشهد أنْ لا إله إلا الله، وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الثيّب الزاني، والنفسُ بالنفس، والتاركُ لِدِينِهِ المُفارقُ للجماعة**» رواه البخاري ومسلم.(١)

إن علاج الشباب بالاختلاط! وبما يسمونه تربيةً جنسية! إنْ هو إلا علاجٌ بدواءٍ فاسد، يزيد من خطورة الحال وشدّتِه، وإنه يُقصد به تقريبُ النار من البارود! والنتيجة الانفجار المحقق..

فما هو الحل الذي لا يخالطه إثم؟ ما هو الرأي الذي لا يُداخله دَخَل؟ ما هو العلاج الذي يقطع دابر الفتنة؟.. الحلُّ هو الإسلام، وكيف يكون ذلك؟

الإسلام يعلَم أن الغريزة الجنسية لا بدَّ منها لامتداد الحياة وانتظام المجتمع، ويعلم أنْ لا خوفَ منها مطلقًا ما دامت بعيدةً عن جوّ الإثارة والإغراء، فإذا أُثيرت اختَلّ صِمَامُ الأمن، وأَفْلَتَ الزِّمامُ، وأصبح من العسير السيطرةُ عليها، حتى ينتهي الأمر بصاحبها إلى السقوط والضياع، والعياذ بالله! لذلك أغلق الإسلام أمامَها جميعَ أبواب الشر، وهيّأ لها المُناخَ الصالحَ لتعيش هادئةً آمنة، سالمةً من الأذى والإيذاء، حتى يحين لها الوقت المناسب، فتؤدي وظيفتها في الحلال.

---

(١) صحيح البخاري (٦٨٧٨)، صحيح مسلم (١٦٧٦) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

فلا يكاد الطفل يبلغ حدَّ التمييز، ويريد أن يتعرف على الطبيعة من حوله، ويفتح عينيه على البيئة التي تحيط به، ويستطيع أن يفرق بين الطيب والخبيث، والحسن والقبيح، حتى يتلقى أولَ إشارة من الإسلام بالآداب التي تَربِطه بخالقه، وتجعله دائمًا في حفظه ورعايته، وتحميه من كل سوءٍ يريد أن يقتحم عليه نفسَه الطيبة، ومن كل ميكروب يريد أن يخترق جدارَ قلبِه المُفعَمِ بالبراءة والطهر..

هذه الإشارة يرويها الإمام أحمد في الحديث الصحيح، عن النبي ﷺ قال: «**مُرُوا أولادَكم بالصلاة وهم أبناءُ سبعِ سِنِين، واضربوهم عليها وهو أبناءُ عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع**».(١)

إن هذا الأمر للآباء وأولياء الأمور على سبيل الوجوب، فإذا فرّطوا فيه فلْيتحمَّلوا الحظَّ الأكبر من المسؤولية أمامَ رب العالمين، لأن هذه المرحلة أُولى مراحل التربية العملية، وأُولى مراحل البناء الحقيقي للشخصية، فإذا لم يكن الأساسُ قويًّا، انهار البناءُ أمامَ عيون الآباء، ودفعوا الثمن غاليًا، قال رسول الله ﷺ: «**إن الله سائلٌ كلَّ راع عما استرعاه، أَحَفِظَ أم ضيَّع؟ حتى يسأل الرجل عن أهل بيته**».(٢)

وربطُ التربية أولًا بالله ومعرفتِه، والوقوفِ بين يديه والالتجاءِ إليه، أمرٌ له قيمته، لِيَعلَمَ الطفلُ منذ صغره أن طاعة الله قبل كل شيء، وأنّ أمرَه

(١) مسند أحمد (٦٦٨٩)، سنن أبي داود (٤٩٥) عن عبد الله بن عمرِو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) رواه النسائي في السنن الكبرى (٩١٧٤)، وابن حبان في صحيحه (٤٤٩٢)، وأبو عوانة في مستخرجه على صحيح مسلم (٧٤٧٧) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

مقدَّمٌ على كل أمر، وأن الله وحده ذو القوة المتين، الذي يَلجأ إليه العباد، فإذا حَزَبَه أمرٌ لجأ إلى الصلاة، «**والصلاة نور**».[1]

وربطُ التربية ثانيًا بالتفريق في المضاجع، يُبعد الطفلَ عن مواطنِ الرِّيبةِ والتُّهَمَة، ويجعله في منأًى عن سوء القصد.. فغريزةُ حبِّ الاستطلاع قد تدفع الطفل إلى البحث عن الحقائق المستورة، أو استكشاف ما خفي من الأمر، وهنا يلعب الشيطان دوره بالتزيين والغَواية، ﴿**لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا**﴾ [الأعراف ٢٠].

وهكذا يعرِّفنا الإسلام أنّه: مِن مَأْمَنِهِ يُؤْتَى الحَذِرُ،[2] وأن المسلم لا يجوز أن يكون ساذَجًا إلى حدّ البَلاهة، ولا يجوز أن يُحسن الظنَّ إلى حدّ الغفلة، فيعتقدَ إلى حدّ اليقين أن أولاده سيظلُّون صغارًا، لا يَكبَرُون ولا يُدركون! لأن الإدراك يمكن أن ينبُت في لحظةٍ واحدة، ولأن شيطان الجنس يمكن أن يتحرك في طَرْفة عين، ويجعلَ منهم شياطين..

والجمع بين الأمرين: بالصلاة وبالتفريق في المضاجع، أمرٌ ضروري، فالأول يقرّب إلى الله، والثاني يُبعد عن الشيطان.. الأول هداية، والآخَر وقاية.. وكلاهما طاعةٌ لله، وائتمارٌ بأمر رسول الله ﷺ خيرِ المُرَبِّين.

والاستئذان أدبٌ من آداب الإسلام، فلا يجوز لأحدٍ مهما كانت قرابتُه

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم (٢٢٣) عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٢) مَثَلٌ مشهور عن العرب، قال الميداني في مجمع الأمثال (٤٠٦٣): (هذا المثل يُروَى عن أَكْثَمَ بنِ صَيْفيٍّ التميمي، أي أنّ الحَذِرَ لا يدفع عنه ما لا بد له منه وإن جَهَدَ جَهْدَه).

أن يتسلّل إلى بيوتِ غيرِه مِن دون إذنه، حتى لا تقع عينُه على عَوْراتِ الناس وأسرارِهم، ومراعاةً للذوق العام، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور].

ولكن الطفل - لالتصاقِه بأبويه، وحاجتِه إليهما، وعدم استغنائِه عنهما، لمَطالبه الكثيرة المتكررة، التي يصعُب معها الانتظارُ حتى يُؤذَن له - أُبِيح له ما لم يُبَح لغيره من الدخول على أبويه من غير استئذان، تخفيفًا عليه وعليهما، إلا في أوقاتٍ ثلاثة:

* من قبل صلاة الفجر، لأنه وقت القيام من المضاجع، ووقت استبدال ثياب اليقظة بثياب النوم.

* وفي منتصف النهار عند الظهيرة، واشتداد الحر وظهوره، لأن الناس غالبًا يضعون ثيابهم في هذا الوقت.

* ومن بعد صلاة العشاء الآخِرة، لأنه وقت التجرد من ثياب اليقظة والالتحاف بثياب النوم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [النور].

إن هذا النظام الذي وضعه الله في كتابه يبيّن لنا إلى أي حدّ ينبغي أن يكون حرصُ الآباء من الأبناء، وأنهم مهما كان حبهم لهم، ولهفتُهم عليهم، وتعلّقُهم بهم، فلا يجوز أن تقع عيونهم على أمرٍ غريب، يُثير في نفوسهم التساؤلَ والفُضول، ويحرّك فيهم دوافعَ البحث عن المجهول، ويضع الآباءَ والأبناءَ في موقفٍ حرج، لا تختفي صورته من الذاكرة طول الحياة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾، ولم يقل: ثلاثة أوقاتٍ لكم، ليبين الحكمةَ من هذا التشريع الحكيم..

والإنسان لا يزال بخيرٍ حتى تبدوَ منه هفوةٌ أو هَنَةٌ من الهَنَات، فتهتزُّ صورته في العيون.. ومن واجب الآباء والأمهات أن يحتفظوا بوَقارهم ومكانتِهم في نفوس أبنائهم، وسيظلُّ كلٌّ منهم موضعَ التَّجِلّة والاحترام، حتى تسقط منه هفوةٌ صغيرة، أو يُرى في موقفٍ غيرِ لائق، عند ذلك يشعر أنه فقدَ الكثير من رصيده الذي لا يُعوض، ويكون قد حرّك تفكيرَ ولدِه وانتباهَه إلى شيء غريب..

ومن يدري؟! فربما يكون هذا الموقف قد نزع منه الحياء، وهذا هو الهلاك والعياذ بالله! لأن الله إذا أراد أن يُهلك عبدًا نزع الحياء منه، والرسول ﷺ يقول: «**إنّ الحياءَ من الإيمان**» رواه البخاري ومسلم،[1] ويقول ﷺ: «**الحياءُ لا يأتي إلا بخير**» رواه البخاري ومسلم أيضًا.[2]

❊ ❊ ❊

(١) صحيح البخاري (٢٤)، صحيح مسلم (٣٦) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) صحيح البخاري (٦١١٧)، صحيح مسلم (٣٧) عن عمران بن الحصين رضي الله عنه.

٢٩- أجهزة الجسم

وللقلب أجهزةٌ في الجسم هي أشبه بأجهزة الرادار، تعمل دون توقُّف، وتلتقط كلَّ ما تقع عليه من صور، وترسلها إليه ليختار منها ما يوافق هواه.. وأخطر هذه الأجهزة وأدقُّها جهاز السمع والبصر، وقد وضع القلبُ فيهما ثقتَه التامة.. وحتى لا يُستغَلَّ كلٌّ منهما استغلالًا سيئًا كانت المسؤولية أمام الله موزَّعةً، على نحو ما قال جلَّ شأنه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء].

والإسلام يريد من المسلم أن يكون قويًّا، وأن يقوم بدافعٍ من إيمانه بمراقبة هذه الأجهزة، وإغلاقِ النوافذ التي يحاول شيطانُ الشهوة أن يُطِلَّ منها برأسه، ليحقق أطماعَه الفاسدة، لذلك أمر الله المؤمنين والمؤمنات بغَضِّ البصر عما لا يحلُّ لهم نظرُه، لأن في ذلك الخيرَ كلَّ الخير لهم، فقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور].

لماذا؟.. لأنه ما من نظرةٍ إلا وللشيطان فيها مطمَع، وله منها مدخَلٌ إلى الحرام، والنظرة سهمٌ مسمومٌ من سهام إبليس.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**كُتِبَ على ابنِ آدمَ نصيبُه من**

الزنى، مُدْرِكٌ ذلك لا مَحالةَ: فالعينانِ زِناهُما النظر، والأُذُنانِ زِناهُما الاستماع، واللسانُ زِناهُ الكلام، واليدُ زِناها البَطْش، والرِّجْلُ زِناها الخُطَا، والقلبُ يَهوَى ويتمنَّى، ويصدِّقُ ذلك الفرْجُ ويكذِّبُه» متفق عليه.[1]

ومعنى «**كُتِبَ عليه**» أي خلَق الله له إرادةً،[2] ومعنى «**نصيبُه من الزنى**» أي مُقدِّماتُه، ومعنى «**يصدّق ذلك الفرْجُ ويكذّبه**» أي بالإتيان بما هو المقصود من ذلك، أو بالترك والكفّ عنه.

وأشدُّ ما في هذا الحديث أنه سمَّى النظرةَ المحرَّمة، والكلمةَ الفاحشة، واللمسةَ السيئة، والخُطوةَ المشبوهة، سماها كلَّها زِنًى! لأنها مقدِّماتُه، ولأنها أول الطريق إليه، إن لم يَعصِمِ المسلمَ إيمانٌ قويٌّ، وضميرٌ حيّ.. أليست هذه التُّهَمةُ أخطرَ تُهَمةٍ تُوجَّهُ إلى المسلم؟! ومَن يرضى لنفسه هذا الوصفَ لمجرَّدِ نظرةٍ يمكن بكل سهولةٍ أن يَغُضَّها عن محارم الله؟!

حتى في الطريق مطلوب من المسلم - رجلًا كان أو امرأة - أن يغضَّ بصرَه، مع أن للطريق ظروفَه الخاصةَ وحاجتَه المُلِحّة، فيقول الرسول ﷺ:

---

(١) صحيح البخاري (٦٢٤٣) (٦٦١٢)، صحيح مسلم (٢٦٥٧).

(٢) قال القسطلاني في إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٦٦١٢): «إن الله كَتَب» **يحتمل** أن يُراد به: أَثبتَ أي أثبت فيه الشهوةَ والمَيلَ إلى النساء، وخَلق فيه العينينِ والأُذُنَ والقلبَ، وهي التي تجد لذةَ الزنى، **ويحتمل** أن يُراد به: قَدّر، أي قَدّر في الأزل أن يَجريَ على ابن آدم الزنى، فإذا قدّر في الأزل أَدرَك ذلك لا محالة. اهـ.

والمعنى الثاني هو الذي اقتصر عليه أغلب الشراح، كالنووي في شرح مسلم، والقرطبي في المُفهِم، والعراقي في طرح التثريب، وغيرهم.

«**إياكم والجلوسَ في الطرقات**»، قالوا: يا رسول الله! ما لَنا من مَجالسنا بُدٌّ، نتحدَّثُ فيها، فقال رسول الله ﷺ: «**فإذا أبيتُم إلا المجلسَ فأَعْطُوا الطريقَ حقَّه**»، قالوا: وما حقُّ الطريق يا رسول الله؟ قال: «**غَضُّ البصر، وكَفُّ الأذى، وردُّ السلام، والأمرُ بالمعروف، والنهيُ عن المنكر**» متفق عليه.(١)

والطريق لا يخلو من نظر الفَجْأة، وعن هذه النظرة يقول جَريرُ بن عبد الله البَجَليّ رضي الله عنه: (سألتُ رسولَ الله ﷺ عن نظرِ الفُجَاءة، فأمرَني أن أصرِفَ بصري). رواه مسلم، وفي رواية: فقال ﷺ: «**اصرِفْ بصرَك**».(٢) قالها الرسول ﷺ بصراحةٍ وقوّةٍ حتى لا يُتبِعَها بنظرةٍ أخرى ترسُم ما تبقى من الصورة في وِجدانه.

وليس غضُّ البصر مطلوبًا من الرجل وحدَه، بل من المرأة أيضًا، ويحرم عليها أن تنظر إلى الرجل ولو كان أعمَى، وقد سوى الله تعالى في الأمر بغَضِّ البصر بين الرجال والنساء فقال: ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ**﴾، ثم قال تعالى: ﴿**وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ**﴾ [النور ٣٠-٣١].

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: كنت عند رسول الله ﷺ وعنده ميمونة، فأقبَلَ ابنُ أم مكتومٍ، فدخل عليه، وذلك بعد ما أُمِرْنا بالحجاب، فقال

---

(١) صحيح البخاري (٢٤٦٥) (٦٢٢٩)، صحيح مسلم (٢١٢١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) صحيح مسلم (٢١٥٩)، جامع الترمذي (٢٧٧٦)، مسند أحمد (١٩١٩٧)، سنن أبي داود (٢١٤٨).

النبي ﷺ: «**احتَجِبَا منه**»، فقلتُ: يا رسول الله، أليس هو أعمَى لا يُبصِرُنا ولا يعرفُنا؟! فقال النبي ﷺ: «**أَفعَمْياوانِ أنتما! ألستُما تُبصِرانِه**»! رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.(١)

وليس من المعقول أن يطلب الشرع من الرجال والنساء الغض عن المحارم، دون أن يقدّم لهم العون منه، وذلك بأن يُلزم النساء جانبَ الحشمة والوقار، فبعد ما أمرهن بغَضِّ البصر قال الله تعالى: ﴿**وَلَا**

---

(١) جامع الترمذي (٢٧٧٨)، سنن أبي داود (٤١١٢)، النسائي في السنن الكبرى (٩٢٤١) (٩٢٤٢)، مسند أحمد (٢٦٥٣٧)، صحيح ابن حبان (٥٥٧٥) (٥٥٧٦).

وهذا الحديث اختلف النقاد في تصحيحه وتضعيفه:

* فضعفه الإمام أحمد، وعدد من المتأخرين، كفقهاء الحنابلة، وعدد من المعاصرين، ضعفوه من حيث السند، ومن حيث المتن لمعارضته للأحاديث الصحيحة، ومنها قول النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس رضي الله عنها: «**اعتدِّي في بيت ابن أم مكتوم، فإنه رجل أعمَى، تضعينَ ثيابَكِ فلا يَراكِ**»، رواه مسلم (١٤٨٠)، وأحمد (٢٧١٠٠)، ولأنهن لو مُنِعْنَ النظرَ لَوجب على الرجال الحجاب كما وجب على النساء، لئلا ينظرن إليهم.
* وصححه الترمذي، وابن حبان، وعدد من المتأخرين كالنووي، وعدد من المعاصرين.

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٤٥٤): (حديث أم سلمة مختلف في صحته). اهـ.

وقال الحافظ ابن حجر (٥٢٣٦): (وإسناده قوي.. والجمع بين الحديثين احتمال تقدم الواقعة، أو أن يكون في قصة حديث أم سلمة شيء يمنع النساء من رؤيته، لكون ابن أم مكتوم كان أعمى، فلعله كان منه شيء ينكشف ولا يشعر به). اهـ.

* وحمله بعض العلماء – على فرض صحته – على أنه خاص بأزواج النبي ﷺ، كالإمام أحمد وأبي داود السجستاني.

انظر التفصيل في التمهيد لابن عبد البر ١٩/ ١٥٤، والمغني لابن قدامة ٦/ ٥٦٣، وفتح الباري لابن حجر (٥٢٣٦)، والتلخيص الحبير لابن حجر (١٤٨٨).

﴿يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور ٣١]. والأمرانِ متلازمان، فلولا التبرجُ وإبداءُ الزينة ما كان من داعٍ إلى النظر المحرم..

وهل تخرج المرأة كاسيةً عاريةً إلا لأن تلتهمَها الأنظار! وما الغاية في إبراز المرأة لمفاتنها، واستعمالِها كلَّ وسائل التجميل، وإبداءِ كلِّ ما تملك من زينة، وفي عرض لحمها على الناس، في الشوارع والشواطئ! ما الغرض من كل ذلك؟! هل الغرض إرضاء نفسها؟ أم إرضاء غيرها؟! ولو رجع النساء إلى الحق، وقَرْنَ في بيوتهن ولم يَتبرَّجْنَ تبرُّجَ الجاهلية الأولى، واحترمن أنفسهن، ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب ٥٩]، لَمَا كانت الفتنةُ التي يحمل لواءها الشيطان، ولَمَا كان الصراعُ النفسي الذي يعانيه الفتيان والفتيات.

أما الاختلاط بين الجنسين ومنحُهما الفرصةَ لأن يخلوَ كلٌّ منهما بالآخر، والسماحُ للفتاة أن تسافر وحدَها، أو في صحبةِ صديقِها أو صديقِ العائلة، وجعلُ حسن الظن فوق كل اعتبار، وهذا الأسلوب العصريُّ في التربية! فكل هذه الأمور من نَزَغات الشيطان الذي يَلْبَسُ ثوبَ الفلاسفة، ويُتحفنا بأحدث النظريات العلمية الفاسدة!

ولذلك يُعلن الإسلام عليها الحربَ العَوَانَ، فيحرّم خلوةَ الرجل بامرأة ليست من محارمه، ويحرِّمُ على المرأة أن تسافر وحدها ولو للحج! فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**لا يَخْلُوَنَّ رجلٌ**

بامرأة إلا ومعها ذو مَحْرَم، ولا تُسافِرِ المرأةُ إلا مع ذي محرم»، فقام رجلٌ فقال: يا رسول الله، إنّ امرأتي خرجتْ حاجّةً، وإني اكْتُتِبْتُ في غزوة كذا وكذا! فقال النبي ﷺ: «**انطلِقْ فحُجَّ مع امرأتِك**» متفق عليه.(١)

حتى مع أقرب الناس إليك، يقول الرسول ﷺ: «**إياكم والدخولَ على النساء**»! فقال رجلٌ من الأنصار: أفرأيت الحَمْوَ؟ فقال النبي ﷺ: «**الحمْوُ الموت**»! متفق عليه،(٢) **والحموُ**: قريب الزوج، كأخيه، وابن أخيه، وابن عمه.

هذا أسلوب الإسلام في التربية، وهذا هو الحقّ، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟! ولا يخفى على أحدٍ ما يلاقيه المراهقون والشباب من معاناةٍ وشدة، وما يقاسونه من عذابٍ وحَيرة، وما طرأ على أجسامهم من تغيراتٍ وانفعالاتٍ، تجعل الحياة أمامهم محفوفةً بالمخاطر والمخاوف، وتجعل الطرق في وجوههم كأنها مزروعةٌ بالألغام..

ولا يشكُّ أحدٌ في أن فترة المراهقة والشباب من الثانيةَ عشْرةَ إلى الثامنةَ عشْرةَ فما فوقُ، هي أشدُّ الفترات خطورةً في حياة الإنسان وأكثرُها تعقيدًا.. فترةٌ مشحونة بالصراع الداخلي، والأزَمات النفسية، والمتناقضات العجيبة، والانفعالات المتقلبة: بين حَيرة وقلق، وأمنٍ وخوف، وشدٍّ وجذب، وفتورٍ وطموح، بين مَيلٍ إلى العزلة، وحبٍّ للِقاء الأصحاب..

---

(١) صحيح البخاري (١٨٦٢) (٣٠٠٦)، صحيح مسلم (١٣٤١).

(٢) صحيح البخاري (٥٢٣٢)، صحيح مسلم (٢١٧٢) عن عقبة بن عامر رضي الله عنه.

فترةٌ تضع صاحبَها في مُفتَرِقِ الطرق: بين الطفولة والرجولة المبكرة، بين ميوله النفسية وتقاليد المجتمع، بين ارتباطه بالأسرة وميله إلى الاستقلال، بين حبه لوالديه وحبه لنفسه، بين ضغط الغريزة وطاعة الله.

فترةٌ تضع صاحبها في امتحانٍ رهيب، بين ما هو كائنٌ وما يجب أن يكون.. بين الاستجابة لنداء الجنس والاستجابة لصوت العقل.. بين الانسياق في أحلام اليقظة والانطلاق إلى تطلعات المستقبل.. بين الهزيمة أمام الهواتف الدنيا والرضا بالقليل.. بين الزحف الكاسح في معترك الحياة، وميدان البطولات والأمجاد.

فما العمل؟ وكيف يكون حل هذه المشكلة؟ وما هي الخِدْمات التي يمكن أن نقدمها لهؤلاء المراهقين حتى يجتازوا هذه المرحلة بسلامٍ وعافية؟ وكيف نُعينُهم على أنفسهم، ونخلّصهم من أمواجها العاتية التي تريد أن تبتلعهم، ثم تتركَهم أجسادًا طافيةً على هامش الحياة؟!

ما المخرج من هذا الأمر؟! [هذا ما سنتناوله في العنوان الآتي: قضية المراهقة].(١)

❊ ❊ ❊

(١) ما بين معقوفين إضافة من المحقق.

٣٠- قضية المراهقة

لقد تناول علماء النفس والتربية قضية المراهقة بالدراسة والبحث، ودرسوا خصائص النفس البشرية في هذه الفترة الحرجة، وحاولوا معرفتها عن طريق ظواهرها المعبّرة، وانفعالاتها المحتقِنة، وخرجوا في آخر الأمر بوصايا ونصائح لا بأس بها..

ونحن لا ننكر ما بذلوه من جهودٍ مشكورةٍ في هذا السبيل، وما قدّموه للعقل من ثقافاتٍ واسعة، وملاحظاتٍ قيمة، وتجارِبَ صادقةٍ، ملؤوا بها بطونَ الكتب، وأَثْرَوْا بها مكتباتِ العالم.. ولكننا مع ذلك نوافقهم في أمور، ونخالفهم في أمور، فيما يتعلق بهذه الفترة القاسية من حياة الناس..

نوافقهم على أن يوجِّهَ الشباب كلَّ طاقاتهم للنجاح في الحياة، والنجاحُ لا يُوهَب ولا يُورَث، والسماءُ لا تُمطر ذهبًا ولا فضة، ولا تُمطر حُظوظًا وأمجادًا على الناس، والنجاحُ لا يتحقق مصادفةً، ولا يتحقق بالأمانيِّ الفارغة، والهمم الضعيفة، والعزم الخَوّار، إنما يتحقق بالهمم العالية، والعزم الأكيد.. بالعمل المُضني، والجهاد المتواصل، والصبر الطويل..

والنفوس القوية هي التي لا تفكر إلا في النجاح، ولا تترك فرصة لغيره يَعُوقُ سيرَها الجادّ، والناس مهما اختلفت آمالهم وأعمالهم، ووسائلُهم وطرقُ تفكيرهم، فإن النجاح في النهاية لمن يعمل، لا لمن يكسَل.. النجاح لمن سار على الدرب، لا لمن يتوقف عن المسير.. النجاح لمن يتصبب جبينُه عَرَقًا، ويصنع مستقبله بيده، لا لمن يبني مدينةً من الرمال..

نوافقهم على أن يَشْغَلَ الشبابُ أجسامَهم بالرياضة المباحة، لتشتدَّ سواعدُهم، وتَقْوَى عضلاتُهم، وأن يُعِدُّوا أنفسَهم ليكونوا جنودًا لله، وحماةً للوطن، ورجالًا للمستقبل.. فما أحوجَنا إلى رجالٍ أشداءَ، وإلى شبابٍ أقوياءَ، فلقد أثنى الله على رسوله ﷺ وعلى من معه بقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ﴾ [الفتح ٢٩].. وأثنَتِ ابنةُ الشيخ الكبير على موسى عليه السلام بقوته وأمانته، فقالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص].(١)

والرسول ﷺ يقول: «**المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير، احرِصْ على ما ينفعُك، واستعِنْ بالله ولا تَعْجِزْ، وإنْ أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلتُ كذا، كان كذا وكذا! ولكن قلْ: قَدَرُ اللهِ وما شاء فَعَل، فإنّ لو تفتح عمل الشيطان**» رواه مسلم.(٢)

نوافقهم على أن يَشْغَلَ الشبابُ عقولَهم بالقراءة المفيدة، والعلم النافع، لا بقراءة الأدب الرخيص، والقِصص الفاجرة، ولا بمشاهدة الأفلام

---

(١) **تقدم ص ١٩٩ ذكر فائدة:** أن الشيخ الكبير من مَدين والد المرأتين اللتين سقى لهما موسى عليه السلام، ثم تزوج إحداهما، لم يثبت في خبر صحيح أنه النبي شعيب عليه السلام، فليس هو شعيبًا عليه السلام.

(٢) صحيح مسلم (٢٦٦٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
وقوله: «**قَدَرُ اللهِ**» ضُبط هكذا بالإضافة، على أنه جملةٌ اسمية، أي هذا قَدَرُ اللهِ، وضُبط «**قدَّر اللهُ**»، برفع الجلالة، على أن الجملة فعلية. الحرز الثمين للحصن الحصين للملا عليّ القاريْ ٢/ ١٠٥٧، والفتوحات الربانية على الأذكار النواوية لابن عَلّان الصِّدّيقي المكي ٤/ ٢٤.

التافهة، والروايات السخيفة، ولا بالجلوس على المقاهي، والتسكع في الطرقات، وحفظِ الأغاني الخليعة عن ظهر قلب.. فكل هذه الوسائل لا غاية من ورائها إلا الضَّياعُ والفساد، والتحريضُ على الرذيلة.. ومن كل هذه التفاهات كان الرسول ﷺ يستعيذ بالله فيقول: «**اللهم إني أعوذ بك من علمٍ لا ينفع، ومن قلبٍ لا يخشع، ومن نفسٍ لا تشبَع، ومن دعوةٍ لا يُستجاب لها**» رواه أحمد.(١)

نوافقهم على هذه الطرق، لتحويل مجرى النشاط الجنسي إلى نشاطٍ بنّاء.. نوافقهم على العمل لتحقيق الآمال، وعلى شَغْل أوقات الفراغ بالرياضة الجسمية والعقلية..

ولكننا لا نستطيع أن نوافقهم على اختلاط البنينَ بالبنات، في أيّ طور من أطوار حياتهم.. وكذلك لا نستطيع أن نوافقهم على التربية الجنسية للجنسين منذ ولادتهم، إلى الانتهاء من الدراسة الجامعية..

إن علماء النفس ينظرون إلى المشكلة من زاوية واحدة، هي الخوف عليهم ذكـورًا وإناثًا من الكبت، الذي يؤدي في نظرهم إلى عواقبَ

---

(١) صحيح مسلم (٢٧٢٢)، مسند أحمد (١٩٣٠٨)، سنن النسائي (٥٤٥٨) (٥٥٣٨) عن زيد ابن أرقم رضي الله عنه.

ورواه أبو داود (١٥٤٨)، والنسائي (٥٤٦٧)، وابن ماجه (٢٥٠) (٣٨٣٧)، وأحمد (٨٤٨٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ورواه الترمذي وصححه (٣٤٨٢)، والنسائي (٥٤٤٢)، وأحمد (٦٥٥٧) عن عبد الله بن عمرِو بن العاص رضي الله عنهما.

ورواه النسائي (٥٤٧٠)، وأحمد (١٣٠٠٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

وخيمة، وصراعٍ نفسي من حرمان النفس من رغبةٍ جامحة، وخوفًا عليهم من تقاليد المجتمع، وتحويلها من دائرة الشعور إلى دائرة اللاشعور، أو العقل الباطن، لتستقر فيه وتكوِّن العُقَدَ النفسية التي تؤدي بدورها إلى الانحراف..

وخَوْفًا من الانحراف والكبت، أخذ علماء النفس ينادون بالاختلاط والتربية الجنسية! وأن نكون صُرَحاءَ مع أنفسنا ومع أولادنا.. وبهذا - على حسبِ ظنهم - يكونون قد عالجوا المشكلة علاجًا حاسمًا.. والواقع يُكذِّب هذه النتيجة، ويبين أن هذا الرأي ليس علاجًا، وإنما هو مؤامرة على الفضيلة، وعلى البقية الباقية في نفوس الناس من حياء وعفة.

ومتى كان الاختلاط علاجًا للمراهقة والشباب، وهو أصل البلاء وسبب المصيبة؟! وهل من المعقول أن نقرّب البارود من النار، ثم ننهاه عن الاشتعال؟! أم هل من المعقول أن نُلقي الشابَّ في اليمّ مكتوفًا ونقول له: إياك إياك أن تبتل بالماء؟![1]

ومن العجيب أنهم يعترفون بأن العلاقة بين الفتى والفتاة علاقةٌ هوجاء، وأنه كلما طالت المدة التي يقضيها كل منهما مع الآخر، وزادت حرية انطلاقهما، كانت الخطورة أعظمَ، وأنّ من الخطأ أن نتصور أنه لا ضرر في لعب الصغار بعضِهم مع بعض، لأن شيطان الجنس موجودٌ بينهم، وقد يتحرك في أي وقت.

---

(١) هذا عَجُزُ بيت مشهور من البحر البسيط:

ألقاهُ في اليَمِّ مكتوفًا وقال له إياك إياك أن تبتلَّ بالماءِ

كأنهم يرون الاختلاط أمرًا مشروعًا وضروريًّا إذا كان في صورة جماعية، كأن يلتقي الجميع في صالات السينما والرقص والموسيقا، وفي الرِّحْلات العامة، والملاعب الرياضية، وأن ضرره يقتصر فيما إذا كان في صورةٍ انفرادية! مع أن النتيجة واحدة، وأن الاختلاط شرٌّ كله في جميع صوره وأشكاله، وأن الاجتماع - طال أم قَصُر - لن ينفضَّ إلا بعد الاتفاق على مواعيدَ قريبة، وأماكنَ بعيدة، ونوايا سيئة.

أيظنون أنهم يجتمعون على صلاةٍ أو عبادة؟! إنهم ذئابٌ جائعةٌ، تبحث عن اللذائذ المحرمة، فهل هذا خيرٌ أم الكبت؟! سيقولون: هذا أيضًا خير من الكبت.. ولكن الواقع يشهد أن الذين فُتحت لهم أبواب الصالات والمراقص، لينفِّسوا عن أنفسهم - كما يقولون - هم الذين لهم في كل وادٍ فضيحة، وفي كل ليلةٍ مأساة، وأنهم أكثر الناس فشلًا في إنشاء بيوتٍ كريمة، وأُسَرٍ سعيدة، وزواجٍ موفَّق، وأنَّ حياتهم تنتهي بخَطْبٍ مُروِّع، سبقهم كثيرون إلى هذا المصير، ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ [الدخان].

والذين سَبَقوا إلى التربية الجنسية ونفّذوها في بلادهم، وشرحوا للأولاد الجنسَ في البيت وفي المدرسة، ورسموه أمامَهم على السبورة، وصوّروه لهم في الكتب، هل نجحوا في هذه التجربة؟ كَلّا! بل صاروا أكثر الناس احتراقًا بلظاها، إذْ شاع الشذوذ والفجور، وملأ الأولادُ غيرُ الشرعيين الملاجئَ حتى ضاقت بهم، ويسأل الولدُ أباه وأمَّه فلا يجد إلا الضياع..

أَمِنَ المعقول أن ينشأ مجتمعٌ فاضلٌ بهذه الطريقة؟! إن العلاج بهذه الطريقة علاجٌ بعيد عن الصواب، لأنه يعالج الداء بالداء! بل يعالج الداء بالوباء! أو كَمَنْ يعلّم أولادَه الصغار كيف يُشعلون النار في أنفسهم وفي بيوتهم! أو كمن يُعرّفهم كيف يُحركون الشرارة في مستودعٍ مملوءٍ بالذخيرة الحية لينفجر فيهم!

إننا لا ننكر أن الطفل يولد وفيه غريزةٌ جنسية، ولكنها تظلّ كامنةً فيه، حتى تتحرك في سِنٍّ معينة، وفي مرحلةٍ معينة، وهي مرحلة المراهقة، أما قبل ذلك فهي كامنة مستقرة، كما تستقر الحياة في البَذْرة الجافّة، ثم تنبُتُ في الوقت المناسب.. فما الحاجة إلى تعليم الطفل شيئًا لا يتصوره ولا يُحس بوجوده؟! وأين الرغبة الملحة التي يخشى عليها من الظهور، والتي يخاف أن تتحول إلى كبت؟!

ورغم هذه الأعراض النفسية التي تظهر في سن المراهقة، ورغم الظواهر الانفعالية التي تحيط أصحابها، وتحيط أهلِيهِم بالخوف والقلق، والتي يحاول المصلحون والمربون أن يجدوا لها مُناخًا بريئًا تتنفّس فيه.. رغم ذلك كله فإن الغريزة الجنسية مهما قَوِيَ سلطانها فلا يُخاف منها ما دامت بعيدة عن جو الإثارة والفتنة.

لكن الذين ينادون بالتربية الجنسية والاختلاط، أخذوا يبحثون عن أسرع الوسائل التي تجعل جَذوةَ الغريزة لا تنطفئ، وإنما تزيد كلَّ يومٍ ضِرامًا، وتشتد اشتعالًا.. وجعلوا لهذه الوسائل علومًا تُدرس، وكلياتٍ تُنشأ! ليكون الفساد مبنيًّا على قواعدَ ثابتة، ونظرياتٍ علمية.. فكان ما

يسمى بالفنون: من رقصٍ وتمثيل وتصويرٍ وغيرها.. وكلها تجارةٌ لا يقدّر لها الرواجُ في شُبّاك التذاكر إلا بالأفلام الجنسية! والمسرحيات الهَزْليّة! واللوحات التي تخاطب الجنس!

وكان ما يسمى بالموضات الحديثة من ثيابٍ للصباح والمساء! وعطورٍ للرجال والنساء! ووسائلِ تجميلٍ للّيل والنهار! وألوانٍ للصيف والشتاء! وأخرى للربيع والخريف! ونصائحَ للوجه، وتسريحاتٍ للشعر! ونظامٍ للمقابَلات! ومدرِّبين للرياضة والنحافة! ونظام حِمية للأكل والشرب، واختيارٍ لملكات الجمال! بمقاييسَ محددة، ولجانٍ فنية!

وكان ما يسمى ببيوت الأزياء التي لا يُرَدُّ لها قرار، ولا يُعصى لها أمر، والتي تَعمل ليلًا ونهارًا في جميع أنحاء العالم، للبحث عن أقربِ طرق الإثارة والإغراء، وهي التي تتحكم في أذواق الناس، واختيار الثياب للنساء والرجال..

والمسلمون - بكل أسفٍ - أسبقُ الناس إلى طاعة أمرها، فهي مرة تأمر بطول الفستان، ومرة تأمر بقِصَرِه، بأن يكون فوق الركبة، وأخرى تحت الركبة! وإن سَتَرَتِ الصدر كَشَفَتِ الظهر! وإن أطالَتِ الثياب قَصّتِ الأكمام، وفَتَحَتْ فَتَحاتٍ مِن أسفَلُ أو من أعلى!

وكانت مصانعُ النسيج تعمل بكلِّ قُوَاها على اختيار الألوان الزاهية، والأنواع الشفافة.. وكان ما يُسمى بصالونات التجميل.. وكل هذا وذاك مبني على درايةٍ بأذواقِ الناس ودراسة نفوسهم..

لم كل هـذا؟!... للمراهقين والمراهقات، الذين أرادوا إصلاحَهم فأفسدوهم.. وأرادوا شفاءَهم فقتلوهم.. وأرادوا تخليصَهم من الكبت فانحرَفوا.. وأرادوا انعتاقَهم من الخجل، فسلبوهم الحياء والأدب.. وأرادوا إنقاذَهم من الحرمان، فانطلقوا انطلاق الوحش في البَرّية! نسأل الله العفو والعافية.

❊ ❊ ❊

٣١- ممارسة الرذيلة

إذا كان الأبوانِ مشغولَينِ بثَرَواتهم المادية، ويخافانِ عليها من الخسارة، فلْيَعلمَا أن الخسارة المادية تعوَّض، ولكن خسارة الأولاد لا تعوَّض، وخسارة الوطن فيهم أشد وأنكى..

وإذا كان الإسلام قد كلف الآباء أن يأمروا أولادهم بالصلاة لسبعٍ، وأن يضربوهم عليها لعشر، فليس معنى ذلك أن يتركوهم للشياطين، يقودونهم إلى الهلاك والعياذ بالله! وإنما الغرض أن يتعهدوا البناء من أساسه إلى أن يَتِمّ.. وليس أضرَّ على الأولاد من غفلة الآباء والأمهات عنهم، فيسمحون لهم بالسهر الطويل بلا غرض، والسفرِ البعيد في غير طاعة، والصحبةِ المشبوهة التي تَنخَر في مستقبلهم كما ينخر السوس في العظام.. وهذه الأمور أخطر بؤر الفساد التي تعترض طريق الشباب، وأكبر الفِخاخ التي نُصبت لهم، حتى إذا وقعوا فيها - لا قدّر الله - جلَّ الخطب، واستشرى الداء، وعز الدواء.

إن شبابنا مستهدَف من جميع أعدائنا، يتربصون بهم الدوائر، لينتزعوهم من أيدينا، ويُبعدوهم عنا، ويُقْصُوهم عن منابع الخير والبر.. و«**إنما يأكل الذئب من الغنم القاصيةَ**»،[1] حتى إذا نالوا من الشباب مَنالًا، نظرنا فإذا بعضهم في السجون، وبعضهم في المستشفيات، والباقون يعتصرون من الإدمان.. فيبقى الوطن بلا رجال، والجيش بلا جنود، ويظل المسلمون

(١) رواه أبو داود (٥٤٧)، والنسائي (٨٤٧)، وأحمد (٢١٧١٠)، وابن خزيمة (١٤٨٦)، وابن حبان (٢١٠١)، والحاكم واللفظ له (٧٦٥) عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

بلا إسلام.. ألا وإن الأخلاق السيئة تُعدي كما يُعدي المريضُ السليمَ، ويَسري شرُّها كما تَسري النارُ في الهشيم.

وقد يُحسن الإنسانُ الظنَّ بأولاده ولا يَتتبَّعُهم، فتكون النتيجة الشنيعةُ التي يَندَى لها الجبين، متمثلة في الانحراف بجميع أشكاله! فهل يتحمل الأولاد وحدَهم وزرَ هذه المصائب، أم أن لهم شركاءَ من الآباء المقصِّرين، الذين حُمِّلوا الرعايةَ فلم يَحمِلوها، وحُمّلوا الأمانةَ فخانوها، وتركوا أولادهم للذئاب البشرية.

إن ظاهرةً غريبةً بدأت تظهر في مجتمعنا الهادئ الوديع.. ذلك أن بعض الشباب بدلًا من أن يَنكبُّوا على دروسهم يراجعونها، ويَعْلموا أن هذا يجب أن يكون هَمَّهم.. بدلًا من ذلك أخذوا يتسكعون في الشوارع، دونما غرضٍ شريف، سوى مضايقة الناس.. وهذا العمل له خطورته، فهو فضلًا عن أن يكون سببًا في إخفاقهم في مدارسهم، وفشلهم في الحياة، فهو مَدعاةٌ إلى الفساد والفتنة، وعبثٌ بالأخلاق والتقاليد.. وما كان هذا لِيَحدُثَ لو أن الآباء فتحوا عيونَهم جيدًا على أبنائهم، وعرفوا خط سيرهم، وأوقاتَ فراغهم..

بل الأخطر من ذلك أن كثيرًا من الشباب باتوا يسهرون خارجَ بيوتهم إلى ساعةٍ متأخرةٍ من الليل على أفـواهِ الطرق، وفي الحدائق العامة، وحول المجمَّعات، وفي بيوت الزملاء! وهذا أمرٌ ليس لنا فيه سابقُ عهد، والرسول ﷺ يقول: «**إياكم والجلوسَ في الطرقات**»![1]

(١) رواه البخاري (٢٤٦٥) (٦٢٢٩)، ومسلم (٢١٢١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

كان الآباء يَرجعون إلى بيوتهم عقبَ صلاة العشاء، ويسألون عن أولادهـم، ويعرفون مريضَهم من سليمهم، وحاضرَهم من غائبهم، ويُغلقون الأبواب عليهم.. أما الآن فإن بعض الآباء يُعطون أولادَهم مفاتيحَ البيت، فيَخرجون متى يشاؤون، ويعودون متى يشاؤون، دونَ أيةِ رَقابةٍ من الآباء والأمهات!

وأمامَ الخَوَاءِ الروحي، والفراغ الديني.. أمامَ ضغط الغريزة، وضعف المراقبة.. أمامَ وفرة المال وفتنة النساء.. يَهوي الشباب إلى الحضيض إلى أبعد مدى! ويغرق في الرذيلة إلى حدٍّ لا يمكن إنقاذُه، حتى يصير حُطامًا، أو يصير عِظامًا، أو يصير شبحًا، أو يموت!

وإن من أكبر الجرائم، وأشدِّها فتكًا بالفرد والمجتمع، هو ممارسة الرذيلة بجميع أنواعها، لأنها تُلوّث الفراش، وتَخلِط الأنساب، وتُلحق العارَ بكل أفراد الأسرة، وتدفع إلى الدنيا بأبناءٍ لا يُعرف لهم نسب، يَظَلُّون طولَ حياتهم في تعاسةٍ لا ذنب لهم فيها، وفي مشكلةٍ ليس لها حلّ، ولا يمكن لأحدٍ أن يجد لها عذرًا، أو يلتمس لها مبررًا، إلا دناءةَ النفس، والإمعانَ في السقوط، والتدنّيَ إلى أسفلِ الدركات، والتخلّيَ عن الإنسانية التي كرم الله بها الإنسان.

ولقد حذرنا الإسلام من الاقتراب من الزنى، ومن مخالطة أسبابه ودواعِيه، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام ١٥١]، فالإسلام حرم علينا مجرد الاقتراب من الفواحش، لأنها تؤدي إليه، وتُوقع الشباب في حبائلها، فكيف بالجريمة البشعة التي لا يرضاها المسلم لأمه ولا لأخته؟! ووضع لها حدَّ الرجم بالحجارة حتى

يموت مرتكبوها،[١] كما فعل الرسول ﷺ مع ماعزٍ والغامدية.[٢]

كيف بالفضيحة التي لا تموت بمرور الزمن، والتي تظل صورتها عالقةً بالأذهان، والتي يظل فيها البيتُ كلُّه منكَّسَ الرأس، ذليلَ النفس، ساقطَ المروءة!

روى الإمام أحمد ٥/ ٢٥٧ عن أبي أُمامةَ الباهليّ رضي الله عنه أن فتًى شابًّا أتى النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذَنْ لي بالزنى. فأقبَلَ القومُ عليه فزجروه، وقالوا: مَهْ مَهْ! فقال ﷺ: «**ادْنُهْ**»، فدنا منه قريبًا، فجلس، فقال: «**أتُحِبُّه لأمِّك**»؟ قال: لا والله، جعلني الله فِداءَك! قال: «**ولا الناس يُحبُّونه لأمهاتهم**»، قال: «**أفَتُحِبُّه لابنتِك**»؟ قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فِداءَك! قال: «**ولا الناس يُحبونه لبناتهم**»، قال: «**أفَتُحِبُّه لأختِك**»؟ قال: لا والله، جعلني الله فداءك! قال: «**ولا الناس يحبونه لأَخَوَاتهم**»، قال:

---

(١) عقوبة الرجم في الشرع خاصةٌ بالزاني (أو الزانية) المُحصَن (وهو الرجل الذي سَبَق أَن وَطِئَ في نكاح صحيح، أو المرأةُ التي سَبَق أَن وُطِئَتْ في نكاح صحيح)، فيُقيم القاضي حدَّ الرجم بعد ثبوت الزنى لديه: إما بالبيّنة الكاملة الصحيحة، وهي شهادة أربعة رجال عُدول، يشهدون أنهم رأوا الفاحشة بأعينهم، وإما باعتراف الزاني وإقراره.

أما إذا كان الزاني (أو الزانية) غيرَ محصن، فعقوبته مئةُ جَلدة. وتفصيل شروط إقامة حدّ الرجم في الموسوعة الفقهية الكويتية، مادة (رجم) ومادة (شهادة).

(٢) قصة رجم ماعز الأسلمي والغامدية رضي الله عنهما، بعد اعترافهما وإقرارهما التامّ بالفاحشة، رواها البخاري ومسلم وغيرهما عن عدد من الصحابة.

فقصة ماعز رواها البخاري (٦٨٢٤)، ومسلم (١٦٩٣) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما. ورواها مسلم (١٦٩٢) عن جابر بن سمرة رضي الله عنهما. و(١٦٩٤) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وقصة ماعز والغامدية معًا رواها مسلم (١٦٩٥) عن بُريدة بن الحُصيب رضي الله عنه.

«**أفتُحبه لعمّتِك**»؟ قال: لا والله، جعلني الله فداءك! قال: «**ولا الناس يُحبونه لعمّاتهم**»، قال: «**أفتُحبه لخالتِك**»؟ قال: لا والله، جعلني الله فداءك! قال: «**ولا الناس يُحبونه لخالاتهم**».

قال: يا رسول الله، ادعُ الله أن يطهِّرَ قلبي، قال: فوضع يده عليه، وقال: «**اللهم اغفر ذنبَه، وطهّرْ قلبَه، وحصِّنْ فرجَه**»، قال: فلم يكن بعدُ ذلك الفتى يلتفتُ إلى شيء.(١)

هذا درسٌ من دروس التربية النبوية، وضع به الرسول ﷺ الشابَّ أمام مسؤولياته، وعرّفه أنه لا ينبغي أن يرضى للناس ما لا يرضاه لنفسه.. كلُّ هذا بأسلوبٍ هادئ، وحوارٍ بنّاء، وتوعيةٍ صادقة..

إننا نَمَسُّ هذا الموضوعَ بحذرٍ وهو أشدُّ من أن يُمَسَّ، لما فيه من حَرَج، ولكننا نندفع إلى الكلام فيه اندفاعًا لِما له من آثارٍ خطيرة، تهدّد المجتمع البشريَّ بالهلاك والإبادة، نتيجةً للممارسات غيرِ الأخلاقية، والعلاقات غير الشرعية التي شاعت في بلاد الغرب، والتي تثير التقزز والاستنكار..

لقد بدأ الغرب يحصد ما زرع، من كوارثَ وأوبئة، آخِرُها مرض الإيدز، الذي لُقب بمرض الرعب، لأنه خَلَقَ موجةً من الفزع والهلع لم تشهد مثلَها المجتمعاتُ الغربية..

ولقد قرأتُ مقالًا في إحدى المَجلّات الدينية لكاتبٍ كريم يُلقي الضوء

---

(١) مسند أحمد (٢٢٢١١)، المعجم الكبير للطبراني (٧٦٧٩) (٧٧٥٩)، مسند الشاميين للطبراني (١٠٦٦). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٢٩: (ورجاله رجال الصحيح). اهـ.

على هذه المأساة، آخُذُ منه هذه الفقرات، يقول - وجزاه الله خيرًا على ما قال-: (لا غرابة أن يزداد الجنس والشذوذ الجنسي في المجتمعات الغربية، فقد وجدَتْ هذه المجتمعاتُ في مجال الممارسات الإباحية بابًا من أوسع أبواب التجارة المدرّة للأموال..

ثم قال: وفي هذا الإطار نفهم كيف راج أدبُ الفُحْش والجنس بالألبومات وصورِه الخليعة! وشرائطه المتهتكة! ومَعارِضِه التي نزلت إلى أدنى درجات الانحطاط! بعرضها البغايا العاريات في أوضاعٍ منكرة! في فترينات البلور،[1] وكأنها دُمًى للبيع..

ثم يقول: وتصاعد الأمر تصاعدًا خطيرًا، فاتسعتْ دائرة تجارة الرقيق الأبيض، والأطفال الصغار، الذين صاروا موضوعَ صفقاتٍ كبيرةٍ بين كبار تجار الرذيلة، الذين ينقلونهم من بلدٍ إلى بلد آخر..

ثم يقول: ولكنَّ المتخصصين في عواصم الطب الكبيرة أقرُّوا واعترفوا بعد إجراء المزيد من الأبحاث والإحصاءات أن هذا الوباء الجديد - الإيدز - يعود إلى سببٍ رئيسيّ، هو الشذوذ الجنسي بشتى صوره وأشكاله). انتهى من مجلة المجتمع؛ العدد (٨٤٦) بتاريخ ٨/ ١٢/ ١٩٨٧م.[2]

إننا حين ندق أجراس الخطر خوفًا على الثروة البشرية من أبنائنا وبناتنا.. وحين نُذكّر بقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء]..

---

(١) **الفترينة**: أصلها فرنسي، ومعناها واجهةُ عرض، أو خزانة عرض.

(٢) مجلة المجتمع العدد (٨٤٦) مقال بعنوان: الانتحار الوجه الآخر للحضارة الغربية، سقوط في مهاوي الرذيلة وجمعيات للانتحار ص ٣٠، ولم يذكر اسم الكاتب.

وحين نذكّر بقول الرسول ﷺ: «**لا يَحِلُّ دمُ امرِئٍ مسلمٍ يشهدُ أنْ لا إله إلا الله، وأنّي رسولُ الله، إلا بإحدى ثلاث: النفسُ بالنفس، والثيِّبُ الزاني، والتاركُ لِدِينِه المُفارِقُ للجماعة**» رواه البخاري..[1]

وحين نذكّر بقُرى قوم لوطٍ عليه السلام، التي قال الله عنها: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود]..

وحين نذكّر بما توقّعه الرسول ﷺ قبل أربعةَ عشَرَ قرنًا، فقال: «**لم تَظْهَرِ الفاحشةُ في قوم قط حتى يُعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعونُ والأوجاع التي لم تكن مضَتْ في أسلافهم الذين مَضَوا**» رواه ابن ماجه والبيهقي[2].. وحين نذكّر بأن العلاج الوحيد لهذا الوباء هو إقامة الحدّ..

حين نقول ذلك لا نكون مُغالِين، وإنما ليَعرف الجميع أن الإسلام هو دين الحق، دين العفاف والقيم، دين السلامة والعافية، دين المروءة والعفة، ولنفتح عيونَنا على كل قادمٍ من الشرق أو الغرب، الذين يخلّفون وراءهم قنابلَ موقوتةً أشدَّ خطرًا من القنابل الذرية، تنفجر بعد عودتهم بأيام، وبعد أن يتركوا لضحاياهم بطاقاتِ دعوة تقول: أهلًا بكم في نادي الإيدز!

* * *

(١) صحيح البخاري (٦٨٧٨)، صحيح مسلم (١٦٧٦) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) سنن ابن ماجه (٤٠١٩)، مستدرك الحاكم وصححه (٨٦٢٣)، شعب الإيمان للبيهقي ٥/ ٢٢ (٣٠٤٢)، و١٣/ ١٣١ (١٠٠٦٦)، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

٣٢- مشكلة الإدمان

وتَشغَلُ مشكلةُ الإدمان مِساحاتٍ واسعةً من هموم العالم وكوارثِه، حتى أصبح الخطر الذي يهدد مستقبلَه، ويحطّم شبابَه.. والشباب يقف في خط الدفاع الأول من هذه الحرب الضَّرُوس، فإن المؤامراتِ الاستعماريةَ والحروبَ الصليبيةَ والصهيونيةَ لا تريد أن تضع أوزارَها، ولا تريد أن تعطيَنا فرصةً لالتقاط الأنفاس، أو فرصةً لجريان الدم في العروق، وإنما تريد أن يكون شبابُنا أعوادًا جافّة، تسقطُ وحدَها وتَذْرُوها الرياح..

الشباب في الأمة حملةُ لوائها، وبناةُ دولتها، ورعاةُ نهضتها، والمحافظون عليها.. وهم رجال الغد، وأمل المستقبل، وثروة الأمة.. وهم عُدّتُها وعَتادُها، وجنودها ورجالها.. وهم بسمة الحياة فيها، ومَسحةُ الجمال في وجهها..

فالضربة الموجهة إليهم ضربةٌ قاصمة، والسهام المسدّدةُ إلى صدورهم سهامٌ مسمومة، وهذا هو السبب في أن أغلبَ زراعة المخدِّرات في العالم تُصدَّر إلى بلادنا، لاستنزاف أموالنا من ناحية، وتحطيمًا لشبابنا من ناحيةٍ أخرى، فيكون أعداؤنا قد كَسَبُوا مرتين، نزحوا أموالَنا حتى التصقت أيدينا بالتراب، واغتالوا أبناءنا لتنخلع قلوبنا من الخوف.. وإذا سقطت خطوط الدفاع سقطت معها صروح الحق والعدل، لأننا نعيش في عصرٍ لا مكان فيه للضعفاء.

منطق القوة هو الذي يحكم العالم، لا منطق الحق، في عصرٍ لم يَعُدِ البقاء فيه للأصلح، وإنما البقاء للأقوى.. لم يَعُدِ العِلمُ في خدمة السِّلْم، بقدر ما هو وسيلةٌ لخدمة الحرب.. لم يعد العِلمُ يحكُمه عقلٌ أو تقوَى أو حياء، وإنما تحكمه الأنانيّة والأطماع والجنون.. عصرٌ تتصارع فيه الدول كما تتصارع الوحوش في الغابات.. هذا عصرنا، وهذا قَدَرُنا.

وأَعجَبُ كيف تدخُل المخدِّرات إلى بلادنا، وبَرُّنا وبحرُنا وسماؤنا كلها عليها حراسةٌ مشدَّدة، وعيونٌ مفتوحة، وعقولٌ واعية، ومع ذلك نسمع كلَّ يوم عن ضبط كميات كبيرة من المخدرات! وآلافٍ من زجاجات الخمر! ومِن ثَمّ نسمع عن ضحايا هذا الخطر الفادح، الذين يعالَجون في المستشفيات، أو يختبئون في البيوت يَعَضُّون الأرض من الألم، ويُحطّمون كلَّ ما حولهم بجنون، ألم نسمعْ ونقرأْ عن الذين يقتلون آباءهم وأمهاتِهم من أجل مبلغٍ من المال يشترون به السَّمَّ القاتل؟!

يبدأ الشابّ رحلةَ العذاب بمصاحبة قُرَناءِ السوء، والانـزواءِ معهم في الظلام، وتقليدِهم فيما يفعلون، وفي مدرسة الشيطان الذي قال الله عنه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر ٦]، والذي حذرنا الله منه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [النور ٢١].

في هذه المدرسة يبدأ الشابّ رحلتَه بالتدخين على أنه مَظهر من مظاهر الرجولة المبكّرة، وسِمة من سمات الرُّقِيّ والحضارة، وعلى أنه يتخلص

به من همومه، ويسبَح في عالم الخيال، ثم يتدرج المسكين في طريق الانحراف شيئًا فشيئًا، من نوعٍ إلى نوع، حتى يقع في شِباك الهيروين، وهنا يدفع كل ما يملك! ثم يَسرِق من البيت! ثم يَسرق من المجتمع! ثم يقتُل! ويَفقِدُ الغَيرة والنخوة والأدب! حتى يبيع نفسَه! ويبيع أقربَ الناس إليه!

وكم سمعنا بأناسٍ كانت أرصدتهم في البنوك تفوق الخيال، وعماراتُهم الشاهقة تتسع لمدينة بأسرها، وحدائقُهم الغَنّاءُ تُعطّر الجوَّ كلَّه، ونِعَمُ الله فيهم لا تُحصى ولا تُعَدّ، ولديهم عقولٌ وخِبرةٌ وذكاء، وفِطنةٌ وعِلم، تجعلهم في مصافِّ العظماء.. ثم ماذا؟!

﴿صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ﴾ [سبأ ٢٠]، فإذا بالأرصدة تفنَى! والعماراتِ تُباع في المزاد! والحدائقِ تتحول إلى خرائبَ! ونِعَمِ الله تتحول إلى نِقَم! والعقولِ والعلومِ تنتهي إلى هلوسةٍ وغَيبةٍ عن الوجود! ولو ماتوا لأراحوا واستراحوا، ولكنْ يأبى الله إلا أن يجعل منهم عِبرةً وذِكرَى لأولي الألباب.

ألا ما أعظمَ نعمةَ العقل التي كرم الله بها الإنسان، وأسجد له ملائكته، وجعله خليفةً في الأرض: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ [الإسراء]..

بالعقل عرَف الإنسانُ ربَّه فعبَدَه، واستدلّ على وجوده بخَلْقِه.. وعلى

العقل تتوقف التكاليفُ الشرعية من صلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ وحج وجميع الأحكام، وإن الله إذا سَلَبَ ما وَهَب، أسقَطَ ما وَجَب..

وبالعقل وصل الإنسان إلى أسرارٍ في الكون ما كان يمكنه الوصول إليها إلا به.. وبالعلم - وأساسه العقل - استطاع الإنسان أن ينتقل من عصر الناقة إلى عصر البُخار، إلى عصر الكَهْرَباء، إلى عصر الفضاء، إلى عصر الذرة، إلى عصر الاتصالات، إلى هذه الاكتشافات المتلاحقة التي يَسعَد بها السعداء، ويَشقَى بها الأشقياء.

فكيف يرضى الإنسان لنفسه أن يبيع هذه الجوهرة الثمينة، لا بأرخصِ الأسعار، وإنما بالحطة والسفاهة والجنون! كيف يرضى لنفسه أن ينزل من وقاره إلى أحط أنواع الحيوانات! فيرقص كالقرد! وينبح كالكلب! ويزحف من الهزال! كيف يرضى لنفسه أن يتحول من رجلٍ شريفٍ إلى لِصّ، ومن رجلٍ غَيورٍ على الأعراض، إلى خسيس يُفرّط في عِرضِه من أجل شَمّة هيروين! وكم تكلّفه هذه الشمة لِيَهذِيَ، ويَفقِدَ توازُنَه ويَغيبَ عن الوجود؟!

إن أحدهم يعترف بأنه يُنفق في الشهر آلافَ الدنانير.. ومن آلافه وآلاف غيره تنتقل ثروة بلاد المسلمين إلى الأعداء بالمليارات! أحلالٌ أن يجاهد التاجر ويُجالد، ويكافحَ الصانع ويذوب، ويشقَى الموظف ويئنّ، لِتُهرَّبَ أموالُهم وقَطَراتُ عَرَقِهم إلى الأعداء! ليَبْنُوا بها مصانعَ الذرة، وأقمارَ التجسس، ووسائلَ التدمير؟!

ليس هناك شيء بعينه اسمه الخمر، وهذا إعجاز القرآن، وإنما الخمر كل ما خامَرَ العقلَ وحَجَبَه عن الوجود، سواء أكان شرابًا، أم دُخانًا، أم رائحةً، أم حبوبًا، وقد حرم الله كل أولئك بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١﴾ [المائدة].

وقال رسول الله ﷺ: «**كلُّ مُسكِرٍ خمرٌ، وكلُّ مسكرٍ حرام، ومَن شرب الخمرَ في الدنيا، فمات وهو يُدمنُها لم يَتُبْ، لم يَشربْها في الآخرة**» متفق عليه.(١)

وأعلنها عمر بن الخطاب رضي الله عنه من فوق منبر رسول الله ﷺ، فقال: (الخمر ما خامر العقل).(٢)

وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله يؤدّب من شهد مجلس الخمر وإن لم يشرب، فقد أخذ عمر بن عبد العزيز قومًا على شرابٍ، فضربهم، وفيهم صائم، فقالوا: إنّ هذا صائم! فتلا: ﴿فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡ﴾ [النساء ١٤٠].(٣)

---

(١) صحيح البخاري (٥٥٧٥) مختصرًا، صحيح مسلم (٢٠٠٣) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) صحيح البخاري (٤٦١٩)، صحيح مسلم (٣٠٣٢) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٢٤٢٣٧)، وابن جرير الطبري في تفسيره ٧/ ٦٠٣، وابن أبي حاتم في تفسيره (٦١٢٧)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (٥١٥).

وعلى فرض أن الخمر تطلق على الشراب المسكر، فإن المخدِّرات أشدُّ خطرًا وسوءًا من الخمر.. لها ضحايا كثيرون، انحرف بهم الطريق، وظنُّوها تبعث في النفس الطربَ والسرور، فإذا بها تنتهي بهم إلى المصير المظلم..

ولقد أجمع العلماء على حرمتها، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة]، وقال رسول الله ﷺ: «**لا ضرر ولا ضرار**».(١) وأصل تحريمها ما رواه أحمد في مسنده وأبو داود في سننه عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: (نهى رسول الله ﷺ عن كلِّ مُسكِرٍ ومُفَتِّرٍ).(٢)

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يعدّ الحشيشة أخبثَ من الخمر، لأنها تفسد العقل والمزاج، حتى يصير في الرجل تخنّثٌ ودِياثة، أي تُفقده الغَيرة.(٣)

ومهما اخترع الناس من أنواع، وأطلقوا عليها من أسماءٍ، فالحرام حرام،

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٣٤٠)، وأحمد (٢٢٧٧٨) عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه.
ورواه ابن ماجه (٢٣٤١)، وأحمد (٢٨٦٥) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.
ورواه الإمام مالك (٢١٧١) عن يحيى بن عمارة الأنصاري المازني مرسلًا، والحاكم وصححه (٢٣٤٥) موصولًا عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) سنن أبي داود (٣٦٨٦)، مسند أحمد (٢٦٦٣٤)، وحسّن إسنادَه الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٥٥٨٥).

(٣) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ٣٤/ ٢٠٥، ٢١٢، ٢٢٤.

روى ابن ماجه وابن حبان في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «**لَيَشربَنّ ناس من أمتي الخمر، يُسمُّونها بغير اسمها، يُعزَفُ على رؤوسهم بالمعازف والمغنّيات، يَخسِف الله بهم الأرض، ويجعل منهم القِردةَ والخنازير**».(١)

وقال ﷺ: «**لعن الله الخمرَ، وشاربَها وساقيَها، وبائعَها ومبتاعَها، وعاصرَها ومعتصِرَها، وحاملَها والمحمولةَ إليه، وآكِلَ ثمنِها**» رواه أبو داود وابن ماجه.(٢)

❊ ❊ ❊

(١) مسند أحمد مختصرًا إلى قوله: «**بغير اسمها**» (٢٢٩٠٠)، سنن أبي داود مختصرًا (٣٦٨٨)، سنن ابن ماجه (٤٠٢٠)، صحيح ابن حبان (٦٧٥٨) عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.
ورواه مختصرًا: أحمد (١٨٠٧٣) والنسائي (٥٦٥٨) عن عبد الله بن مُحَيريزٍ، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ.

(٢) سنن أبي داود (٣٦٧٤)، سنن ابن ماجه (٣٣٨٠)، مسند أحمد (٤٧٨٧) (٥٣٩٠) (٥٧١٦) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

مراجع المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ

١- القرآن الكريم.

٢- موطأ الإمام مالك.

٣- صحيح البخاري.

٤- صحيح مسلم.

٥- سنن أبي داود.

٦- سنن الترمذي.

٧- سنن النسائي.

٨- سنن ابن ماجه.

٩- مسند أحمد.

١٠- الأدب المفرد للبخاري.

١١- المستخرج على صحيح مسلم، لأبي عَوانة الإسفراييني.

١٢- صحيح ابن حبان.

١٣- المستدرك على الصحيحين للحاكم.

١٤- الطبقات الكبرى لابن سعد.

١٥- سنن سعيد بن منصور.

١٦- سنن الدارقطني.

١٧- مسند البزار.

١٨- المعجم الكبير للطبراني.

١٩- السنن الكبرى للبيهقي.

٢٠- شعب الإيمان للبيهقي.

٢١- الكامل في الضعفاء لابن عدي.
٢٢- جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر.
٢٣- شرح صحيح مسلم، للنووي.
٢٤- فيض القدير بشرح الجامع الصغير، للمُناوي.
٢٥- نيل الأوطار بشرح منتقى الأخبار، للشوكاني.
٢٦- السلسلة الصحيحة، للألباني.
٢٧- تفسير ابن أبي حاتم.
٢٨- تفسير مفاتح الغيب، لفخر الدين الرازي.
٢٩- تفسير ابن كثير.
٣٠- تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا.
٣١- تفسير ظلال القرآن، لسيد قطب.
٣٢- زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية.
٣٣- إحياء علوم الدين، للغزّالي.
٣٤- المغني، لابن قدامة.
٣٥- مجموع الفتاوى، لابن تيمية.
٣٦- وَفَيَات الأعيان، لابن خَلِّكان.
٣٧- إسلامنا، لسيد قطب.
٣٨- هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة، لعلي خفيف.
٣٩- المستطرف في كل فن مستظرف، للأبشيهي.
٤٠- مجلة المجتمع؛ العدد رقم ٨٤٦ بتاريخ ٨/ ١٢/ ١٩٨٧م.

❊ ❊ ❊

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تصدير إدارة الشؤون الفنية	٥
مقدمة التحقيق	٧
ترجمة المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ	١١
مقدمة المؤلف	١٧
١- الزواج سنة الله في خلقه	٢٣
٢- رغبات وتطلعات	٣٣
٣- «تنكح المرأة لأربع»	٤٢
٤- الكفاءة بين الزوجين	٤٩
٥- أسباب أزمة الزواج	٥٧
٦- الخِطبة	٦٤
٧- الزواج الشرعي	٧٢
٨- حقوق الزوجة	٨١
٩- حقوق الزوج	٨٨
١٠- قانون الوراثة	٩٦
١١- سنن الإسلام للمولود	١٠٢
١٢- تأثير الأسماء على المسمَّيات	١٠٩
١٣- ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾	١١٥
١٤- الرَّضاعة الطبيعية	١٢٠
١٥- الصفحة البيضاء	١٢٥

الموضوع	الصفحة
١٦- ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾	١٣١
١٧- الأم البديلة	١٣٧
١٨- سوء العشرة	١٤٤
١٩- الخلاف بين الزوجين	١٥٢
٢٠- الْزَموا أولادكم	١٦٠
٢١- القدوة الحسنة	١٦٦
٢٢- دور البيت والمدرسة	١٧٣
٢٣- المساواة بين الأولاد	١٨١
٢٤- قُرَناء السوء	١٨٨
٢٥- «وشابٌّ نشأ في عبادة ربه»	١٩٥
٢٦- أَمارات الشباب	٢٠١
٢٧- فائدة الغرائز	٢٠٨
٢٨- موقف الإسلام من عوامل الإثارة	٢١٤
٢٩- أجهزة الجسم	٢٢١
٣٠- قضية المراهقة	٢٢٨
٣١- ممارسة الرذيلة	٢٣٦
٣٢- مشكلة الإدمان	٢٤٣
مراجع المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ	٢٥٠
الفهرس	٢٥٢

إصدارات إدارة الشؤون الفنية

مرتبة حسب تاريخ سنة إصدارها

أولًا: كتب التحقيق:

١- رسالة في أصول الفقه، العُكْبَري (ت٤٢٨هـ)، تحقيق مكتب الشؤون الفنية، ط١/ ٢٠٠٦م. ط٢/ ٢٠١٠م.

٢- تعظيم الفتيا، ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ)، تحقيق فيصل العلي، ٢٠٠٦م.

٣- كشف اللثام في شرح عمدة الأحكام (٧مجلدات)، السّفّاريني (ت١١٨٨هـ)، تحقيق نور الدين طالب، ٢٠٠٧م.

٤- شرح كتاب الشهاب للقضاعي، ابن بدران (ت١٣٤٦هـ)، تحقيق نور الدين طالب، ط١/ ٢٠٠٧م. ط٢/ ٢٠١٠م.

٥- عادات الإمام البخاري في صحيحه، عبد الحق الهاشمي (ت١٣٩٢هـ)، تحقيق محمد ناصر العجْمي، ٢٠٠٧م.

٦- غاية المنتهى في جمع الإقناع والمنتهى (مجلدان)، مرعي الكرمي (ت١٠٣٣هـ)، تحقيق ياسر إبراهيم المزروعي، ورائد يوسف الرومي، ٢٠٠٧م.

٧- الروض الندي شرح كافي المبتدي (مجلدان)، البعلي (ت١١٨٩هـ)، تحقيق نور الدين طالب، ط١/ ٢٠٠٧م. ط٢/ ٢٠١٠م.

٨- الأسئلة الكويتية روضة الأرواح، ابن بدران (ت١٣٤٦هـ)، تحقيق محمد ناصر العجْمي، ٢٠٠٧م.

٩- درة الغواص في حكم الذكاة بالرصاص، ابن بدران (ت١٣٤٦هـ)، تحقيق محمد ناصر العجْمي، ٢٠٠٧م.

١٠- شرح منظومة الآداب الشرعية، الحجّاوي (ت٩٦٨هـ)، تحقيق نور الدين طالب، ط١/ ٢٠٠٧م. ط٢/ ٢٠١٠م.

١١- الخُطَب السَّنِيّة، مصطفى البولاقي (ت١٢٦٣هـ)، تحقيق وليد العلي، ٢٠٠٧م.

١٢- المنبر (مجموعة خُطَب جُمعيّة)، عبد الله النوري (ت١٤٠١هـ)، ٢٠٠٧م.

١٣- الخطب الجمعية في المواعظ الأسبوعية، محمد أحمد الفارسي (ت١٤٠٢هـ)، ٢٠٠٧م.
١٤- الأحكام المفيدة في الأقوال السديدة، عبد الله بن عبد الرحمن السند (ت١٣٩٧هـ)، اعتنى به نور الدين مسعي، ط١/ ٢٠٠٧م. ط٢/ ٢٠١٠م.
١٥- رسالة أبي داود لأهل مكة في وصف سننه، (مع المدخل إلى سنن أبي داود)، تحقيق محمد النورستاني، ط١/ ٢٠٠٨م. ط٢/ ٢٠١٠م. ط٣/ ٢٠٢٣م.
١٦- المصعد الأحمد في ختم مسند الإمام أحمد، ابن الجَزَري (ت٨٣٣هـ)، تحقيق محمد ناصر العجْمي، ٢٠٠٨م.
١٧- القول العلي لشرح أثر الإمام علي، السّفّاريني (ت١١٨٨هـ)، تحقيق محمد النورستاني، ط١/ ٢٠٠٨م. ط٢/ ٢٠١٠م.
١٨- تحفة الخُلّان في أحكام الأذان، الدمرداشي (ت١١٤٩هـ)، تحقيق محمود الكبش، ٢٠٠٨م.
١٩- فرائد الفوائد في أحكام المساجد، ابن طولون (ت٩٥٣هـ)، تحقيق مكتب الشؤون الفنية، ط١/ ٢٠٠٨م. ط٢/ ٢٠١١م.
٢٠- سؤالات علامة الكويت عبد الله خلف الدحَيّان (العقود الياقوتية في جِيد الأسئلة الكويتية)، ابن بدران (ت١٣٤٦هـ)، تحقيق الطاهر خذيري، ط١/ ٢٠٠٨م. ط٢/ ٢٠١٠م.
٢١- نصيحة الإنسان عن استعمال الدخان، عبد الله بن عبد الرحمن السند (ت١٣٩٧هـ)، ٢٠٠٨م.
٢٢- الرشد، عبد الله النوري (ت١٤٠١هـ)، اعتنى به نور الدين مسعي، ٢٠٠٨م.
٢٣- فتح الرحمن فيما يجب معرفته على كل إنسان، الوضاحي (ت١١٣٥هـ)، تحقيق محمود الكبش، ٢٠١١م.
٢٤- التيسير نظم التحرير، العمريطي (ت٩٨٩هـ)، تحقيق ياسر المقداد، ٢٠١١م.
٢٥- إعلام الأنام بفضائل الصيام، البكري الشافعي (ت٩٥٢هـ)، تحقيق سامي صبح، ٢٠١٤م.
٢٦- نظم رسالة ابن أبي زيد القيرواني، الغلاوي الشنقيطي (ت١٢٠٩هـ)، تحقيق محمد أحمد جدو، ٢٠١٤م.

٢٧- الأسباب المعينة على الصبر على أذى الخلق، ابن تيمية (ت٧٢٨هـ)، تحقيق عبد الرزاق البدر، ٢٠١٥م.

٢٨- ست رسائل في أحكام المساجد، تحقيق سامي صبح، ٢٠١٥م، وهي:

- تحفة الراكع والساجد في جواز الاعتكاف في فناء المساجد، عبد الغني النابلسي (ت١١٤٣هـ).
- سعادة الماجد بعمارة المساجد ورغبة طالب العلوم إذا غاب عن درسه، الشُّرُنْبُلالي (ت١٠٦٩هـ).
- البشرى بعظيم المنة في حديث «من بنى لله مسجدًا بنى له بيتًا في الجنة»، الطحلاوي.
- فضل عمارة المساجد، عليّ الأجهوري (ت١٠٦٦هـ).
- فضل بناء المسجد، الطوخي (ت بعد ١٣٠٣هـ).
- فضل بناء المساجد وعمارتها وعمّاره، محمد عبد الفتاح الشافعي.

٢٩- الأصول من علم الأصول، ابن عثيمين (ت١٤٢١هـ = ٢٠٠١م)، ٢٠١٦م.

٣٠- ملحة الإعراب، الحريري (ت٥١٦هـ)، ٢٠١٦م

٣١- قاعدة مختصرة في وجوب طاعة الله ورسوله وولاة الأمور، ابن تيمية (ت٧٢٨هـ)، تحقيق عبد الرزاق البدر، ٢٠١٨م.

٣٢- ذخيرة الإخوان في اختصار الاستغناء بالقرآن لابن رجب، اختصار محمد بن عبد الله الحضرمي الملقب بـ (بحرق)، ٢٠١٨م.

٣٣- البيت المسلم، أحمد أحمد جلباية (ت ١٤٣٣هـ = ٢٠١٢م)، اعتنى به ياسر إبراهيم نجار، ٢٠٢٥م.

ثانيًا: كتب التأليف:

١- ضوابط الفتوى، ٢٠٠٥م.

٢- التأصيل الشرعي لما ينبغي أن يتجنبه الإمام والخطيب، الطاهر خذيري، ط١/ ٢٠٠٥م. ط٢/ ٢٠١٠م.

٣- رسائل التواصل مع الأئمة والخطباء (١ و٢)، ٢٠٠٥م.

٤- رسائل التواصل مع الأئمة والخطباء (٣ و٤)، ٢٠٠٥م.

٥- المختصرات النافعة (١)، ٢٠٠٥م.

٦- المختصرات النافعة (٢)، ٢٠٠٥م.

٧- المختصرات النافعة (٣)، ٢٠٠٦م.

٨- محمد ﷺ من الميلاد الأسنى إلى الرفيق الأعلى، كمال محمد درويش، ٢٠٠٦م.

٩- سعة الخلاف ورحمة الاتفاق والاختلاف، الطاهر خذيري، ط١/ ٢٠٠٦م. ط٢/ ٢٠١٠م.

١٠- كيف نعيد للمسجد مكانته، محمد أحمد لوح، ط١/ ٢٠٠٦م. ط٢/ ٢٠١٠م.

١١- الخطب المنبرية لعام (٢٠٠٥م)، ط١/ ٢٠٠٦م. ط٢/ ٢٠١١م.

١٢- بريق الجمان في شرح أركان الإيمان، محمد النورستاني، ط١/ ٢٠٠٧م. ط٢/ ٢٠١١م.

١٣- المدخل إلى صحيح مسلم، محمد النورستاني، ط١/ ٢٠٠٧م. ط٢/ ٢٠١٠م. ط٣/ ٢٠١٤م. ط٤/ ٢٠٢٣م.

١٤- المدخل إلى جامع الترمذي، الطاهر خذيري، ط١/ ٢٠٠٧م. ط٢/ ٢٠١٠م. ط٣/ ٢٠٢٣م.

١٥- الأسماء والمصاهرات بين أهل البيت والأصحاب، السيد بن إبراهيم، ٢٠٠٧م.

١٦- مجالس مع فضيلة الشيخ محمد الأمين الجَكَني الشنقيطي، كتبها تلميذه: أحمد بن محمد الأمين بن أحمد الجَكَني الشنقيطي، ط١/ ٢٠٠٧م. ط٢/ ٢٠١٠م.

١٧- كيف يؤدي الموظف الأمانة، عبد المحسن العباد البدر، ط١/ ٢٠٠٧م. ط٢/ ٢٠١٠م.

١٨- المنهل العذب النمير في سيرة السراج المنير (خطب)، وليد العلي، ٢٠٠٧م.

١٩- أنيس الخطباء، الطاهر خذيري، ط١/ ٢٠٠٧م. ط٢/ ٢٠١١م.

٢٠- الخطب المنبرية لعام (٢٠٠٦م)، ط١/ ٢٠٠٧م. ط٢/ ٢٠١١م.

٢١- المدخل إلى سنن أبي داود، محمد النورستاني، ومعه رسالة أبي داود لأهل مكة في وصف سننه، ط١/ ٢٠٠٨م. ط٢/ ٢٠١٠. ط٣/ ٢٠٢٣م.

٢٢- المدخل إلى سنن النسائي، محمد النورستاني، ط١/ ٢٠٠٨م. ط٢/ ٢٠١٠م. ط٣/ ٢٠٢٣م.

٢٣- المدخل إلى موطأ مالك بن أنس، الطاهر خذيري، ط١/ ٢٠٠٨م. ط٢/ ٢٠١٠م. ط٣/ ٢٠٢٣م.

٢٤- المدخل إلى سنن ابن ماجه، نور الدين مسعي، ط١/ ٢٠٠٨م. ط٢/ ٢٠١٠م. ط٣/ ٢٠٢٣م.

٢٥- حكم صلاة الجمعة قبل الزوال، صالح الصاهود، ٢٠٠٨م.

٢٦- الثناء المتبادل بين الآل والأصحاب، ٢٠٠٨م.

٢٧- طالب العلم بين أمانة التحمل ومسؤولية الأداء (رسائل التواصل مع الأئمة والخطباء (٥)، محمد بن خليفة التميمي، ط١/ ٢٠٠٨م. ط٢/ ٢٠١٠م.

٢٨- الكسب الطيب، أحمد جلباية، ٢٠٠٨م.

٢٩- الخطب المنبرية لعام (٢٠٠٧م)، ط١/ ٢٠٠٩م. ط٢/ ٢٠١١م.

٣٠- المدخل إلى صحيح البخاري، محمد النورستاني، ط١/ ٢٠١٠م. ط٢/ ٢٠١٤م. ط٣/ ٢٠٢٣م.

٣١- الخطب المنبرية لعام (٢٠٠٨م)، طبع ٢٠١٠م.

٣٤- المدخل إلى صحيح ابن خزيمة، محمد النورستاني، ط١/ ٢٠١١م. ط٢/ ٢٠٢٣م.

٣٥- بلوغ المرام في أحكام الفتح على الإمام، نور الدين مسعي، ٢٠١١م.

٣٦- القول التمام في استخلاف الخطيب والإمام، سيد حبيب، ٢٠١١م.

٣٧- الأعذار المبيحة للجمع بين الصلاتين، ياسر مقداد، ٢٠١١م.

٣٨- طاعة ولي الأمر، إعداد مكتب الشؤون الفنية، ٢٠١١م.

٣٩- مراتب الدلالة، محمد الحسن الددو، ٢٠١١م.

٤٠- دروس الإمام (الجزء الأول)، ط١/ ٢٠١١م. ط٢/ ٢٠١٤م. ط٣/ ٢٠١٦م.

٤١- أيها الخطيب، عبد الرحمن الصاعدي، ٢٠١١م.

٤٢- الخطب المنبرية لعام (٢٠٠٩م)، طبع ٢٠١١م.

٤٣- المدخل إلى صحيح ابن حبان، محمد النورستاني، ط١/ ٢٠١٢م. ط٢/ ٢٠٢٣م.

٤٤- فقه الصيام في الإسلام، حمادة مِسْيَر الدَّبْلاني، ٢٠١٤م.
٤٥- قواعد ومهارات في إدارة المساجد، سامي صبح، ٢٠١٤م.
٤٦- المقتطفات النافعة من ثمار المطالعة، محمد الأمين بن مزيد، ٢٠١٤م.
٤٧- دروس الإمام (الجزء الثاني)، ٢٠١٤م.
٤٨- الخطب المنبرية لعام (٢٠١٠م)، طبع ٢٠١٤م.
٤٩- الخطب المنبرية لعام (٢٠١١م)، طبع ٢٠١٤م.
٥٠- الخطب المنبرية لعام (٢٠١٢م)، طبع ٢٠١٤م.
٥١- أصول في المعاملات المالية المعاصرة، خالد المصلح، ٢٠١٥م.
٥٢- حرمة الدماء، خالد الكندري، ٢٠١٥م.
٥٣- الخطب المنبرية لعام (٢٠١٣م)، طبع ٢٠١٥م.
٥٤- اللطائف القرآنية، ابن القيم (ت٧٥١هـ)، جمع متعب المطيري، ٢٠١٦م.
٥٥- الملخص في شرح كتاب التوحيد، صالح الفوزان، ٢٠١٦م.
٥٦- شرح الدروس المهمة لعامة الأمة، عبد الرزاق العباد البدر، ٢٠١٦م.
٥٧- أحكام المساجد من صحيح البخاري، سيد حبيب، ٢٠١٦م.
٥٨- صفوف الصلاة فضائل وأحكام، فؤاد الجرافي، ٢٠١٦م.
٥٩- صور من حياة السابقين في تعلقهم بالمساجد، يونس الطلول، ٢٠١٦م.
٦٠- شرف إمام المسجد والمؤذن، سليمان الرحيلي، ٢٠١٨م.
٦١- علم المواقيت والقبلة والأهلة من الناحيتين الشرعية والفلكية، صلاح الدين أحمد محمد عامر، ٢٠١٩م.
٦٢- المدخل إلى مسند الإمام المبجل أحمد بن حنبل، سامي صبح، ٢٠٢٣م.
٦٣- دروس الإمام، (٦ مجلدات)، ٢٠٢٥م.
٦٤- صناعة الخطبة والخطيب (مجلدان)، حمادة مِسْيَر الدَّبْلاني، ٢٠٢٥م.

ثالثًا: الدوريات:

- مجلة الإمام القدوة: العدد (١) و(٢) ٢٠١٤م. العدد (٣) ٢٠١٦م.
العدد (٤) ٢٠١٧م. العدد (٥) ٢٠١٨م.

بحمد الله تم